سَجِينُ الْوَهْم

رِوايَة

سجين الوهم

رواية

تأليف :

طنطاوي عبد الحميد طنطاوي

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

سيد عثمان

رقم الإيداع: 2018/22880

الترقيم الدولي: 978-977-820-058-4

الطبعة الأولي : يناير ٢٠١٩

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450

بريد إلكتروني: info@kayanpublish.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublish.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

سَجِينُ الْوَهْمِ

طنطاوي عبد الحميد طنطاوي

رواية

إهداء

قرية ريدة ... سيدي الريدي .... أولياء الله الصالحين
طفولة ... بساطة ...تسامح ... عشق ومحبة
مسلمون ... مسيحيون
إمام وقس
نخيل وصفصاف
وترعة اختفت
ستظلين معشوقتي وأعود إليك صاغرا ملبيا نداء قلبي
تعلمت من كل البشر حولي ... لم أنس أحدا
لكم حبي ودعواتي وأمنياتي

الفصل الأول

-١-

نحبس ضحكاتنا، ننصت إليه في انتباه

يتحدث عن النساء، يعقد مقارنة بين النساء وحبة الفستق فيقول:

حبة مفتوحة قشرتها أو منفرجة تضحك، هي أنثى عشقت وفتحت أبواب قلبها للعاشق، ما على العاشق إلا أن يرفع قشرتها، هي تستسلم له بمحض رغبتها وتنتظر متلهفة قربه منها، ما على العاشق إلا التقدم، ستذوب بين أصابع يديه وتتذوق شفتيه أروعَ وأجملَ خمور الدنيا، لا حاجة للعاشق أن يستخدم فكيه، أما الثانية ففتحة قشرتها ضيقة جدًّا،هي امرأة تتخفى ولا يظهر منها سوى عينيها ويمكن أن نصفها بالمنتقبة، تنتظر وتتأمل في شغف من يفك أسر أنوثتها ومن يداعب قشرتها، على عاشقها أن يتريث، يقلبها بين يديه، يبعث الدفء فيها وهو يحضنها ويقلبها بين راحتي كفيَّهِ، يحاول أن يخترق حجب القشرة ويفصلها عن بذرتها، عليه أن يكون حريصًا وخائفًا أن لا تفلت من بين أصابعه، لا يتسرع قد يستعين بأظافره مرة وبقوة أصابعه، ساعة أن تستسلم في حنو بالغ ينزع ويرفع قشرتها، ساعة أن تصير بلا غطاء عليه أن يخاف عليها من قرصة البرد؛ ليغطيها فهي تبحث عن الدفء في راحة يده، قبل أن يلقيها في فمه عليه أن يداعبها بشفتيه ولسانه قبل أسنانه، لقمة هنيئة،

أما آخـر الأنـواع، فقشرتهـا أشـد صلابـة، مغلفـة مـن كل الجهـات، مغلفـة لا ينفـذ مـن قشرتهـا حـتى هـواء قلبهـا بـين يديـك، وابحـث عـن أرق جـزء مـن غطائهـا، لا عيـب أن تسـتعين بأنيابـك في البدايـة، الحـذر مطلـوب، فالكائـن الداخـلي لـم يلفحـه النـور مـن قبـل، اسـترها فالنـور كان محجوبًـا عنهـا كليـة، وهـي تلتمـس العشـق، وتتمـنى النـور كمـا لا تعـرف معـنى النـار.

يصمـت وننظـر لبعضنـا، ونضـج بالضحـك، وتتـوالى أسـئلتنا وعـلى كلٍّ يجيـب:

- أنت لم تتزوج؟

ينفـض جلبابـه ويهـمُّ بالمـضي، يتعلـق أكـثر مـن واحـد منـا بـه، نتوسـل إليـه أن لا يتركنـا فالغـد عـرس المنحـوس ابـن ... ونبـتر بـاقي الاسـم فالليلـة هـو المتـوج، يجلـس ويطلـب كوبًـا مـن الشـاي المضبـوط.

- أنا لم أتزوج؛ لأنني لم أجد من توافقني.

- لكنك تجاوزت الخمسين أو الستين.

- ليس شرطًا.

- نعرف أن آخر حدودك ترعة البلد.

- هذا ما تعرفونه عني.

- أنت من أهل الخطوة.

- دا سر مستحيل أتكلم عنه.

- الفستق تعرفه بأمانة.

- الفستق أكلته قبل ما تتولد يا حبيبي.

- أنت برنس من يومك يا عمر برنس.

- زي ما قالوا أنا اسم على مسمى.

يضحكـون، يضحـك بـدوره ويقسـم لهـم بأنـه لا يعـرف الفـرق بـين الفسـتق أو اللـوز، لكـن هـذا لا يمنـع أنـه أكلـه وهـو لا يعرفـه.

«برنـس» قاسـم مشـترك في كل الأفـراح، خاصـة ليلـة الحنـاء، هـو مـن يُجلـس العريـس فـوق الحصـير ويحـني قدميـه، يتـولى طقـوس الحنـة المعتـادة، بعـد مـا يلفـون بصينيـة الحنـاء المعجونـة والشـموع المشـتعلة المغروسـة في وسـطها، أو عـلى جوانبهـا الـدروب المحيطـة بمـكان العـرس، يسـلمونها للبرنـس وسـط غنـاء الشـباب بأغـانٍ متعـددة لعـل أشـهرها في تلـك الأيـام عمومًـا:

«الليلة الحنة وبكرة الدخلة وبعده الصباحية»

وتلـك أهـم طقـوس الأفـراح، كل ليلـة لهـا طقوسـها الخاصـة بهـا، البهجـة مفروشـة فـوق وجـوه النـاس جميعًـا، ومـن مسـتحدثات الأفـراح الضجيـج المصاحـب للأغـاني الـذي تبثـه الأبـواق عـبر مكبرات الصـوت، ذرات ملـح تسـقط فـوق الـرؤوس؛ لتبعـد الشـيطان وتفقـأ عـين الحاسـد، يتباهـى برنـس بعمـره الـذي طـال، فتخـرج مداعباتـه:

- أنـا حنيـت أبـوك ... وأنـا الـلي مسـكتك يـوم طهـورك .... إيييييـه النهـارده العيـال كـبرت وهتتجـوز ... دنيـا ...

لا أحـد يسـتطيع أن يحـدد أصـول البرنـس الحقيقيـة، قالـوا: السـيل دفعـه في طريقـه هـو وأسرتـه، كان السـيل هابطًـا في الـبر الـشرقي ويومهـا أغـرق الأرض وهـدم القبـور ودفعهـا في اتجـاه النيـل، نـاس قالـوا: إنهـم وجـدوه معلقًـا في جـذع نخلـة وهـو طفـل، لا يهتـم أكـثر النـاس بتلـك الأقاصيـص، البرنـس أصبـح واحـدًا مـن

أبناء البلد، في عشته الصغيرة يعيش، أطلق عليه اسم البرنس، وكان اسمه الذي جاء به هو سيد كما ادعى وقال يومها، اشتغل في البداية راعيًا في أراضي العمدة، فكان يبيت في حجرة قريبة من حظائر البهائم، ويوم اشتد عوده وهبه العمدة تلك الأرض التي أنشأ عليها عشته، وكانت خارج حدود القرية في أرض تسمى «داير الناحية»، وهي ما تسمى اليوم «أملاك الدولة»، ودارت الأيام وتمددت القرية بمبانيها حتى تجاورت عشة البرنس بالبيوت الحديثة التي بُنِيَت بالحجر والأسمنت المسلح، وضارعت بيوت المدينة شكلًا ومضمونًا، فكل من فكَّر في التجديد، وجاد الله عليه بالمال؛ عليه أن يبني دارًا جديدة على حساب الأراضي الزراعية، وعادة ظلت قائمة في كل موسم للبرنس نصيب محفوظ معروف ومتفق عليه، إن لم يذهب ليأخذه من الأرض أتوا به حتى باب عشته، فاعتاد الكسل، واكتفى بالمشاركة في المناسبات حزينة كانت أم سعيدة، لم يتزوج وعاش وحيدًا.

يبتسم البرنس ولا يلبث أن يتحدث بصورة جادة.

أنا هحنيك والقسمة العدل أنت النص وأنا النص.

يحاول العريس مستجديًا أن تتحرك كفة ميزان القسمة، ليكون نصيب البرنس الربع ونصيبه ثلاثة أرباع المبلغ المهدى من المحبين، لا يتنازل البرنس عن عرف متبع، ففي تنازله اليوم يتبعه تنازلات وربما كانت النهاية ولا شيء، يتمسك وبالطبع طقوس الحنة لا تكتمل في البلد إلا بالبرنس، لا مفر، يسأله أحد محبيه من الشباب

- مين هيورثك؟

بلا تردد يجيب:

- عباد الله الصالحين.

- في بلدنا ... ماتوا الصالحين.

- مش شرط بلدنا.

يقطع برنس الحديث الدائر، معلنًا بصوت عال وطرحًا لسؤاله المعتاد؛ لبدء مراسم تتويج العريس وحنته قائلًا:

- اللي يفتح الباب ابن حلال.

يتلقف بيده أول مشاركة وكانت خمسة جنيهات، يرفع بها يده عاليًا؛ ليدعو من يشارك ومن يرفع ويزيد، كأنه في صالة مزادات، أو منادٍ على بضاعة في الأسواق، ولكن يقول كلماته المعتادة.

- عقبال عندك يا فلان بخير وخلف الله عليك.

وتتوالى المشاركات، وكلما ارتقت القيمة زادت وارتفعت عقيرة برنس بالنداء بقوة أشد، وارتفعت يده؛ ليرى الجميع المبلغ المدفوع.

جماعات ولكل مجموعة جلستها، متعة الحديث المتداول، وشبق لسماع المزيد وخاصة عما تجيش به الصدور من أحاديث الفضائح والأسرار، كثير من مخدر البانجو، وقليل من الحشيش يستطيع العارف أن يفرق بسهولة من الرائحة المنبعثة من المجلس، أما المشروبات الروحية أو البيرة فالدرب الضيق ذو الأضواء الخافتة ملاذ، وهناك القائمون بالخدمة، من يذهب يعود والنيران المشتعلة في فيه، تختلف الجرعات من الجرعة الكبيرة للبيرة أو القصيرة السريعة من الخمور.

فوضى منظمة ينشدها أغلب الشباب الكبار، ومنهم من يداري نفسه وينقض في الخفاء فيرشف في وله، ومنهم من يأخذه

الحيـاء فيمتنـع، ومنهـم مـن يـضرب بـكل التقاليـد عـرض الحائـط، في الغالـب الجميـع ينتشـون في تلـك الليلـة، الكبـير والصغـير ولكـن بدرجـات متفاوتـة.

البرنـس هائـمٌ في عملـه، متقبـل النقـود والكلمـات المداعبـة ومـسرع بالـرد، يلقـي إليـه أكـثر مـن مدعـوٍ بسيجارة في وقـت واحـد، يشـعل برنـس واحـدة، وأمـا الثانيـة فيحتفـظ بهـا خلـف أذنـه لحـين، يضحـك وهـو يـردد:

- التحية لا ترد.

العريس يضحك وهو يتوجه للبرنس بالحديث:

- زي المنشار طالع واكل نازل واكل.

يضحـك البرنـس، ويسـحب قدمـه، ويطمـس باطنهـا بمعجـون الحنـاء قائـلًا:

- عمومـا تبـدأ راحـة العريـس مـن رجلـه ... يضحـك ويسـتطرد بعـد صمـت قليـل

والحِمَار تبتدي راحته بحوافره وأهم حاجة البردعة.

يرفسـه العريـس رفسـة خفيفـة، ويسـحب قدمـه وهـو غـارقٌ في الضحـك، وبالمثـل أصدقـاؤه ومحبـوه.

كلمـات البرنـس – غالبًـا - تطـرد الكآبـة والحـزن مـن أي مجلـس يشـارك فيـه،

يخاطبه أحدهم قائلًا:

- يمين بالله بحبك كما الخيارة بالصيف.

تكون إجابة برنس حاضرة فيرد وضحكاته ملازمة لكلماته:

- غير وخليها بطيخ ... المهم مش قرعة.

- عمومًا أنت فاكهة حلوة.

- جـزاك الله خـيرًا ... يـا تـرى مديحـك وراه حاجـة ...مـن غـير لـف ودوران.

يطلقـون العنـان لأفكارهـم المكبوتـة بالمـرح ومـا تفرضـه اللحظـة عليهـم.

***

تـبرق السـماء وترعـد بطلقـات الرصـاص مـن البنـادق الآليـة، تغمـر الأجـواء رائحـة البـارود، تتطلـع كل العيـون صـوب القـادم وتنطلـق الزغاريـد لتواكـب الطلقـات، الجميـع يعـرف مـن القـادم ولكـن مجرد حب اسـتطلاع، سـيد الكومـي «أبودماغ» اسـتطاع في السـنوات الأخيرة أن يتقلـد منصبًـا جماهيريًّـا، فأصبـح ممثـلًا للشـعب، تاريخـه غـارق في سـجون التيـه المجهولـة، حياتـه قفـزات غريبـة بعـد غيابـات، لا يعـرف أحـد عـلى وجـه الدقـة أيـن كان؟ حـرًّا أم سـجينًا، داخـل حـدود البـلاد أم خارجهـا، يـأتي يشـتري أراضي ويبـني، أو يضـع أثاثًـا لمـنزل ضخـم ويغيـب ثانيـةً، كان مفتونًـا بنجـوم السـينما وخاصـة مـن يقومـون بـأدوار الـشر، يقلدهـم في كلماتهـم، ويحفـظ عباراتهـم المُتْرَعَـة بالفُجـر والقسـوة والعنـف، يصفقـون لـه، لا يفصحـون عـن جنونـه وأوهامـه، فرأسـه شـبه المخروطيـة دفعتهـم أن يطلقـوا عليـه اسـم «أبودمـاغ»، يتمـنى يومًـا أن يدخـل مجـال التمثيـل، يتوقـف في دراسـته حـتي المرحلـة الإعداديـة، داخلـه يمـوج بأحـلام وأمـاني تدفعهـا الكلمـات الشريـرة الـتي يحفظهـا في ذاكرتـه، غـاص في أدغـال المدينـة الصاخبـة، وعـاش متنقـلًا مـا بـين عمـل وعمـل، وعـاد بثيـاب جديـدة في البدايـة، في المدينـة الكبـيرة أوكل إليـه صاحـب القهـوة

إدارتهـا وسـافر، هـذا كل مـا تعرفـه البلـد كلهـا، تاجـر مخـدرات، قاطـع طريـق، سمسـار عقـارات، لـص، لا يسـتطيع أحـد أن يحـدد لـه هويـة، كل مـن يضيـق منـه يطلـق عليـه أي لقـب، مـن كان لـه حاجـة وقضاهـا إليـه فيصفـه برجـل الخـير، ولكـن لا يـدوم الوصـف كثـيرًا.

الرجل قدَّم الكثير من المساعدات لأهالي البلدة، وكما قالوا:

«إن كان لك حاجة عند الكلب فقل له يا سيدي».

يكتفـي النـاس بالظاهـر، لكنهـم يسـارعون في ركبـه، كثـيرون يتكسـبون مـن ورائـه، وهـو بـدوره لا يبخـل بخدماتـه ولكـن ليـس للجميـع، بـل لمـن يخدمونـه في الغـد، لا يـترك عرسًـا ولا مأتمًـا إلا كان موجـودًا فيـه، في حالـة ظـروف سـفره بمجـرد أن يعـود يذهـب ليقـوم بالواجـب الـذي يدخـر رده حـين الحاجـة.

يتقـدم ومـن حولـه مريـدوه وأتباعُـه، حفـاوة لا مثيـل لهـا، ينتصب الجميـع وقوفًـا، لا يجـد حرجًـا أن يصافـح الجميـع كبـيرًا وصغـيرًا، الوحيـد الـذي لا يتحـرك مـن مكانـه هـو البرنـس؛ لأنـه قائـم بعمـل، والعريـس؛ نظـرًا لوضـع قدميـه، يتقـدم ناحيـة البرنـس والعريـس فيهـنئ العريـس، ويحـيي البرنـس ويدفـع لـه أوراقًـا نقديـةً يخفيهـا مـا بـين راحـة يـده وأصابعـه، هـو معتـاد تلـك الحركـة.

صـاح البرنـس وبأعـلى صـوت - لكـن بـلا ابتسـامة فـوق وجهـه- محيِّيًـا وداعيًـا رافعًـا مـن شـأن المانـح، ملامحـه ومـا ظهـر عليهـا تعكـس امتعاضـه المخفـي.

مجـرد أن ولى أبـو دمـاغ وجهـه، دفـع المبلـغ في الجيـب العلـوي للعريـس، العريـس يسـأله بـلا صـوت ظاهـر:

- لماذا؟

وبصوت هامس يقول:

- ليس لي في ماله نصيب.

مـصري مجنـون بالبرنـس، يحـب كلماتـه بـل يعشـقها، لا يهتـم البرنـس بفـارق السـن بينهمـا، يحـاوره ويناقشـه نـدًّا لنـد كمـا يقـول، الوحيـد في البلـد كلهـا الـذي دومًـا يشـيد بمـصري، فيصفـه دومًـا بصاحـب القلـب الأبيـض النقـي، وأنـه ورث هـذا النقـاء عـن أبيـه رحمـة الله عليـه، يقـول لـه:

- كلهم ملوثون لا يغرنك مظهرهم.

من بره هلا هلا ومن جوه يعلم الله.

وعمك برنس عارفهم وعاجنهم وخابزهم.

يقص على مصري أشياء كثيرة يغفل عنها بحكم سنِّه.

ليلـة الحنـة الجميـع يسـهرون حـتى الصبـاح، في هـدأة الليـل وصمتـه، يتنـاوب مـصري والبرنـس حديثًـا، يتفـرع حديثهمـا لنـواح عديـدة، يجـد البرنـس في قصِّـه عـن حياتـه سـلوى، يحـكي عـلى دَيْـنِ العمـدة- أبـو العمـدة الحـالي- في رقبتـه؛ أعانـه عـلى مطالـب الحيـاة، كـم أصر عليـه أن يـتزوج، وكان يهـرب مـن مجـرد التفكـير في الـزواج

يسأله مصري في حياء:

- ولماذا؟

- لا تكن مثلهم.

- مجرد سؤال ومن حقك....؟

يقطعه قائلًا:

- ورحمة أبوك الغالي لأحكي لك على أن يظل هذا سرًّا بيننا، عمدتنا الحالي ليس مثل أبيه -رحمه الله وأسكنه جناته، ولد خِرع، دلوعة السِّت أمه، كان عود في نُقرة، يعني وحيد أبوه وأمه، دلوعة.

منذ أربعين عامًا ويزيد، كان بيت البرنس المشيد بالطوب اللبن والطين، ومسقوفًا بالجريد وأفلاق جذوع النخيل في الموقع نفسه الذي هو فيه الآن، لا تزيد مساحة البيت عن مائة متر، عبارة عن حجرتين ومن داخلهما حوش صغير، كان متطرفًا على حدود البلد، بينه وأول بنايات البلد زراعات متعددة تتجاوز عشرات الأفدنة، ويسور البلدة كلها آلاف من شجيرات النخيل السامقة العالية، وحول منزل البرنس عشرة نخلات أطلق عليهم الناس اسم «نخلات أبو صقر»، لا يعرف سبب المسمى هذا، وهبَهم له العمدةُ الأب مثلما وهبَهُ البيت، يشعر البرنس بسعادة غريبة بأنه أصبح مالكًا لمكان يعيش فيه، تلك كانت أقصى أمانيه في الدنيا، ولا يبغي المزيد منها، جلس البرنس في ليلة شتوية قارصة البرودة، أشعل النيران؛ ليستدفئ بها، وعندما تصفو يلقي بقطع من الخبز في وهج النيران، فتتمدد وتصير ذات لون بني من آثار الحرق، وذات طعم جميل عندما تغمَّس بالجبن القديم اللاذع الحرارة، تقرمش ونكهتها طيبة رائعة، يدخل عليه مباشرة دون نداء سابق العمدةُ الحالي، لم يكن يومها تجاوز السادسة عشر عمرًا، تعقد المفاجأة لسان البرنس ويقف مشدوهًا منزعجًا، الشاب لا ينطق بكلمة واحدة ولكن يسحب في يده فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها الخامسة عشر، يدفعها للداخل، بلهجة واثقة لا تخلو من عنجهية وطيش شباب أمر البرنس بالخروج، تردد

البرنـس أمـام كلماتـه، حـاول أن يتكلـم لـم يسـتطع أن يـرده عمـا يقـول، كيـف وهـو ابـن الرجـل الـذي آواه، مـن أكرمـه، لقـد فتـح لـه بـاب بيتـه؛ ليـأكل ويـشرب في أيامـه الأولى، كـم كانـت فرحتهـم يـوم رزق بهـذا الولـد، لقـد منحتـه أمـه جلبابًـا صوفيـا وحـذاءً مدببًـا ذا رقبـة طويلـة مثـل حـذاء العمـدة، وشـالًا قطنيًّـا ثقيـلا مـا زال يلتفـح بـه حـتى اليـوم، البرنـس يفعـل أي شيء؛ ليسـعد قلـب الأم والأب وعليـه أن يلـبي طلبـات الابـن، طلباتـه كانـت لا تنتهـي وكانـت سـعادة البرنـس غالبـة ليفعـل مـا يـود الفـتى الصغـير، طلـب يومًـا أن يـأكل بلحًـا مـن النخلـة وبـشرط أن ينقيـه بيديـه، بـكى بـكاءً مـرًّا، وضرب بقدميـه في الأرض والأم تخـاف ثـورة الأب فيضربـه، تخـاف عليـه بجنـون، يومهـا ربطـه البرنـس عـلى ظهـره واسـتطاع مسـتعينًا بمطلـع النخـل، وهـو عبـارة عـن حبـل قـوي يربطـه ويمسـكه بيديـه ويصعـد بـه لأعـلى خطـوة خطـوة، الأم أسـفل النخلـة وعيناهـا لا تفـارق ذلـك المشـهد، البرنـس يصعـد وفـوق ظهـره الفـتى، قلـب الأم يهـتز مـع كل خطـوة يخطوهـا لأعـلى، وصـل أخـيرًا إلى مبتغـاه، امتـدت يـد الفـتى تتخـير مـا يحـب وهـو يمـوج بالسـعادة، أشـياء كثـيرة كان يفعلهـا البرنـس؛ حبًّـا في الفـتى وحفظًـا لجميـل لا ينسـاه، أصبـح أسـير طلبـات الفـتى الصغـير في أيـام كثـيرة، كان يرفعـه فـوق رقبتـه ويـدلي كلًّا مـن سـاقيه كل واحـدة منهمـا فـوق كتـف، يطـوف بـه أرجـاء البلـد الـتي كانـت يومهـا صغـيرة محـدودة الأطـراف، حـتى في الموالـد يطـوف بـه وراء أصحـاب الطـرق الصوفيـة بطبولهـم وبيارقهـم وأدعيتهـم، كانـت طفولـة الفـتى مرتبطـة بـه كثـيرًا؛ لهـذا السـبب كان محببًـا لأبويـه وكانـا يحيطانـه بحـب وكـرم وكأنـه واحـد مـن أهلهـم بـل يزيـد، فلـم يشـعر بأنـه غريـب أو بـلا أهـل حيـث

كانـوا أهلـه وعزوتـه.

يأمـره الفـتى بالخـروج ومعـه فتـاة صغـيرة اسـتطاع البرنـس بسـهولة وعـلى وهـج النـيران أن يعـرف مـن هـي، لا يعـرف كيـف يـرد الفـتى وتمـوت الكلمـات عـلى شـفتيه، يجـر نفسـه خارجًـا مـن بيتـه، ملايـين الأسـئلة تـتردد داخـل رأسـه وكلهـا تحـذره مـن غضـب العمـدة القـادم ووريـث العمـدة الحـاضر، عليـه أن يرتـضي ويـرضى، خـرج في سـاعة تـكاد تتجمـد فيهـا الأطـراف، شـعر بالـبرودة فـوق وجهـه، لفحـات الهـواء البـاردة تـكاد تجمـد أطرافـه، لكـن لـم يهتـم فالنـيران المتقـدة في الداخـل خففـت حـدة الـبرودة القارصـة الـتي تلفـه مـن كل الجهـات، لـم يـدر كـم مـن الوقـت مـضى، عـاد إلى حجرتـه وكانـت جمـرات النـيران المتقـدة قـد خبـت، وجـد مبلغًـا مـن المـال ملقـى فـوق مخدعـه الأرضي البـالي، آثـار بـكارة الفتـاة ظاهـرة، لـم يـدر بنفسـه فحمـل مخدعـه القطـني القديـم وألقـى بـه في النـيران وراح ينفـخ في بقاياهـا لتسـتعر، لـم يأتـه النـوم، حـتى الصبـاح وهـو يرشـف أكـواب الشـاي ويشـعل سـجائره ويتـوه في احتمـالات قائمـة للغـد، مـاذا سيحدث؟ هـل يـا تـري مـن الممكـن أن تدعـي الفتـاه أنه السـبب في ...، لا يسـتبعد شـيئًا ممـا قـد يحـدث، في صبـاح اليـوم التـالي يأتيـه وهـو فـوق صهـوة فرسـه وابتسـامته مفروشـة فـوق وجهـه، هـل يهـدده بأنـه سـيقول لأبيـه؟ يعـرف مقدمًـا بـأن أمـه ستسـتميت في الدفـاع عنـه، ليـس بيـد الأب شيءٌ، سـيعنفه بكلمـات ولكنـه سـيفقد الكثـير، عندمـا يدخـل الفـتى بعـد أن ألقـى بلجـام فرسـه إليـه، يتأمـل مـا كان، يخـرج ضاحـكًا:

- أحسنت بأنك حرقتها.

- حرام.

- كل البشر يرتكبون الخطايا.

- حرام ...أنت.

يومها لم ينتظر منه أن يعلمه المزيد من الأخلاق والفضائل، لأول مرة يتحدث إليه بنبرة متعالية، بل قاطعه قائلًا:

- أحسنت، اليوم سيأتيك سرير جديد بكل مشتملاته.

في اليوم نفسه - فعلًا- نفَّذ ما وعد به، فأُتي بسرير بكافة مشتملاته وأغطية تزيد عن حاجته، وقبل أن يمضي دس في يده مبلغًا من المال، قفز بسرعة فوق فرسه وضربه بحذائه في بطنه، فأسرع الفرس يسابق الريح.

لا يُنكر أن الفتى بعد تلك الواقعة أتى أكثر من مرة بتلك الفتاة، وخرج بإرادته يتنسم - قسرًا عنه- برودة المساء ولعنات السماء، يقول إنه كره الفعل الحرام ولعنه، وخاصة عندما أتته الفتاة بعد بضعة أشهر تشكو بأنها حامل، بعدها رأى بعينيه كيف تخلص منها أهلها ليداروا على فعلتها المنكرة.

يتنهد بكل أسى، ويزفر زفراتٍ متتابعاتٍ، ويرتعش جسده، وهو يصف لمصري وحدته -فهو لا حول له ولا قوة- وتحمله وزر ما حدث للفتاة وخرسه وصمته على فعل المنكر الذي أغلق عينيه دونه.

يُغفل البرنس متعمدًا باقي الحكاية، حكايته مبتورة غير كاملة، لقد أتته الفتاة بعد المرة الأولى أثناء الليل، يومها تملكه القلق والخوف والرعب، لم يشعل النيران بل راح يستطلع المكان خارجًا، يصيخ سمعه جيدًا فلا يسمع سوى هسيس ليل وحفيف أشجار وسكونٍ يشمل الأرجاء، تهبه الفتاة جسدها

لتضمـن صمتـه، كان فتيًّـا قويًّـا، لا يعـرف شـيئًا عـن الممارسـة، بدائيًّا وغير مـدرب وتلـك هـي المـرة الأولى، فـكل علاقتـه بالجنـس مجـرد استمناء سريـع وحسـب، تـذوق ورشـف وأحـس بطعـم النشـوة والهـزة، تركهـا عـلى أن تـأتي بعـد الغـد، وكانـت كلمـات التهديـد واضحـة جليـة فاستسـلمت لكلماتـه وأفعالـه، وتكـرر اللقـاء وتعلـم كيـف يجابـه وكيـف يشـبع رغباتـه ورغباتهـا، كانـت تـأتي يومًـا للفـتى ويومـين للبرنـس، أتـت إليـه فهـمَّ بهـا، أخبرتـه بأنهـا حامـل، صفعهـا عـلى وجههـا وطردهـا، أقسـمت بأنهـا حامـل منـه فالفـتى لا يجيـد حـتى ... لـم يسـمع لكلماتهـا وراح يركلهـا بأقدامـه ويلعنهـا، استسـلمت وذهبـت في طريقهـا حـتى كانـت نهايتهـا.

تلـك الحقيقـة المجـردة لـم يقلهـا لمـصري، واكتفـى بمـا يظهـره بأنـه ضعيـف، مـصري لا يصـدق ولكنـه يقسـم لـه بأنهـا الحقيقـة مجـردة.

أهلها قالوا: إنهم غسلوا عارهم.

يسأله مصري: أما كان الأولى بهم أن يعرفوا الفاعل؟

تكون إجابته:

إنهـم يخافـون، وربمـا لا يسـتطيعون المجابهـة، وربمـا تنتـشر الفضيحـة ويعرفهـا القريـب والبعيـد، فـأولى لهـم التخلـص مـن الفتـاة.

وكما قالوا: اضرب المربوط.

يرددهـا بحـسرة بالغـة وألـم يستشـعره مـصري في حشرجـة صوتـه وتقطعـه، شـهقاته وزفراتـه تدفـع مـصري لـلإسراع بكـوب المـاء، فالرجـل يـكاد يختنـق مـن الألـم، يشـعر مصري بمدى بؤسـه فيواسـيه

ويطلب له الرحمة، يحاول أن يخفف عنه تحت مسمى ألَّا وزر عليه، يدس في يد مصري كومة صغيرة من الأوراق النقدية التي تكاد تملأ جيبه من حصيلة الليلة بعد قسمته هو والعريس، يحاول مصري أن يردها إليه ولكنه يصمم ويضغط على يده، يحاول أن يكون صوته خافتًا آمرًا وبصورةٍ جديةٍ ويبدو هذا فوق ملامح وجهه.

يحاول أن لا يستطرد في حكايته، فقد استمرت أفعال العمدة الصغير، فكان رهن أي إشارة يتلقاها منه، فيجهز المكان وينتظر في الخارج كالعادة، ويتولى أخذ نصيبه المادي من العمدة ونصيبه الجسدي منها بدورها.

مع تزوج العمدة وحجه لبيت الله، ابتعد الرجل، لكن وجد فيه أحد رجال أبو دماغ المدعو « ضبع» مأوًى جيدًا، تقرب إليه، فاتفقا في سرية تامة وعلى البرنس أن يأتي بالمرأة، وضبع يدفع ويتقاسما جسدها معًا، اشتركا في أفعالهما الآثمة لفترة لم تطل كثيرًا، أما الواقعة التي يحاول أن يمسحها البرنس من رأسه، فقد دعى يومًا بالخطأ زوجة ضبع فأتت وكان لا يعرفها، كانت المفاجأة التي عقدت لسان ضبع وزوجته في وقت واحد فقيد البرنس، ومن يومها وأصبح البرنس مجرد طوشي لا يعرف الميل إلى النساء إلا حديثًا.

اتسعت القرية وامتدت وتعدت حدودها منزل البرنس، فتاهت المعالم القديمة، والبيوت القديمة حتى أشجار النخيل اختفت، منازل الطوب اللبن والطين كادت تختفي نهائيًا، ضاعت كل معالم الأمس، ومات ضبع وما زالت زوجته على قيد الحياة عجوزًا شمطاء، يبتعد البرنس عن مكانها ويخاف أن يقابلها ولو

صدفة، كانت الأيام كفيلة بالنسيان، وعاش البرنس محاولًا أن لا يقترب من رجال أبو دماغ الذين يكرههم ويكره كبيرهم.

يقول لمصري:

إنه يكره أبو دماغ ورجاله كلهم ولا يقبل أموالهم لأنها من حرام، لا أحد يتكلم في الماضي؛ شغل الناس بالحياة واستفزَّتهم معالم الحياة الجديدة، انطلقوا ولم يفكر أحد في حقيقة أو أصول البرنس.

-٢-

«مـصري» ابـن عـم العريـس، لا يركـن للراحـة أو الجلـوس، مـن قبـل غـروب الشـمس وهـو يطـوف أرجـاء البلـد كلهـا داعيًـا لحفـل زفـاف ابـن عمـه، طلبـات لا تنتهـي وأوامـر صـادرة مـن عمـه ومـن يكبرونـه وعليـه التنفيـذ، ابتسـامته لا تفـارق وجهـه ولا يبـدي تذمـرًا بـل سـعادته ظاهـرة جليـة فـوق وجهـه، كلمـات قليلـة يخرجهـا مـن فيـه، أغلـب أهلـه يسـمونه الفاشـل، فهـو لـم يحصـل علـي الشـهادة الإعداديـة، لا يهتـم بمقولاتهـم ولا يعـرف كيـف يردهـا، يحسـد النـاس مـن حولـه علـي قدراتهـم الفائقـة في الحديـث الـذي لا ينتهي، كـم يتمـنى أن يتكلـم كثـيرًا مثلهـم وأن تتحـرك شـفاهه بمـا يخالجـه مـن مشـاعر، مسـتمع جيـد ويعـي كل مـا يحـدث ويتفهمـه بصـورة رائعـة، لا قبـل لـه بالحـوار والمشـاركة الفعالـة الـتي بهـا يسـتقطب عيـون جالسـيه، كثـيرًا مـا يؤثـر الصمـت، حـاول ولكـن كانـت الكلمـات تمـوت أو يدفعهـا لسـانه لجـوف فمـه، يحـاول ويخـاف المجازفـة، ربمـا تخونـه الكلمـات، متأكـدٌ أن الفشـل سـيكون حليفـه، فقـد يقـوده الحديـث لأخطـاء ولا يعـرف كيفيـة مجـاراة الآخريـن، وكأنـه يصـور لنفسـه بـأن مجـرد الحديـث قـد يلقـي بـه إلى التهلكـة، رغـم أن ملامـح وجهـه السـمراء النـضرة الهادئـة وابتسـامته الدائمـة تدفـع الكثيريـن إلى محبتـه والثقـة فيـه، إلا أنـه لا يثـق حـتى في ملامـح وجهـه إذا وقـف أمـام المـرآة، يشـعر بأنـه أقـل النـاس حظًّـا شـكلًا ومضمونًـا.

كلمـة الفاشـل مرتبطـة بـه، لا يهتـم – كثـيرًا- بمـا يصفونـه بـه،

رغـم أن شـهيقه وذفـيره تفـاؤل غالبًـا، يصفـه الكثـيرون مـن أهلـه خاصـة بتلـك الصفـة وأحيانًـا بالحزيـن، إلا أنـه سـاعات كثـيرة يغـرق في الضحــك وهــو جالــس أمــام التلفــاز في صحبــة الأقــران وهــو يشـاهد عمـلًا كوميديًّـا تافهًـا.

لا يشـعر أنـه بمعـزل عـن أقرانـه، فكلهـم محبطـون بخيباتهـم المتتاليـة، يعيشـون طقـوس الحيـاة المعتـادة والمتكـررة، أغلبهـم لا يبيحـون بخلجـات قلوبهـم أو أمانيهـم الـتي تـكاد تخـرج مـن لبـاس التقـوى، أكاذيبهـم يتداولونهـا.

الحديـث عـن الأنـثى مُحَرِّضًـا عامًّـا لهـم عـلى الشـهوة المحبوسـة، تتفجـر في حديـث وتلـتزم بمكمنهـا ثانيـة، ثـورة نائمـة تتفجـر في كلمـات يتبادلونهـا، المـصري لا يخـرج عـن المعتـاد ولكـن الصمـت يغلـب عليـه، تنـام داخلـه وتتربـع الأنـثى فـوق آفـاق فكـره ليـلًا ونهـارًا، ومجـرد البـوح خطيئـة.

تداعــت أحلامهــم، تعاســة تفــرد جناحيهــا فوقهــم؛ فتحيــل نهارهــم ظلامًــا فيتحسســون طريقهــم رغــم ســطوع الشــمس، ربمـا جنحـوا للاستسـلام والسـكون في مكانهـم؛ انتظـارًا للمـوت أو لانفراجــة لا يعلمــون مــتى وكيــف، يلعنــون ولا ينطقــون؛ فقانــون السـادة فـوق رؤوسـهم سـيفٌ مسـتعدٌ صاحبـه لقطـع الرقـاب، ومـن ينفـذ القانـون خـارج عـن القانـون لكنهـم يصفقـون لـه ويمدحونـه وينتخبونــه أوان الانتخــاب.

أحــلام طموحــة بالليــل تبعثرهــا شــمس النهــار، فــلا يفكــر أي منهـم في اقتفـاء أثرهـا والسـعي خلفهـا فقـد عرفـوا معـنى الـسراب.

***

أغلبهـم الليلـة يضحكـون ويتسـامرون، يمـر المـصري عليهـم مقدمًـا المشروبـات والمأكـولات الخفيفـة المعتـادة في ليلـة الحنـة، يعيشـون اللحظـة وقـد تأخذهـم النشـوة الكاذبـة فيرقصـون ويمرحـون ويتبادلـون النـكات والمداعبـات الـتي تخـرج كثـيرًا عـن المألـوف، وتخفـت - تباعًـا- حـدة أصواتهـم.

هـا هـي الليلـة قربـت عـلي الانتهـاء، عليهـم الاسـتعداد لليلـة الغـد يـوم العـرس المشـهود، تـم ذبـح الثـور منـذ سـاعات قليلـة، أهـل وصحبـة العريـس لـن يمضـوا إلا بعـد العشـاء، قـام مـصري بخدماتـه المعتـادة، فقـام بواجـب العشـاء ولـم يـكل لحظـة واحـدة، وذهـب الجميـع لمبتغاهـم إلا القلـة القليلـة الأكـثر قربًـا مـن العريـس، وبالطبـع المـصري واحـد منهـم وعليـه دور كبـير.

أفسـحوا المجـال للشـيخ الجديـد، مراسـم عمـل التحويطـة الخاصـة بالعريـس دائمًـا في نهايـة ليلـة الحنـاء، وهـي إحـدى العمليـات الخاصـة جـدًّا الـتي تحمـي العريس مـن الشرور العكسـية، وتمنحـه طاقـة الرجولـة الكافيـة؛ ليخـرج في ليلـة عرسـه رجـلًا مكلـلًا بالنجـاح بعـد العشـاء الدسـم للشـيخ، أمـا الشـيخ فليـس جاهـلًا أو مخادعًـا وإنمـا شـيخ عـلى الطريقـة الحديثـة، فالشـيخ أزهـريٌّ، وخريـج جامعـة، ودرس الشريعـة والقانـون، ومعلـمٌ في المعهـد الأزهـري.

طقـوس جديـدة مسـتحدثة، لا حاجـة لرائحـة العريـس، كانـوا يبعثـون بقطعـة مـن ملابـس العريـس للشـيخ عبـدالله ولكـن هـذا عفـا عليـه الزمـن، ويدفعـون إتـاوة معتـادة ومعلومـة متغـيرة بحسـب قـدرات العريـس، فالشـيخ عبـد الله يـأتي بـأوراق مكتوبـة بـدم الغـزال ويهبهـا للأهـل، منهـا مـا يحـرق ومنهـا مـا يذيبونـه في

الماء، والحجاب تحت مخدع العريس أو تحت إبطه، يضرب الشيخ الجديد كل ما فات ويهاجمه ويصف من كانوا يقومون به بالخداع والكذب.

الشيخ الجديد يتبع مقولات وأفعال السلف الصالح، يفتي في كل الأمور، فالعريس أهم شيء يحاط بالرقية الشرعية، فهي الأولى والأهم والحافظة من عين الحسود، عليه أن يسد المنافذ على الشيطان، يدور في أرجاء المنزل وهو يردد آيات بعينها أو يقرأ دعاءً شافيًا يحصن به المنزل وخاصة حجرة نوم العريس، يصحبه المصري في تحركاته مستجيبًا لكل طلباته.

استطاع الشيخ في خلال فترة قصيرة أن يحوز الإعجاب في كثيرٍ من الأمور، حتى في حالات السحر ومن يمسه الجن.

***

مصري، معتاد كل ليلة أن يتوه بأفكاره فيما يحدث حوله، يفكر كيف يقفز مبتعدًا عن مخالب الفقر والعوز، قد يسبح في أحلام يقظة كاذبة ويخدمه علاء الدين بمصباحه وتأتيه المنة من الله بالنوم، حتى معاملات أهله فيها جفاء وتقليل -غالبًا- من شأنه ووضعه بينهم، مؤهلاته لا تضعه إلا في ذيل البشر حوله، يشعر أنه غريبٌ مهجورٌ، لكن كل أهالي البلد يودونه ويرحبون به في مجالسهم، يلقي بنفسه على مخدعه طريًّا أو خشنًا ويسافر في نومه.

بطرف عينيه يختلس نظرات، يحدق في كعبيها المشعين حمرة، وما فوقهما بقليل ظاهر من معالم ساقها الأبيض الناعم،

يتجاسر ويتمنى ويرتفع ذيل جلبابها قليلًا فتبدو ربلة ساقيها المُتْرَعَة بما يبهج حرمانه، تتسارع نبضات قلبه ويمتص لعابه حتى يجف، يخاف أن ترفع بصرها وأن تتقابل عيناه بعينيها، مشاعر متناقضة.. تجاسر وخوف، لا يستطيع أن يتقدم خطوة أو يظهر إعجابه، من هي؟ إنها إحدى قريباته وتستطيع أن توبخه، عليه أن يبتعد عن مجال رؤيتها فهي سليطة اللسان، رغم أنها تجاري كثيرًا من أهله وأهلها الضحك والحديث الذي يطول مداه ويحمل بين طياته الكثير من كلمات نزقة وإيحاءات فجة، لكنه في الذيل بالنسبة للجميع، فلا تعيره اهتمامًا، وكثيرًا ما تقلل من شأنه، يحبس مشاعره ويصمت ويكمن في ذاته ويكتفي بنظرات متلصصة.

الشيخ قال : ستنال مرادك، متى؟ بعد الموت، لو كان نصيبك الجنة ستحظى بسبعين حورية بنات حور، ويصف له الكواعب الأتراب، لا يتوقف الأمر على حدود السبعين فحسب، لكل واحدة من بنات الحور سبعون جارية –أيضًا- وكلهن ملك لك، يأتيك الله قدرة لا مثيل لها، تفوق قدرة سيدنا سليمان -عليه السلام- في مروره على نسائه في ليلة واحدة، وتستطيع أن تأتيهن متى شئت، سبعون وخلفهم سبعون يقترب العدد من نصف ألف، ولكن متى ..؟ بعد الموت!!! يمتص لعابه ويتوه للحظة في أمانيه اللحظية، ويطرح على نفسه سؤالًا:

هذا في الجنة، لكن هل ستكون نهايتي الجنة؟

لكنَّ إقامة الصلاة شرط أساسي كونه مسلمًا فيقيمها.

يصف نفسه بالجنون، يحاول أن يئد تلك الأفكار التي تنتابه، إنها أفكار مزعجة، يتخيل وكأنه الوحيد على ظهر الكرة الأرضية

صاحب تلك الأفكار السوداء، هل حالته مرضية ومستعصية وميئوس منها؟ يخاف أن تشي عيناه بشيء مما يداخله أو ربما يظهر في بؤبؤ عينيه فيفتضح أمره، يرتد بصره للأرض في أي حوار مع فتاة أو سيدة أيًّا كانت حتى لو كانت من المحرمات بالنسبة له، أن يكبت مشاعره فحياء متوارث، حذر في سلوكه وكلماته، طنين أصوات تنبعث من داخله تتمنى أن يفك أسرها، يعرف الطريق إلى إطفاء لظاها، ترجُّه رجًّا وتعتريه رعشة، يعرف طريق الدواء الذي ينقذه من تلك الورطة المحببة، يتحين الفرصة للانفراد، يقضي على ثورته في لحظة، لا يرتوي وتعوده من جديد، في النهار يكبح جماحها وتفتر همته، تلح عليه بلا مواعيد، في المساء تنقض عليه في ساعات نومه، يستطيع أن يتخلص منها وتشع في جسده راحة.

الأقران يفصحون ويتحدثون، تخونه الكلمات فيكتفي بالاستماع والابتسام وتلك هي أقصى حدود مشاركاته، وكعادتهم –دائمًا- يحاولون أن يخلطوا الأوراق ببعضها والحكايات الخارجة بالتقوى، فتتردد أحاديث عن السلف الصالح، ترتعش فرائص وتهتز مشاعر وفي النهاية يذهبون للصلاة.

دومًا يحاول أن يكون صامتًا، يستطيع أي إنسان أن يستهزئ به، تخامره مشاعر لا تتجمع في بوتقة واحدة، هي المرأة التي تستأثر بلبه في تلك الأيام فيكون قلبه على وشك الانفجار كلما أتته الفكرة.

يتوقف ويتذكر كلمات أحيانًا ساخرة.

أنت غير لائق إنسانيًّا.

ويومًا قال له أحد الشيوخ:

أمثالك لا يدخلون الجنة.

قال له شيخ آخر:

الجنـة يـا بـني ليسـت حكـرًا عـلى إنسـان دون آخـر، لا تصـدق مـن قـال رأيـت إنسـانًا في الجنـة وآخـر في النـار، ندخـل الجنـة برحمـة الله، يعـدد لـه الشـيخ فضائـل سـيدنا أبي بكـر الصديـق ويذكـر مقولتـه: «لـو أن أحـد قدمـي في الجنـة مـا أمنـت مكـر الله». وكيـف كان يبـكي؛ فالجنــة ليســت مرهونــة في دخولهــا بكينونــة إنســان مــا، يضحــك الشـيخ ويطلـق لـه تحذيـرات يحـاول أن يعمـل بهـا.

إياك والفراغ، حاول أن تشغل نفسك بأي عمل.

في حــوش المــنزل شــجرة نخيــل باســقة، ينظــر لهــا، يحــاول الانســحاب مــن أفــكاره وأمنياتــه البائســة المتســلطة عليــه، يربــط جلبابــه حــول وســطه ويتســلق النخلــة، يشــذبها ويســحب ليفهــا ويعــود مــن جديــد، يبلــل الليــف بالميــاه وينــسره لفائــف صغــيرة ويجدلــه مســتعينا بيديــه وقدميــه.

لا ينسى أن الشيخ يحذره ضاحكًا.

إيـاك مـن المـرق الثخـين الدسـم؛ لأنـه يهيـج الأعصـاب ويشـعل نـيران الجسـد.

لكـن تلـك النصيحـة يـضرب بهـا عـرض الحائـط ويتجنـب تنفيذهـا، فـإن جـاءت الفرصـة يقبـل عـلى الطعـام بنهـم ولا يهتـم.

-٣-

اليـوم الشـيخ حلمـي الحنـش، ينادونـه سـيدنا الشـيخ، أمـا فيمـا بينهـم فيلقبونـه بالشـيخ «لا مؤاخـذة»، فـ «لا مؤاخـذة» لازمـة مـن لـوازم حديثـه، تـتردد دومًـا عـلى شـفتيه، كانـت ضحكتـه تجلجـل طـوال المسـاء والسـهرة في جلسـاتهم المعتـادة عـلى حافـة الترعـة، هـذا مـا اعتـادوه منـه قديمًـا، أمـا الآن فتغـير الحـال، فـلا يجالـس رفقـاء الأمـس، مـن يريـد فبيتـه الجديـد الحديـث الواسـع بحديقتـه البكـر الـتي لـم يكتمـل نمـو أشـجارها بالكامـل تفتـح أبوابهـا طـوال الليـل، أصبـح شـيخًا ولـه مريـدون وأحبـاب، يقصدونـه في أي وقـت، يرحـب دومًـا بالجـدد ومـن جـاء ليسـتلهم منـه طريقًـا لحيـاة جديـدة، نصـب نفسـه عالمًـا، حصيلتـه كانـت لا بـأس بهـا وأموالـه كانـت محـدودة، يشـتري الأراضي ويسـاعد في بنـاء المسـاجد وللجمعيـات الخيريـة نصيـبٌ وافـرٌ ممـا رزقـه الله، اليـوم لا يجلجـل بضحكاتـه عاليًـا، أصبـح متشـددًا في فكـره وكلماتـه، أصابـه هـوس غريـب بالعـودة لـكلام السـلف وأحاديثهـم، وتناولـه يفـرض عليـه الحـرص والتقيـد والالـتزام، ماتـت ضحكاتـه عاليـة الصـوت، لـم يطـل بقـاؤه خـارج حـدود البـلاد أكـثر مـن عامـين، عـاد بلحيتـه الكثـة وأصدقـاء مـن بـلاد عربيـة يأتونـه، يسـألونه أحيانًـا فيحمـد الله عـلى النعمـة واليـوم عليـه أن يـؤدي حـق الله عليـه ودائمًـا يـردد:

«ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب».

لا تفوتـه صـلاة ولكنـه عـزف عـن الأفـراح ومـا يقـترن بهـا مـن أفعـال، يقـول إنهـا غـير محببـة إليـه، ويلمِّـح في كلماتـه بـأن الـشرع يحرمهـا.

أمـام الجميـع يتغـنى بالمـوت والشـهادة في سـبيل الله ورفعـة الديـن، ولكنـه لا ينـسى نصيبـه مـن الدنيـا فعـلى ذمتـه أربعـة مـن النسـاء، يراعـي في اختيارهـن الجمـال والعذريـة شرطًـا أساسـيًا لا يغفلـه.

يقول الشباب في همس متداول:

يحظـى بالجنـة قبـل المـوت ويسـأل الله أن تكـون نصيبـه بعـد المـوت.

أحاديـث تتـداول بـأن طعامـه زاخـر بمـا لـذ وطـاب، حمـام محشي ومشـوي ورومـي، أمـا عشـقه للخـراف فـلا يوصف.

لسـانه سـوطٌ يجلـد بـه مـن يخالفـه في الرأي، رغـم أحاديثـه القديمة وكأنـه فـارس يجـوب سـاحة حـرب، يسـخر ممـا يحـدث حولـه، ينتقـد الأحـوال ومـن يرسـمون سياسـات البلـد في صـورة يحـاول أن يجعلهـا هادئـة، يـزداد تعـداد مريديـه وخاصـة مـن الشـباب، المـصري يتمـنى أن يشـارك أصحابـه في الذهـاب إليـه، يدركـون أنـه موافـق بمجـرد أن عرضـوا الفكـرة عليـه، أحـد أصحابـه ممـن حصلـوا عـلى مؤهـل متوسـط ويفخـر بـين زملائـه بأنـه لا يعـرف القـراءة ويكتفـي برسـم اسـمه، يقسـم للمـصري بـأن هـذا الرجـل مـن أوليـاء الله الصالحـين، يعـدد أفعالـه الـتي يفعلهـا في الخفـاء أو في الجهـر، ويزيـد القسـم بـأن ملامحـه يشـع منهـا النـور، أن لا يكفـي بنـاء المسـجد الكبـير ومـا بـه مـن خدمـات لـكل النـاس.

يذهب مصري في صحبتهم، صامتًا كالمعتاد.

يتقلـد الشـيخ لا مؤاخـذة مكانـه المعتـاد، يـدور بعـض النـاس بمشروبـات عـلى كل الجلـوس، شـباب وكبـار ومريديـن، تنـام في ذاكـرة مـصري كلماتـه:

يخدشون الحياء بلا حياء.

بعد صمت لا يطول يواصل الشيخ الحنش:

زمـان المطـرب يغـني ويقـول: «بـلاش تبوسـني في عنيـا»، عبـارة خادشـة للحيـاء، هـل يـدرك أي منكـم مـا هـو المطلـوب؟ مـا هـو الموضـع المطلـوب للبوسـة؟

يصمتـون وينتظـرون؛ فالمعتـاد أن يطـرح الشـيخ السـؤال ويتـولي الإجابـة أيضًـا.

يضحـك ولكـن بصـوت خفيـض فيجارونـه في الضحـك، يطلـب منهـم: مـن يـدرك المطلـوب عليـه أن يتصـل بـه ولـه في رقبتـه جائـزة ويعـود:

السـت إياهـا تقـول: «خـدني في حنانـك خـدني، عـن الوجـود وابعــدني»!

يصمت ويطرح سؤالًا:

هيروحوا فين؟ في حته ضلمة؟

الله يخـرب بيوتكـم، هتروحـوا مـن ربنـا فـين؟ واحنـا رأسـنا تتهـز وندنـدن معهـا، دنـدن بـكلام ربنـا ولا بحديـث للرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، ردد كلام الصحابـة رضي الله عنهـم وأرضاهـم، فـين السـلف الصالـح؟ بعـد صمـت وبعـد أن يرشـف شراب الزنجَبِيـل المخلـوط بالعسـل، يواصـل:

المَـرَة الهَرِمَـة كانـت بتقـول: القبلـة، حبيبهـا يأخـذ بـدل الواحـدة ألـوف، حبيبهـا مـش جوزهـا، مـش حلالهـا، دعـوى للانحـلال والمسـخرة.

سـخرياته تثـير ضحكاتهـم وتعليقاتهـم بـل أحيانًـا يصفقـون، منعهـم مـن التصفيـق وكان يذكرهـم دائمًـا بـأن تلـك الجلسـة للعلـم، يعـرج مـن القديـم للحديـث عـن الأغـاني والأفـلام والمسلسـلات، زاخـرة كلماتـه بنقـد وتجريـح غالبًـا، تسـكن الثـورة داخـل قلـوب مسـتمعيه -خاصـة الشـباب- عندمـا يعقـد المقارنـات بـين الحيـاة الـتي يشـاهدونها أو يسـمعون عنهـا والمتسـولين الذيـن لا يجـدون قـوت اليـوم.

يتمـنى المـصري أن يحظـى بالقبـول، أن يضمـه الشـيخ الحنـش لزمـرة أتباعـه ومريديـه، لقـد سـأله اسـمه، مـا زالـت ذاكـرة الشـيخ حافظـة لأغلـب فـروع القريـة، سـأله عـن كل أهلـه وبـدا جليًّـا بأنـه يهتـم بـه.

-٤-

قليـل عندمـا تـأتي سـيرة الشـيخ الحنـش، يضحكـون ويصفونـه بأنـه أبعـد النـاس عـن فعـل الخـير أو صلـة الرحـم، فالإنسـان الخـير لا يتوقـف حبـه للخـير أكان غنيًّـا أم فقـيرًا، فالفقـير يكفيـه مجـرد إلقـاء السلام أو إماطـة الأذى عـن الطريـق، والغـني أمامـه سـبل متعـددة ليفـوز بـرضى الله وتبـدأ بصلـة الرحـم، أمـا الأسـتاذ «لا مؤاخـذة» فدومًـا كان محبًّـا لنفسـه، يذكـر أحدهـم كيـف كانـت بدايتـه بعـد أن عمـل بالحكومـة لفـترة قبـل سـفره للخـارج، أراد اسـتغلال أولاد أخيه، فاشـترى زوجًـا مـن عجـول البقـر الصغـيرة وتركهمـا عندهمـا وقامـوا برعايتهمـا وعلفهمـا ثـم باعهمـا، ولـم يعـط أبنـاء أخيـه شـيئًا، مـرة ثانيـة فعلهـا وكان لأخيـه ولـدان يعدهمـا للـزواج معًـا، سـأله أخـوه قرضًـا أو مسـاعدة ليتـم زفـاف ولديـه، فتـذرع بظروفـه الصعبـة، عـز عـلى أخيـه أن يسـأله ثانيـة، فاتخـذ قـراره حيـث سـحب الثوريـن وباعهمـا وأقـام الفـرح ولـم يهتـم بمـا يحـدث بعدهـا، شـارك يومهـا الشـيخ وفتـح بطنـه لـلأكل وكأنـه لـم يـأكل مـن قبـل، تلـك كانـت عادتـه دومًـا، ويـوم سـأل أخـاه عـن الثوريـن ضحـك وقـال لـه مـا كان، ثـارت ثائرتـه ولعـن وتطـاول بالقـول أمـام أخيـه الأكـبر، تعـدى حـدود الأدب وذهـب للعمـدة يومهـا يشـكو أخـاه، بعـد طـول جـدال، ضحـك العمـدة وطلـب منـه أن يبـارك لأخيـه مرغمًـا لكنـه مـضى ولـم يصافـح أخـاه.

جمعيتـه تتلقـى أمـوالًا لا أحـد يعـرف مـن أيـن؟ يـزوج المحتـاج

ولكـن وفـق شروط وقواعـد سَـنَّهَا، يقـول:

إنهم دفعوه دفعًا للترشح لمجلس الشعب.

ودائمًا يقول:

أنـا أكـره السياسـة، أنـا بحـب الله والرسـول وأعشـق السـلف الصالـح، والـرزق مـن عنـد الله وأنـا مجـرد همـزة وصـل، أنـا بسـاعد النـاس وربنـا بيسـاعدني، المنـان والعاطـي هـو الله، أنـا لا أمـنٌّ عـلى أحـد، أنـا مجـرد وسـيط، هـذه حقيقـة ديننـا لمـن يبتغـي أن يتعلـم، وهـذا دسـتورنا.

حـرارة كلماتـه تذيـب ثلـوج الـتردد وخاصـة بـين الشـباب، مـا زال الكبـار يـرددون:

عمر الصبار ما يتغير طعمه.

طـول عمـره كان وجهـه مفضوحـاً وأبـوه قبلـه، قالـوا: إن أمـه غسـلت وجهـه ببـول الحمـير فصـار لا يسـتحي، فالعـرق دسـاس.

إشـادة وتـبرم وضيـق وتوجـس ولا يسـتطيع أي منهـم أن يعطـي صـورة نهائيـة عمـا يسـاوره مـن مشـاعر، كل الشـباب في ظروفهـم الراهنـة، كثـيرٌ منهـم رغـم الخـوف والرغبـة يدخلـون متاهـة يوقـد مشـاعلها الشـيخ «لا مؤاخـذة» ويحرسـها «أبـو دمـاغ» ورجالـه، محـاصرون ولا طريـق للهـروب، فـكل مـن القطبـين حديـثي الغـنى والجـاه يتمـنى أن يجذبهـم لفردوسـه، غالبيتهـم يقولـون:

ليكن، لنعش، فما الحياة إلا وهم كبير، يضحكون.

مـصري إلى أي منهمـا يذهـب؟ أمانيـه شـبه محـدودة؛ أن يحظـى بامـرأة.. بزوجـة ولكـن كيـف؟ ظـروف حياتـه سـيئة وأوشـكوا أن لا يجـدوا قـوت اليـوم، أبـو دمـاغ يحتـاج لإنسـان قـوي لا يهـاب البشر،

كما يقولون قلبه ميت، مصري يعرف نفسه بأنه بعيد كل البعد عن العنف، رجال أبو دماغ يمتازون بالصلابة والقسوة والعنف، وويل لمن يحاول أن يتصدى لهم، رجال الشيخ «لامؤاخذة» دستورهم الظاهر الدين، يستطيع أن ينال مأربه؛ فالزواج سنة وهو يسير على الدرب، يذهب ويستمع

لا تنقطع سخريات الشيخ، ويأتي ذكر مشايخ الصوفية في سؤال من مريد، يكون رد الشيخ جاهزًا، فيصفهم بالكذب والإفك والخروج عن الملة، ويردد مقولة لأحدهم بسخريته المعتادة:

«إنه يجمع ويقول: إن قلبه دير رهبان وبيت أوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف وقرآن، وفي النهاية يقول: الحب ديني وإيماني».

أليس هذا قمة الجنون؟

تهتز رؤوس المريدين موافقة وأغلبهم لا يدركون حتى معنى الكلمات أو ما بينها وبينهم، بالطبع مصري لا ينكر أنه لا يفهم الكثير من كلمات الشيخ، لا يجهر بتلك الكلمات فقد تكون وصمة عار عليه أو قد تخرجه من الجنة التي يسعى إليها من بين يدي الشيخ، عليه أن يساير الركب. غَدَا يذهب إلى مجلس الشيخ الحنش أكثر من مرة في الأسبوع، لكن يحول تعثرُ كلماته دون الحديث المباشر مع الشيخ، يمني نفسه بأن الفرصة قادمة ويستطيع أن يصبح مقربًا أكثر.

***

لا يقبـع عقلـه كالعـادة في سـكون، يقلـب الأمـور حولـه عـلى وجوههـا كافـة، عليـه أن يبحـث عـن معـين يسـاعده في مجابهـة مطالـب الحيـاة مـن حولـه، الأعمـال العاديـة هـو يباشرهـا ويسـعى إليهـا، لا يـكل مـن عمـل -إن وجـد- فيعمـل وفقًـا لنظـام اليوميـة، أجـره باليـوم ويـوم يجـد عمـل وثلاثـة أيـام لا يجـد، يبحـث عـن وظيفـة ثابتـة كالآخريـن، وكمـا يقولـون: «إن فاتـك الـميري اتمـرغ في ترابـه»، وظيفـة ذات دخـل ثابـت، نعـم جميـع الموظفـين يشـكون ولكنهـم يعملـون بعيـدًا عـن الوظيفـة في أعمـال أخـرى، الحصـول عـلى الوظيفـة بالنسـبة لـه بعيـد المنـال، لا يملـك مـالًا يـرشي بـه ليحصـل عـلى وظيفـة، مخـارج ألفاظـه الثقيلـة أيضًـا حائـل بينـه وبـين الوظيفـة، هـو لا يعـاني مرضًـا ولكنـه الصمـت الطويـل، يشـعر كثـيرًا بأنـه عالـة عـلى أهلـه.

يذهـب إلى الشـيخ الحنـش ويسـتمع ويحـاول أن يغـوص في معـاني كلماتـه، سـخريته مبطنـة يشـبهها بالسـم في العسـل، كلمـات ذات رؤوس مدببـة معـدة للاخـتراق، مصوبـة للعقـول المنفوخـة بالقهـر والـذل والحاجـة، لا يسـتطيع أن يفهـم مـا ترمـي إليـه عباراتـه وكلماتـه، هـل هـي قنابـل مرهونـة بموعـد يختـاره؟ أم ينتظـر أن يفجرهـا مـن بعـد؟ بداخـل قلـوب الشـباب جميعًـا بمـا فيهـم المـصري ثـورة تجتـاح أفئدتهـم صرخـات مكتومـة محبوسـة، لا يهـم أي مسـمى؛ ثـورة أم فـوضى، مـا دمنـا لا نسـتطيع أن نعيـش؛ فليذهـب الجميـع إلى الجحيـم، ومـن بقـي يكسـب الرهـان، لتحـترق تلـك البـلاد والعبـاد ولتعـم حـتى المجاعـة عـلى جميـع الخلـق.

مـصري حريـص عـلى صلاة الجماعـة خلـف الشـيخ، بـدا شيء مـن الاهتمـام يوليـه لـه، فالتحيـة والسـلام واجـب، الاسـتماع لكلماتـه،

جـواز المـرور للدخـول تحـت عباءتـه، يشـعر بأنـه اقـترب وعليـه أن لا يضيـع الفرصـة مـن بـين يديـه.

يعنف نفسه أحيانًا، ولكن داخله يقول:

الـبراءة تائهـة والإيمـان الحقيقـي فـرَّ هاربًـا، الجميـع ينـاورون مـن حولـه، لا توجـد بـراءة إلا مـع الأطفـال الصغـار.

مجـرد أن يخـرج مـن دائـرة الحديـث الـذي يفرضـه الشـيخ، يتنسـم عبـق هـواء رائحتـه ذكيـةً فواحـةً، يستنشـق بعمـق ويشـعر وكأنـه كان رهـين سـجن، هـواء يشـبه هـواء الفجـر وبعـد الصـلاة يُحمَّـل بأبخـرة الـزروع النديـة، تخفـت وتنطفـئ سـحب الضبـاب الكثيـف الأسـود الـذي يحجـب الرؤيـة، يتفجـر داخلـه بـبرق وضـوء؛ فتـضيء خلايـا عقلـه المستسـلمة لوقـت طـال، يلتمـس طريقـه ويعـود أدراجـه بعـد أن يـؤدي صلاتـه غـير الدائمـة.

الأنـثى لا تكتمـل مباهـج الحيـاة إلا بهـا، هـي مـراده وجـل أمانيـه، يتمـنى أن يفسـح ويفتـح الشـيخ بـاب خيراتـه ليصـب فـوق رأسـه؛ ليخـتر لـه عروسًـا أيًّـا كانـت، كل النسـاء يتمـيزن برقـة لا مثيـل لهـا، كلماتهـن تنبـض خـيرًا وعشـقًا وفي مخـارج ألفاظهـن عذوبـة عبـارات الشـعراء.

يقول الشيخ الحنش:

الروح من أمر ربي.

يـوم تخـرج الـروح وتفـارق الجسـد، تتجمـد الأعضـاء وتصمـت الحركـة، لا قلـب ينبـض بحيـاة ولا عقـل، ويعـم الصمـت.

حديـث مكـرر قالـه سـلفًا- لا جديـد- ولكنـه يمـزج بـه سـخرياته المتغـيرة، يسـتمع المـصري ويحـاول أن يكـون في مرمـى عيني الشـيخ.

ولكنه سابح في حديثه مع ذاته:

أنـا إنسـان عاجـز، لا أدرك أشـياءً كثـيرةً، لمـاذا أعيـش؟ لا أشـعر أن هنـاك سـببًا واحـدًا لمواصلـة الحيـاة، أنـا في ذيـل قائمـة البـشر حـولي، يسـتغفر الله ويسـتعيذ بـه مـن الشـيطان الرجيـم.

تطـوف ذاكرتـه في ربـوع بلـده، يجـد هنـاك مـن هـو أشـد فاقـة منه ويواصـل المسـيرة ويضحـك ويقبـل عـلى الدنيـا، يعـود عقلـه مـن تجوالـه في أروقـة الدنيـا مـن حولـه، إن التفـاوت في الـرزق والأجـل والصحـة والعافيـة، عـلى كل إنسـان أن يحمـد الله عـلى النعمـة الـتي أغدقهـا رب السـماء عليـه.

يخـاف مـن كـثرة فكـره أن يـتردى في هاويـة الخـروج عـن طاعـة الله، نعـم النفـس أمـارة بالسـوء، يحـاول أن يتخلـص مـن الأسـئلة المهاجمـة لـه:

هل أنا مسير؟

هل كان فعله باختياره أم وليد وسواس وشيطان داخله؟

نشـوة مباغتـة، أوهـام وخرافـات تعشـش في صـدور مـن حولـه، تجيـش في صـدره أحاديـث متناقضـة ورغمًـا عنـه يـدور في فلكهـا، قدراتـه محـدودة ولسـانه حـتى لـو حـاول أن يتحـدث بمـا في داخلـه مـن مشـاعر وأفـكار يخذلـه، فيتخـوف مـن السـؤال فـيرضى بمـا يسـمع، ولكـن عقلـه يفحـص ويمحـص ويجـادل مـع نفسـه وفي أغلـب الحـالات لا يحظـى بإجابـة وافيـة.

الحنـش يتصـدى لـشرح آيـات فيقـول: «ومـا تفرقـوا إلا مـن بعـد مـا جاءهـم العلـم» صـدق الله العظيـم

يقـول : إن العلـم هـو نـيران تـأكل القلـوب، يسـعى العقـل

للمعرفة، يغرق الناس بالعلم ويصبحون غرباء عن بعضهم، ففي الحياة السابقة الناس يجتمعون ويشاركون بعضهم، انظروا لبلدنا الصغيرة عندما أخذ الغالبية نصيبهم من العلم، أصبح الجفاء واللا مودة، وسقطت الرحمة، وتباعد البشر، وانقطعت صلة الرحم، هذا ما حدث عندما أخذنا بالعلم، هنا تطاول الصغير على الكبير تحت دعوى الحرية، وفي المدينة أصبحت البنايات لا يعرف الجار جاره في الشقة المواجهة له مباشرة، هنا بسهولة يمكن أن تجد في الشارع الواحد سرادق عزاء وقبل نهايته حفل عرس، تختلط الأغاني الهابطة بأصوات تردد كلمات الله بالعلم، طائرات وقذائف وصواريخ يمتلكها الأغنياء يقتلون بل يبيدون الفقراء، كل يسعى للاستيلاء على ممتلكات الآخر عنوة وكل يتم بالعلم.

لا تُعجب المصري أفكار الحنش وما يردده لا يحرك داخله شيئًا، يشعر وكأنها مجرد كلمات لقضاء الوقت، الفقراء يُقتلون أيضًا والجهلاء يُغتصبون، كل الأفكار والكلمات التي يلوكها بين شفتيه متناقضة، يتمنى أن يلوذ بمكان لا تتناقض فيه الكلمات ولا الأفعال ويعيش كل البشر، إنهم يلوون كلمات الدين بتأويلات تجاري أمانيهم وطموحاتهم وأغراضهم، وعلى من يبغي التقرب والاستفادة من ورائهم أن يستجيب ويقر بأن كل ما يقولونه هو الصواب.

تسكن داخل صدره:

«وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا»

يدور في دماغه سؤال يحاول أن يخرجه ولكن بعيدًا...

في المدينــة الصغــيرة القريبــة، كثــيرًا مــا يعمــل باليوميــة فيهــا، يتوضــأ ويصــلي في المســجد القديــم، بعــد صــلاة العــصر -غالبًــا- حديــثٌ لشــيخ فــوق ملامــح وجهــه الوداعــة والحســن جليًّــا، في كلماتــه الناعمــة الهادئــة جرعــة حنــان فائقــة الروعــة عــلى قلــوب الشــباب خاصــة، يشــعر بميــل وتســتهويه كلمــات الشــيخ الغريــب عنــه، حريــص كلمــا كان في المدينــة أن يجلــس بعــد العــصر مســتمعًا لــه.

بعــد عنــاء يتحــرك لســانه ويخــرج ســؤاله للشــيخ الغريــب الــذي لا يعرفــه الــذي يبتســم ابتســامة وضــاءة بخــير ويقــول:

نعلــم الظاهــر ولا نــدرك الباطــن وكل مســير ومخــير، ديمومــة لا تــدوم والبــاقي هــو الله ســبحانه وتعــالى جــل شــأنه، وليــس هنــاك تفســير للقــرآن ولكنهــا مجــرد خواطــر إيمانيــة ولا يعلــم إنســان بــكل مــا أوتي فيــه.

يصمت الشيخ الغريب وهو منصت له فيسأله:

- ارتكبتَ خطيئة؟

بلا تردد وكاذبًا يرد:

- نعم .

لا يعنفــه الشــيخ ولا يعلــو وجهــه ضجــرًا وضيقًــا بــل يربــت عــلى كتفــه قائــلًا:

- كنتَ واعيًا بفعلتك؟

- نعم، وكنت مسيرًا ومجبرًا إليها غصبًا عني.

يبتسم الشيخ:

- العصاة دائمًا يبررون عصيانهم بتلك المقولة الخاطئة.

بعد صمت لا يدوم كثيرًا، يردد الشيخ ما قاله الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه:

«إن الله تعالى أراد بنا شيئًا، وأراد منا شيئًا، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما لنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا».

بدت علامات الاستفهام جلية فوق وجه المصري، عاد الشيخ يردد كلماته من جديد ثانية، شعر بفيض رضى فوق وجهه دليل فهم واستيعاب.

شكره ومضى.

اتخذ قراره، سيواصل الصلاة خلف الشيخ «لا مؤاخذة»، سيقترب منه أكثر، عليه أن يتكسب ويكسب من ورائه، فهو يعلم قدراته، الرجل سيزوجه وسيرفع عنه ألمًا يعانيه وسيداري ضعفه وخذلانه.

-٥-

يـتردد مـصري سـاعات كثـيرة عـلى مجلـس أقرانـه الجامعيـين، تسـتولي أحاديثهـم الإنسـانية الرائعـة عـلى نبضـات قلبـه، كـم يتمـنى أن يشـاركهم الحديـث ويخـرج ما يعتـل في صـدره مـن أفـكار، كالعـادة تخذلـه الكلمـات مـن أحاديثهـم تتوهـج داخلـه كلمـات يطلقونهـا ناقمـة عـلى الأوضـاع القائمـة، يكتفـي بالمشـاركة بكلمـات قليلـة يرددهـا دومًـا بالموافقـة عـلى مـا يقولـون.

مختلفـون متوحـدون في أفـكار ثوريـة، تختلـف قـدرات أهاليهـم، يتحدثـون عـن المسـاواة بـين البـشر.

كثـيرون وخاصـة أتبـاع الشـيخ الحنـش يصفونهـم ويطلقـون عليهـم يسـاريين وسـاعات علمانيـين، وقـد يتجـاوز أحدهـم ويطلـق عليهـم لقـب الكفـرة.

مـصري يتجـه إليهـم خلسـة ويحـب حديثهـم، لكـن عندمـا يصفونهـم بالكفـرة يخـاف ولا يحـاول مجـرد الدفـاع عنهـم، يعـرف ضعفـه وهوانـه، يسـمع كثـيرًا أن مـن المحـرم أن نوسـم إنسـانًا مسـلمًا بالكفـر، بعضهـم وربمـا أغلبهـم يرتـادون المسـاجد، ذاكرتـه تحفـظ الحديـث الشريـف المـردد كثـيرًا:

«إذا رأيتـم الرجـل يرتـاد المسـاجد فاشـهدوا لـه بالإيمـان» هـذا حديـث للرسـول عليـه الصـلاة والسـلام.

كان سر تعلقـه بهـذه الصحبـة حبـه لممارسـة لعبـة كـرة القـدم،

كان يجيد اللعب حارسًا للمرمى، يحاولون أن يجذبونه للَّعب، فكان يخاف في البداية من تذمر أمه وسبابها عندما تعلم بذلك، يختلس ساعات ويلعب ويمارس هوايته، يعرفون أنه لا يستطيع شراء ملابس، مصري يستحي أن يطلب شيئًا من إنسان، كان يكتفي باللعب بملابس عادية حافي القدمين، استطاعوا أن يسحبوه معهم في جولاتهم ومبارياتهم الخارجية، استلم الملابس الرياضية بعد أن اقنعوه بأن كبيرهم تبرع بملابسهم جميعًا من جيبه الخاص، بل إنه تبرع لمركز الشباب بأشياء كثيرة، الملابس كانت جميلة وجديدة عليه، أول مرة يرتدي ملابس رياضية كاملة وحذاء كرة حقيقي وقفاز لليدين وجورب أيضًا، هو يحبهم لكن هناك كلمات تتردد تترك أثرًا داخل نفسه يسمع:

«الأثرياء في هذا الزمان صنفان لاعب كرة وراقصة».

لماذا لا يفكر في ذلك؟ ربما تكون طريقًا لغد فيه الخير، ربما يراه أحد المكتشفين ويضمه لنادي أكبر مثل نادي المحافظة، وربما ينتقل لناد آخر وتكون فاتحة خير عليه، كانت تلك البداية ولكن لم تأت الرياح بما هامت به نفسه، فلم يفز فريقه بدورة واحدة وأنفرط عقده لكن ظلت علاقاتهم قائمة.

حفيد الشيخ له أفكاره التي لا يتراجع عنها، ينسحب مصري في أكثر الأحيان عندما يفيضون في أحاديث متشعبة، أحيانًا لا يهمهم فيهاجمون بلا هوادة الشيخ «لا مؤاخذة» أو الحنش، ولا يتخوفون سطوة أبو دماغ ورجاله، وفي أحيان كثيرة يتخاذلون أمام جبروت الحنش وأبو دماغ، يطلقون عليهم الشيوعيين ويصفونهم بمواصفات غريبة، يدخلون في جحورهم.

من يجاري؟ وفي صف من يقف؟

تلتبس عليه الأمور يحاول أن يجد ملاذه في عبارة:

«كل شيخ وله طريقة».

هل تلك العبارة ملاذٌ له؟ إنها مصيبة أكبر، إنها تشتت أفكاره ولا ترحم جهله بأمور تغيب عليه، ويبحث عن إجابة لما يسبح فيه من أقوال تكاد تتناقض مع بعضها ويلتمس النجاة، فقير لا يجابه عليه أن يقتنع بأن يذوب في مزيد من العمل ومزيد من التعب، عليه أن يلقي بكل ما يفكر فيه في النيران، عليه أن يتخلى عن عقله ليعيش.

مصري بطبيعته الصامتة غالبًا، عفوية أفعاله تعكس صفاء روحه، فيساعد بلا مقابل وأحيانًا يعمل بلا أجر، طقوس الدين التي يقيمها موروث وتقليد متبع لا يحيد عنه، يتردد ما بين الأمل من وراء دينه أن يحظى بعد مماته ببنات الحور، هذا في الجنة، لكنه يعلم جيدًا أنه في ذيل قائمة البشر، يحاول أن يرسم لنفسه دنيا جديدة فيها طمأنينة، ما يحدث حوله لا يبشر بخير.

من يزرع الخوف والشك؟

مجابهات غريبة يراها أو يسمعها وأصحابها يتعانقون في مودة غريبة !!! آفاق متعصبة ومغلقة على رؤيتها، يعملون يأكلون يشربون يضحكون يشاركون بعضهم في الأفراح والأحزان ولكن نفوسهم غاضبة، يلعنون بعضهم.

هل يتحدث إن فُكَّت عقدة لسانه عن خوفه من ضياع الحب بين الناس؟ مؤكد سيسخرون منه، لن يعيروه التفاتًا، لو خرجت كلماته لن يسمعوه، فهم في غنى عن كلماته المتلعثمة الضائعة،

يستنبط مخاوفه من العلاقات الكاذبة والمنافقة التي أصبحت سمة مميزة في التعاملات، عيناه ترى جيدًا، وحدسه مستيقظ وواعٍ، والنتائج مقدماتها ظاهرة، هناك خطر قادم سيجرف الجميع، هناك حزن قادم، حقد ينمو وصراع يُروى بجهل، وهناك من يسعى ليعم الخراب بخبث، مصري خائف وهو أقل الناس شأنًا، معروف بأنه يخاف من ظله فمن يلقي بالًا لكلماته، يشعر بأن كل ما يجول بخاطره مجرد أوهام يرسمها خوفه النائم في صدره، فتموت الكلمات ويصمت وينتظر، يطالب نفسه بأن عليه أن يحيا مثل سائر البشر من حوله، عليه أن يمسح عن عينيه ما غشاها من أوهام وأفكار ساذجة.

الشيخ الغريب في المدينة القريبة ملاذٌ له يسأله بحروف متعثرة:

- تخونني الكلمات.

يبتسم الشيخ ولم يتبق في المسجد سواهما.

يشرح للشيخ ما يعتريه من مخاوف ويتمنى أن يتحدث.

يقول له الشيخ الغريب:

- إن الخواص من البشر لهم وصل لا يقال ولا يتحدثون عنه.

الرجل يصبغه بصبغة الولاية، يَسكن نفسه هدوءٌ غريبٌ لكلمات الشيخ، لكنه يعلم بأن كلماته ليست عن علم ولا ولاية، لكن الشيخ يقول:

- دلائل الولاية يغلب على صاحبها الصمت.

يتمنى أن يفصح للشيخ بأن ما يسمعه مجرد أفكار وأسئلة أحيانًا لا يجد لها إجابة، إنه إنسان بسيط ولا يحفظ حتى من

القـرآن إلا القليـل، رغـم أنـه يحفـظ مـن القـرآن مـا يزيـد عـلى نصفـه، لكنـه حيـاء أمـام الشـيخ يدعـي، يطالبـه الشـيخ أن يقـصَّ عليـه مـا يـراه في أحلامـه، بعـد تـردد يقـص بعضًـا مـن أحلامـه الـتي تـراوده كثـيرًا في نومـه ومـا تسـببه لـه مـن خـوف عـلى النـاس جميعًـا.

يؤمئ الشيخ برأسه لليمين وإلى اليسار ويرفع رأسه قائلًا:

- لا تتحدث برؤياك كثيرًا.

تـدور في رأسـه قصـة سـيدنا يوسـف عليـه السـلام، وأيـن أنـا، يسـتبعد كلمـات الشـيخ تمامًـا مـن رأسـه ويـكاد يهـم بالمـضي، يسـتوقفه الشـيخ قائـلًا:

-الأحيـاء ممـن يشـاهدون الغيـب، ممَّـن مـنَّ الله عليهـم بنعـم الرؤيـة للغـد في صمتهـم حكمـة، ففـي حديثـك إفشـاء لـسر قائـم، البـوح بمـا يعتـل في الصـدر صفـة مـن صفـات العامـة.

يصف للشيخ حاله وضعفه وقلة حيلة أهله.

بعد صمت يقول الشيخ مستطردًا:

- مـن يعـرف قلبـه الصـبر عـلى البـلاء ليـس ضعيفًـا، بـل قويًـا وسـلاحه الإيمـان.

يبتسم ويهم بالانسحاب فيتكلم الشيخ فيسمعه.

- الثقيل على النفس فيه خير.

فالنفـس أمـارة بالسـوء، ومـا يثيرهـا ويثقـل عليهـا ولا تتقبلـه لهـو فعـل خـير، فـارضَ بـكل مـا تشـعر بـه ثقيـلًا عـلى نفسـك وتحمـل وطأتـه تخـرج منـه غانمًـا سـالمًا.

***

جرعـات متباينـة مـن أقـوال وفتـاوى الشـيوخ يسـمعها، يسـكن قلبه القليـل جـدًّا منهـا، لا يلتمـس لنفسـه الأعـذار عندمـا يهـم بلعـن الدنيـا ومـا فيهـا، هـل تلـك اللعنـة بسـبب فقـره وقلـة رزقـه، يرتـد بسرعـة ويـردد داخلـه:

«والله فضل بعضكم على بعض في الرزق» صدق الله العظيم

يعوده الهدوء، تداعب أجنحة البراءة آفاق قلبه كالمعتاد.

في جلسة الشيخ الحنش يجلس منصتًا مستمعًا.

مـا زالـت الرعيـة تعيـش وفـق مـزاج الحاكـم سـواء كان عمـدة أو محافـظ أو حـتى رئيـس دولـة، صمـت الرعيـة والرعـاع يسـكن داخــل جــوف الحاكــم، إن التبســط مــع الرعيــة يفقــد منظومــة الحكـم سـطوتها وقدرتهـا، فالتبسـط يخـرج السـفهاء مـن جحورهـم ويتطالـون بسـفيه الفعـل واللفـظ، ينتقـدون دون مراعـاة لمكانـة مقدسـة - ولي الأمـر - ينسـاقون تحـت طنـين أفـكار الثـورة أحاديثهـم القدسـية، هكـذا يتخيلـون وعـلى الرعيـة أن تثـأر لكرامتهـا مـن هـذا الجبـار المتجـبر الـذي نـسي الله.

حديـث الشـيخ اليـوم فيـه تطـاول عـلى السـلطة، هـل مدفـوع لذلـك؟ الشـيخ يعـود لسـخرياته المعتـادة وكأنـه يغلـف كلماتـه.

يفتح الشيخ دائرة الحديث الذي يتشعب فيسأله أحدهم:

- في قوله تعالي: «الله خلقكم وما تعملون».

يفسرهـا كمـا يحلـو لـه، عكـس مـا قـال المـرة السـابقة، فالفعـل ليـس حريـة إرادة بقـدر مـا هـو مأمـور بـه، يسـخر مـن سـؤال محدثه ويصفـه بأنـه يبحـث عـن مـبرر لفعـل ارتكبـه فيـه خطـأ، جـدال ونقـاش محتـد، شـيخ معمـم مـن تابعـي الحنـش يسـأله:

- العيال الشيوعيون يقولون إن الأوروبيين هم رسل الخير والمحبة.

يضحك ويجاريه التبع في ضحكه وهو يقول ويرد:

- رسل لمن؟ لنا نحن!!!

الرسول كان آخر الرسل، والرسل من جنس من يُرسل إليهم.... عربيًّا.

ويردد كلمة عربيًّا أكثر من مرة وبصوت يرتفع تباعًا، يصرخ أحد المريدين زاعقًا مكبرًا لاعنًا الكفرة الفجرة.

لا يجابه الحكومة إلا من خلف جدار، يجابه بكلمات هازئة ساخرة يلقيها متهكمًا على أذن مستمعيه، تفسيراته تعكس رؤيته، يستغل كل ما أوتي من فصاحة لغة وبيان ومن أحاديث وحفظ للقرآن فيقول:

من الملوك؟ يصمت ويعود.

اليوم هي الحكومة وسبحانه وتعالى يقول:

الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ... كلام الله.

-٦-

النساء والفتيات يقتلعن ثباته، يصمد حتى يختلي بنفسه.

يسأل وكأنه في حلم:

أعاصير الشهوة تقتلع ما ينام داخلنا من عادات وتقاليد وتعاليم الدين، نترك أنفسنا على سجيتها، نرتكب الآثام، ولكن أليست الشهوة تلك خلقها الله، فلماذا؟ لماذا نيأس ويتملكنا الضيق والقنوط من أنفسنا، ساخطون على إرادته وصنعته وقدرته، فعلينا الخروج من تحت سمائه، هل نتبرم بالحياة أم نحاول أن نساير ركبها؟ من ضاق عليه بالهرب ولكن إلى أين؟

جهاد النفس، جذوة الإيمان الحقيقية تكمن في التصدي لمطالب النفس الأمارة بالسوء، على القلب أن يخفق بالأمل وينشد سعادة الدنيا والفوز بالآخرة، على العقل أن ينظم و يدبر بلا جنوح إلى الهاوية سنشعر بالراحة والأمان، فيوم يطمئن القلب وتسكن النفس ويخترق النور ظلمات الشك ويظهر اليقين جليًّا، كما قالوا: ابحث عن الله في صدرك، رويدًا رويدًا سينطلق بصيص نور وأمل ومزيد من البحث ستذوب في فيض الحب والخير والهداية.

يشعر أنه ببغاء يردد كلمات، أيضحك علينا ولاة أمورنا، علينا أن نصلي خلفهم، أن نرضى بما قسمه الله، يتمنى أن تكون له قوة أو أهل ينصرونه أو مكانة اجتماعية يقدسها الناس في بلده

فيحطـم كل الأصنـام المرصوصـة أمـام عيونهـم وهـم يـؤدون الصلاة، الشيخ «لا مؤاخـذة» صنـم نعبـده ونتمـنى أن يـرضى عنَّـا، أبـو دمـاغ صنـمٌ آخـر يحـب السـاجدين لـه فيمنحهـم ويعطـف عليهـم، لا يتجـاسر ويُخـرج مـا يجيـش في صـدره أمـام أحـد مـن أقرانـه، يمكـن أن يوصمـوه بالكفـر والعيـاذ بـالله، أو ربمـا ينقلـون الصـورة لأصنـام بلدنـا فيسـحقونه، يحمـد الله أن كلماتـه لا تخـرج لحـيز النـور، الخـوف يجعلهـا تنـام في صـدره.

لا يهمـه كل تلـك الأمـور؛ أصنـام تماثيـل هـو اليـوم يبحـث وينقـب عـن طريـق يفجـر فيـه طاقتـه، يشـعر بهزتـه وبسـحر نشـوته في جـوف الليـل فحسـب، يشـعر بسـعادة غامـرة وميـاه رجولتـه تتفجـر ويستشـعر ببلـل النشـوة بـين فخذيـه، يتحدثـون مـن حولـه وهـو صامـت رغـم مـا يعتريـه مـن مشـاعر.

***

عائـد أدراجـه إلى منزلـه، مـا زال بيتهـم ببنايتـه القديـم كمـا هـو، كثـير مـن أهـل البلـد نزحـوا إلى بيـوت جديـدة، شـيدوها بنظـام جديـد عـلى أطـراف القريـة، أمـا البيـوت القديمـة فمـا زال منهـا كثـير قائـمٌ داخـل ووسـط البلـد، أغلـب البيـوت تتشـابك في بنيانهـا وتـكاد تكـون ذات سـطح واحـد، حوائطهـا تسـتند ببعضهـا، رغـم أن السـاعة لـم تصـل للتاسـعة فقـد أغلقـت الأبـواب، فالـبرودة قارصـة والسـماء ملبـدة بغيـوم سـوداء واحتمـال سـقوط مطـر قائـم.

اقـترب مـن البيـت، مـنزل خالتـه أم عبـاس أمامـه مبـاشرة، يتذكـر بـأن أمـه طلبـت منـه أن يعـرج عليهـا، عـرف أنهـا في حاجـة إليـه، سـتقوم بهـدم منزلهـا القديـم، فقـد رزق الله ولديهـا اللذيـن

يعملان في المدينة الكبيرة رزقًا، فعزما على هدم المنزل القديم وتشييده بنظام حديث، ولكل منهما فيه شقة مستقلة؛ ليعودا من الغربة ويستقرَّا هنا، الساعة ليست مناسبة لكن عليه الذهاب، إنها مؤكد ستلقي إليه بمهام الهدم وهذا يعني نقود ومكسب، وظروفه غير ميسرة بالمرة وهي فرصة طيبة لرزق قادم، فرك يداه ونفخ فيهما، وقف أمام الباب وتردد، بدا الدخان متسربًا من أسفل الباب ومن الطاقة العلوية التي تشبه وتقترب في الشكل من النافذة، هذا دليل واضح أنها ما زالت مستيقظة ولم تنم بعد، عليه أن ينتهز الفرصة فربما تذهب لأحد غيره وهو في أمس الحاجة لأي عمل يكون.

تنذر السماء بسحبها الداكنة منذ الصباح بالمطر، ولكن حتى اللحظة لم ينفرج عقدها لكن برودة الجو تخترق ملابسه.

بيت أم عباس لم يحظ بتغيير جديد مثل بيتهم، تمت إليه بصلة قرابة من ناحية الأم وأكبر من أمه سنًّا، ولداها ذهبا للقاهرة وكما تقول ساخرة:

ندهتهما بنات البندر.

عاشا في المدينة الكبيرة، أحدهما تزوج والآخر ما زال عَزَبًا، يرسلان لها ما تحتاجه ولها معاش قائم، فزوجها كان يعمل في السكك الحديدية، في حالة العوز يعلم أن أمه تسألها سُلفة إلى حين ولا تتأخر عنها أم عباس، أواصر المحبة بينهما قائمة في الكثير من المعاملات، حريصة أمه على السؤال عنها وقد تدفع مصري أن يمر عليها ويسألها عما تحتاجه، ويمكن أن يذهب إليها بزيارة معتادة عبارة عن طعام مطهي ولكن عندما تغفو العيون ويكون محاطًا بالسرية وملفوفًا بحيث لا يعرف أحد

ماهيتـه، هتـف داخلـه:

ليس عيبًا أن أسأل عنها في أي ساعة.

طرقـات خفيفـة، لـم يسـمع صوتًـا، بعـد تـردد وعـذوف طـرق ثانيـة، سـمع صوتهـا قادمًـا ولكـن يطالـب بمهلـة، دقائـق حسـبها وقتًـا طويـلًا، انفـرج البـاب بعـض الـشيء ولـم يفتـح حـتى نهايتـه، طالبتـه بالدخـول بسرعـة، دخـان الموقـد الطيـني يتصاعـد ويـكاد يمـلأ جنبـات المـنزل، تقـوده للحجـرة الداخليـة، تسـتقبله بترحابهـا المعتـاد، ترتعـش كلماتهـا مـن الـبرد وهـي تقـول لـه:

- ادخل بسرعة الجو برد.

تـسرع بالتوجـه إلى الموقـد الطيـني، تدفعـه للجلـوس أمـام الموقـد، يهـم بالحديـث ولكـن كعادتـه تخزلـه الكلمـات وتتـوه، تتطلـع عينـاه لوجـه المـرأة فـيرى فيـه بريقًـا جديـدًا عليـه، لكـن يبـدو أنهـا لتوهـا خارجـة مـن حمـام دافئ، بـدا جليًّـا عـلى بقـع الميـاه فـوق غطـاء رأسـها، تلقـي بمزيـد مـن الحطـب فتتوهـج النـيران أكثر، تجلـس أمامـه مبـاشرة بجلبابهـا الخفيـف الـذي لا يتناسـب مـع بـرودة الجـو، تنفـخ في النـيران وتدمـع عيناهـا، يـنزاح غطـاء رأسـها للخلـف، يـبرز ويظهـر شـعرها الأسـود المطعـم بالأبيـض المصبـوغ بالحنـاء ولكنـه كثيـف ليـس كشـعر أمـه الخفيـف، يحـاول أن يسـألها عـن ملبسـها الخفيـف مدعيًـا خوفـه عليهـا لكـن يحجـم عـن السـؤال، عينـاه تختلـس النظـر إلى ذلـك الشـق مـا بـين النهديـن الكبيريـن المتهدلـين الظاهريـن لـه، يحيـد بعينيـه، تدفـس الـبراد في وهـج النـيران وبعصـا صغـيرة تجمـع الجمـرات حولـه، معتـاد هـو عـلى رؤيـة وجههـا الأبيـض، في تلـك اللحظـة أكـثر بياضًـا وحمـرة، تـرص بعـض قوالـح الـذرة الشـامية الـتي تشـتعل بسرعـة بعـد أن تنفـخ

فيهـا، تعتـذر لـه عـن التأخـير في فتـح البـاب، تتطـرق إلى السـبب وكأن الحيـاء يأخذهـا فتقـول وبكلمـات متقطعـة: إنهـا كانـت تسـتحم، بـدا شـيئًا مـن الارتبـاك عليهـا فقـد تذكـرت بأنهـا لـم تسـتكمل ارتـداء ملابسـها، غرقـت في الضحـك وهـي تصـف لـه كيـف ارتـدت ملابسـها عـلى عجـل، يختلـس نظـرات إلى مفـرق نهديهـا الهرمـين المتدليـين ويمتـص لعابـه، تنهـض في حيويـة ونشـاط غريبـين عليهـا وهـي الـتي دومًـا مـا تشـكو مـن ألـم سـاقيها، تـأتي بطبـق مـن الخـوص المصنـع مـن سـعف النخيـل فوقـه أكـثر مـن رغيـف واحـد مـن الخـبز «البتـاو» وبجـواره قطـع مـن الجـبن القديـم وقطعـة مـن الزبـد، تدفعـه أمامـه وتطالبـه بالعشـاء ويتمنـع شـاكرًا، كأنـه يراهـا لأول مـرة، تقـوم وتتحـرك وتتبعهـا عينـاه، تسـحب خلفيتهـا المدملجـة ثوبهـا لبـين شـقيها، لـم تهتـم بـأن تشـدها وربمـا لـم تحـس بهـا، مـا فـوق كعبيهـا وأسـفل سـاقيها بـدا يضـج جاذبيـة بلونـه الأبيـض بحمرتـه ويرجـع السـبب لتلـك النـيران المتأججـة مـن الموقـد أم مـن داخلـه المرهـق المراهـق، دخلـت ورجعـت ولـم تهتـم بتغيـير أو بإرتـداء ثـوب آخـر غـير هـذا الجلبـاب المفتـوح الصـدر، هـل مرجعيـة هـذا كونهـا دومًـا تعاملـه كأحـد أولادهـا؟ تمتـد يديهـا للنـيران وتدفئهمـا وتفركهمـا وتمسـح عـلى وجههـا، تقـترب أكـثر للموقـد وتـكاد تنفـرج سـاقيها حـول الموقـد، يعـود ويـسرق نظـرات ويقتلـه الخـوف وينظـر إليهـا في حـذر بالـغ، يتكاثـر الدخـان وتختلـط الرؤيـا، تضـع قطعـة مـن الخـبز فـوق النـيران فيحمـر ويقـدد وجههـا فتلفهـا وتدفعهـا إليـه وتطالبـه بـأن يتـذوق الطعـم بعـد أن يمزجـه بالزبـدة، يأخذهـا بعـد تـردد، يفـرش الجـبن ويدعكهـا بالزبـدة، تقرمـش في فمـه ويستشـعر طعمهـا اللذيـذ، يختلـس نظـرات فتتقابـل عينـاه بعينيهـا

فيتصنع السعال، تسرع إليه بكوب الماء، يرشف رشفات وينظر إليها، تركع بجواره، ترتعش فرائصه، يود أن يُخرج كلمة، تتوه كل الكلمات ويفيض وجهها ببريق، تزوغ عيناه تمتلئ بالدموع، تجثو بجواره فيسعل من جديد فتأخذه في أحضانها، يرفع وجهه ويدفنه بين نهديها، أيواري وجهه خجلًا أم !!! يشعر بدفء وسخونة جسدها وبوهج ووهن آهات تتسرب من شفتيها، تقع على الحصير و تسحبه معها، مقصودة أم غير مقصودة، ترتج الأماني المراهقة، تقترب أكثر، لا ترتدي سوى هذا الثوب، فوق الحصير تتشابك وتتفجر أمانيه المُرْهَقة وترحل هي في ذكرياتها الغابرة، يواصل، تفض عذريته وهو بها مفتون وولِهٌ ومجنون، دقات قلبه يتردد صداها كناقوس يعلن زفافًا أو موتًا !!! تتسارع نبضاته أكثر، تغمض عينيها وتستدعي ما فات، تضحك وتقلده كلماتها تاج الرجولة وتقول له:

- وكبرت وبقيت راجل.

وكأن كلمتها استثارته فيحاول إثبات قدراته كرجل، تشجعه وتلهب حماسه، يثار جنونه بآهاتها وتدفعه شياطين شهوته، عاصفة ثائرة ولكنها جميلة، تقتلع عذريته، حَاوَلتْ تصنع التمنع وهي تلتصق به أكثر فتلهب حواسه وتؤجج مشاعره، تركته يعبث بكل أجزاء جسدها وبدا لها جليًّا خبرته المتواضعة في هذا الشأن أو عدم خبرته نهائيًّا، ما زال خارجًا من طور الطفولة والصبا ومقبلًا على حياة الفحولة والرجولة، تشير عليه في وهن وغنج أن يفعل ويفعل، تعليمات حاسرة الحياء في لحظة شبق مجنون، تغلق عينيها وترتفع همسات آهاتها ولا يصغي لتوسلات تتصنعها، يدفعها بقوة يرتج لحمها تحته، يرى وجهها المتورد

لا يستطيع أن يتأكد من شيء، هل ما يراه حقيقة أم أن الدخان يغلب على الرؤية، لا يلقي بالًا ويواصل، تقهقه ضاحكة وهي تغير وضعها وتشير عليه بكلمات ناعمة كلها أنوثة وشبق ودعوة للارتواء، تتحسس يداه الساقين الناعمتين، بهجة غريبة عليه تدفعه للمواصلة والاستغراق، عروقه النافرة ونشوته الغامضة الجديدة، خصلات شعرها بألوانها السوداء والبيضاء المخضوبة بالحناء تهتز، فمها مفتوح مرة وتعض على شفتيها أخرى، يغمض عينيه ويتيه مبهورًا بأسرار هذا اللقاء، يشعر بعذوبة تقترب من السحر، تسطو على كل أجزاء جسده وتدعوه بدوره أن يقتنص ويستولي ويضع بصماته على كل جزء، يلبي طلباتها ويتفانى في الفعل ورد الفعل بكل قوة، لا يشعر بزمان، تتكرر رعشاته وهزاته الحقيقية، صوت آهاتها رغم غجريته يبدو ناعمًا وفيه عذوبة وجمال، تغريداتها تنشيه وتنتشله من واقع لخيال يسبح فيه، تأثير الضباب على كل المرئيات.

في دلال تقول:

- ظننتك طفلًا.

هو بطبيعته لا يجيد الكلام، حديثها يدفعه للمزيد لإثبات كيانه ورجولته من جديد، يحاول أن يجبرها ألَّا تستهين به، عليه أن ينتصر في تلك المعركة وعليها أن ترفع علامات الاستسلام، سيواصل.

حركات جسدها وتموجاته كفتاة في العشرين.

***

ما يزيد عن الشهر يرتع في نزواته وشهر عسله المزعوم، تجود عليه بكل شيء وتضاعف له حتى في طعامه اليومي وتحرص أشد الحرص أن يكون الطعام ذكيًّا وأن تكون اللحوم بيضاء أو حمراء أهم مشتملاته، طلبت منه ألَّا يستعين بآخرين في عمليات الهدم، فتكتفي به لتطول أيام العمل.

تطالبه أن يتأنى في الهدم وتقول في دلال يشعل صدره:

- بالراحة واحدة واحدة واللي ما يخلصش النهارده بكره يخلص.

تحدد له كيف يهدم الجدران الخارجية، يهدم وينقل الحطام ويرتب الأشياء القديمة البالية، تجلس إليه في ساعة راحته ويضج وجهها رغم الأتربة بوهج رغبة تحت الرماد الظاهر، تعشق جلسته وهو يدخن السجائر وتمتد يدها لتشاركه سيجارته، تشتري السجائر قبل حضوره، لا تدخلها في الحسابات المتفق عليها، تهبه ضعف النفر العادي وتسأله أن لا يخجل منها لو احتاج لأي نقود إضافية، في نهاية اليوم عليه أن يستحم ويتخلص من كم الأتربة التي تغطي جسده، حريصة أن تمتد يدها إلى جسده للمساعدة والعبث واللعب، يستسلم لمداعباتها المفجرة لطاقته رغم يومه الطويل من العمل، يحسب أن تلك الأيام أسعد أيامه ويصفها لنفسه أنها الجنة ونعيمها، لا تبخل عليه بشيء.

تحذره أن ينطق بكلمة لأي إنسان وهو الأكثر خوفًا وخاصة من أمه، فكانت اتفاقيات ومن بينها أن لا تخبر والدته بما يتقاضاه من أجر إلا ما يوازي أي عامل غريب، توافقه.

لم يذهب ليصلي خلف الشيخ الحنش، لماذا؟ طابت له

الأيـام وتخلـص ممـا يـؤرق ليلـه ويسـتبد بعواطفـه وأمنياتـه.

ينـاول أمـه أغلـب مـا يتقاضـاه مـن أم عبـاس ولكـن في حـدود أجـرة النفـر العـادي، يخـاف إن أعطاهـا المزيـد أن تسـأله لمـاذا؟ أحيانًـا كل الأجـر اليومـي المعـروف في سـائر البلـد، يتمـنى أن يعطـي أمـه المزيـد ولكـن يخـاف أن يتـسرب الشـك إليهـا وتسـأله مـن أيـن؟ دومًـا يخـاف نظـرات أمـه رغـم مـا تحيطـه مـن محبـة.

يحجـز المبلـغ الزائـد، شـهر ويزيـد؛ كسـبٌ وعمـلٌ ونـومٌ في العسـل، شـبه يوميًّـا لا يـكل ملبيًـا طلبـات سـيدته أم عبـاس، بدورهـا تحفـزه بكلمـات وتسـتولي عـلى أفـكاره بآهـات عاليـة جديـدة، تداعبـه بقسـوة حـتى بالكلمـات الخارجـة والبذيئـة والـتي تخـرج غالبًـا سـاعة عريهمـا، كان في البدايـة يضربهـا عـلى مؤخرتهـا، لا يعلـم أنـه يشـعل نـيران سـنوات عمرهـا السـابقة فتهتـاج وتسـتعذب ضربـه، يواصـل وبدورهـا تواصـل شـتائمها وصرخاتهـا، تنشـب أظافرهـا في ظهـره بمتعـة غريبـة، يكبـل ذراعيهـا فتمـوء وتتـأوه بصـوت فاجـر مستسـلم، تدفعـه للمزيـد.

لـه يومـان في الأسـبوع راحـة بمقابـل؛ لأنـه يعمـل مـن الصبـاح حتى أذان العشـاء، فهـي حريصـة أن لا تسـتنفذ قـواه وأن تجـدد قواهـا أيضًـا، ترسـم كل يـوم طرقًـا متعـددة للغـد، تعلمـه مـا خفـي عنـه، يسـحبها بـين ذراعيـه الفتيـين، يقبلهـا وتسـتدرجه فتعلمـه الغـوص بالقبلـة لمعانقـة اللسـانين، يسـتمتع وينفـذ تعليماتهـا محـاولًا أن يظهـر بمظهـر العـارف لتلـك الأشـياء مـن قبـل، يداعبهـا في قسـوة كمـا تشـتهي، تـزداد شراسـتها ويـزداد ولعـه وضربـه لهـا.

-٧-

لـم يتبـق مـن جـدران المـنزل سـوى أربعـة، فيهـا كانـا يقضيـان ساعات لهوهمـا المحـرم والآن جـاء الـدور عـلى هدمهـا، يشـعر في عينيهـا حـزن غريـب، كان عليـه أن ينقـل كل حاجياتهـا إلى منزلهـم، فرغــت أمــه حجــرة داخليــة كبــيرة ووضــع مــصري متعلقــات أم عبـاس، لـم تتبـق سـوى حجـرة نومهـا بمشـتملاتها المتهالكـة، رغـم أن الشـمس تتوسـط السـماء والأنقـاض مـن أخشـاب وجـذوع نخيـل قديمــة تحيــط بالحجــرة، بــدا مــصري وبمســاعدتها فــك السريــر القديـم، أقتربـت منـه أكـثر، أنفاسـها تدعـوه وقـد ألـف دعواتهـا، غاصَـا في لحظـة عشـق كل منهمـا يُعدُّهـا وداعًـا ولكـن لـم يتجـردَا كليـة مـن ملابسـهما، كانـا في عجلـة مـن أمرهمـا، عينـاه تسـتطلع وأذنـاه تصغـي بخـوف وقلـق لأي حركـة حـتى لـو كان طائـرًا يتحـرك، أسرع رغـم أنهـا تشـبثت بـه وطالبتـه أن يسـتمر، هـرب مـن بـين يديهـا مكتفيًـا واضطـرت أن تنفـض جلبابهـا وتقـوم.

دعـاء ونـداء مـن خـلال مكـبرات الصـوت بحالـة وفـاة، أسرع أهـل المتــوفى بالجنــازة، مــصري حريــص أن يمــشي في ركــب الجنــازة، أن يشـارك في التشـييع وحمـل تابـوت أو خشـبة المتـوفي، لا إراديًّـا نفـض جلبابـه وأسرع مشـاركًا.

مصيبـة كبـيرة وقعـت فـوق رأسـه، يشـعر بانقبـاض في قلبـه وضيـق تنفسـه، يعـود مـن خلـف الجنـازة مهمومًـا، تحـاول أمـه أن تخفـف

عنـه ويدعـي أن المرحـوم كان ممـن يحترمهـم ويحبهـم ، يـسرع للغسـل ويـؤدي صـلاة خاشـعة يطـول سـجوده وتنسـاب دموعـه حـتى تشـعر أمـه وتسـمع شـهقاته.

تعلـم وعـرف أن للجنـازة شروط، تشـييعها واجـب مفـروض ولكـن شرطهـا الأسـاسي أن يكـون طاهـرًا، وحـتى دخـول الجبانـة والقبـور يسـتلزم طهـارة، فعيـب كبـير أن يلبـس حـتى حـذاءً في قدمـه فـكل أرض الجبانـة مـن بقايـا رفـات بـشر سـابقين.

ماذا فعل اليوم ؟

لقـد مـضى خلـف الجنـازة حـتى حافـة قبرهـا، شـارك في حمـل النعـش لمسـافة طويلـة وهـو جنـب، أي مصيبـة وقعـت فـوق رأسـه، كل مـن عرفهـم يحـذرون أي إنسـان أن يتجـرأ ويدخـل القبـور بنجاسـة، نعـم إنـه في نجاسـة وليسـت مـن حـلال، في وحدتـه يلطـم وجهـه، يعاتـب نفسـه:

أي ذنب اقترفت وأي جريمة فعلت؟

جريمة يدفع الإنسان حسابها في الدنيا قبل الموت.

يسأل صاحبه أنه يبحث عن غيبوبة.

- المخدرات أنواع أفضلها الحشيش.

- نحن نعيش في غيبوبة ... لا تفكر في المخدرات.

- يتساوى كوننا في غيبوبة أو نعي ما يدور حولنا.

- الدنيا كلها أخذ وعطاء .

- إلا الموت أخذ فقط .

يشـعر بأحاسـيس غريبـة متناقضـة، يلتمـس طريقـه إلى مجلـس

أقرانـه مـن الجامعيـين الثوريـين أو مـن يطلقـون عليهـم يسـاريين، لا يهتـم بـأي شيء، لا يأخـذ طريقًـا متعرجًـا مبتعـدًا عـن العيـون.

أهل بلدنا طيبون، لكنني أرى أنهم جميعًا مذنبون.

في مجلسهم يسأل أحدهم:

ما الفرق بين الرؤية والشعور؟

إجاباتهـم متناقضـة وكلٌّ يجـزم بـأن حديثـه هـو الصـواب، يحـاول المشـاركة بكلمـات كالعـادة قليلـة متقطعـة، حفيـد الشـيخ يبـدو أنـه في حالـة تذمـر جامـح، فـيرد عليـه بكلمـات عنيفـة تخـرج مـن شـفتيه كطلقـات مدفـع:

- أنـت عبيـط وجاهـل، آخـر حـدود عقلـك معروفـة، ومنتهـى رؤيتـك لا يبعـد كثـيرًا عـن موطـئ قدميـك.

وكأنـه يسـتجمع شـتات نفسـه، ويحـاول أن يـداري تسرعـه وخطـأه في حـق مـصري، فقـد رمقتـه كل العيـون وكأنهـا صبـت لعنـات فـوق رأسـه فاسـتطرد:

- تقبل عذري، هل تعلم شيئًا عن الحق الإلهي؟

يصمت مصري ولا يجيب:

الملـوك والرؤسـاء ومـا يملكونـه يعدونـه حقًّـا وهبـه الله لهـم، هـذا هـو الحـق الإلهـي.

يحاول أحدهم أن يستوقفه قائلًا:

- يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء.

يشير مصري بأنه كان سيردد ما قاله صاحبه

يعود حفيد الشيخ قائلًا:

- أنـت مؤمـن أم كافـر والعيـاذ بـالله، في نهايـة الأمـر عليـك أن تعـرف بأنـك أنـت أو أنـا أو هـم مجـرد بعوضـة صغـيرة فـوق جسـم أسـد، هـل يـئن الأسـد تحـت ثقلهـا؟

رغـم أنـه غـير معتـاد عـلى الحديـث، شيء غريـب خرجـت عبـارات مـصري ولأول مـرة بـلا تلعثـم وهـو يقـول:

- تسـتطيع البعوضـة أن تذيـق الأسـد العـذاب لـو نامـت بـين جفنيـه.

بعد صمت يقول مصري:

أنـا لا أعـرف ولسـت متأكـدًا، ربمـا هنـاك حكمـة كبـيرة -لا أدركهـا- مـن كـون أن سـيدنا سـليمان عليـه السـلام بـكل مـا أوتي يسـمع لأضعـف مخلوقـات الله.

يسـتأذنهم في الانـصراف، حاولـوا أن يمكـث بينهـم، قـدم حفيـد الشـيخ اعتـذاره ثانيـة، أقسـم لهـم بأنـه لا يعلـق بـه أي ضيـق.

جلسـاتهم تـئن بالشـكوى، تعكـس كـمَّ التشـتت والمعانـاة، أفكارهـم أسـيرة أمـل الحصـول عـلى وظيفـة حكوميـة، لكـن هـذا المطلـب أصبـح عسـيرًا عليهـم وصعـب المنـال؛ إذ أصبـح للوظيفـة مواصفـات خاصـة، قريبًـا مـن أصحـاب النفـوذ أو يمتلـك فيدفـع لأصحـاب المناصـب العليـا ومـن بيدهـم الشـأن، يجتمعـون عـلى قـدر شـبه واحـد، لسـان حالهـم يقـول ويـردد: مـوتى عـلى قيـد الحيـاة، تائهـون والضبـاب يحـول دون رؤيتهـم، يتمنـون أن لا يبرحوا أماكنهـم واعتـادوا الخمـول، مـن ينفـخ فيهـم بثـورة كاذبـة يرفعونـه.

كثـير مـن البسـطاء وممـن هزمتهـم ظـروف الحيـاة يداعـب آفـاق خيالاتهـم، بطـل بمواصفـات خاصـة أو خارقـة يحلمـون بـه؛ ليكسر

أغـلال قهرهـم ويرفـع عنهـم معاناتهـم وقلـة حيلتهـم ، الحكومـة مـارد متجـبر متحكـم في حياتهـم ، الخـارج عـن القانـون مـن يقاتـل ويغامـر ويعافـر ضـد الحكومـة هـو بطـل أحلامهـم ، هـو تجسـيد لمغامـرات تهفـو بخيالهـم لكسر حـدة جبنهـم وتراخيهـم ، الحكومـة هـي الشـيطان ومـن يهـزم الشـيطان يسـتحق الولايـة فيلبسـونه عبـاءة التقـوى والولايـة، مـا زالـت رؤوسـهم تعـج بتلـك الأفـكار القديمـة المتوارثـة.

مـصري رغـم عثراتـه المتكـررة ومـا يعانيـه مـن آلام وخـوف وتوجـس، يحـاول أن يسـاير ركـب الحيـاة، فيقبـل عليهـا مرغمًـا ويلوح بابتسـامة كدليـل وعلامـة للرضـا، يمتـص لعابـه قبـل أن يسـيل.

هل يتجه صوب أبو دماغ وأعوانه؟

تجـارة السـلاح رائجـة هـذه الأيـام، لـو أصبـح أحـد رجالـه -تأخـذ جسـده رعشـة- قـد يكـون هـذا السـلاح سـببًا في مـوت إنسـان، الوظيفـة الحكوميـة؛ اسـتعرض كيفيـة الحصـول عليهـا ومؤهلاتـه لا تكفـي، الشـيخ «لا مؤاخـذه» لقـد تقـرب منـه كفايـة ولكـن ابتعـد عنـه وغـاص في شـهواته، لا يصـلي اليـوم خلفـه ولا يذهـب لمجلسـه المعتـاد.

الشباب يقولون:

مـن يملـك يـدس أنفـه في كل شيء ويعمـل مـا شـاء حـتى لـو خالـف القانون.

نقـذف الحـق بالباطـل، نزهـو بأفعـال تختـال بالكـذب ونرفـع مـن شـأن صاحـب الفعـل المنكـر؛ لأنـه الأقـوى، الكـذب وسـيلة للكسـب

المـال هـو الـدرع الـواقي اليـوم، لا أهميـة لشـوارب يقـف عليهـا

الصقـر، صاحـب الطـول الفـارع والكتفـين العريضـين الـذي تهابـه السـباع مجـرد حكايـات عفـا عليهـا الزمـن، ثمـن هـذا العمـلاق مجـرد رصاصـة بعـدة جنيهـات يطلقهـا إنسـان حـتى لـو كان كسـيحًا فيرديـه قتيـلًا عـلى الفـور.

حينمـا ينشـب الفكـر أظافـره في رأس الإنسـان فيخرجـه مـن حـيز الحيـاة ودفئهـا، يخاصمـه النـوم وتتواثـب الأفـكار إلى صـدره فتوغـره ويصبـح في عـراء بـلا سـقف يحميـه، تتشـعب الـرؤى، ولا يـدرك أي الطـرق يسـلك.

يمـضي المـصري لليـوم الثـاني عـلى التـوالي مُحجمًـا عـن العمـل، لا يـود أن يـري وجـه أم عبـاس ولا يـود أن ينهـي عملـه لديهـا، لا يفصح عـن ذلـك علانيـة ولكـن يشـكو مـن ألـم يتطلـب الراحـة.

لا تحمـل الابتسـامات المرسـومة فـوق الشـفاه بـراءة، هـو يقـول إنـه لا يطمـع إلا في السـتر، يقـول بشـفاهه إنـه يحمـد الله عـلى النعمـة، فضولـه يدفعـه لمزيـد مـن الأسـئلة لنفسـه، يشـعر ببلادتـه وعـدم قدرتـه عـلى الإجابـة، حساسـية مفرطـة وتخـوف وتـردد لا يطـرح سـؤاله، عليـه أن يشـاهد ويسـتنتج بنفسـه.

بعد صلاة العصر يقول الشيخ:

- لا حيلة في الرزق ولا شفاعة في الموت.

رحمـة الله مرهونـة بالشـكر عـلى النعمـة، مـن يعـد النعـم الـتي سـاقها الله إليـه ينـام قريـر العـين ويـضرب الشـيخ أمثلـة متعـددة.

تضيـع معالـم الدنيـا كلهـا مـن عيـني المـصري وينـام في المسـجد، يسـتيقظ بدفعـة مـن أحدهـم فقـد حانـت صـلاة المغـرب.

في حلقة الذكر قائد جوقة الذاكرين يصيح طالبًا المدد:

«المدد ... المدد ... ياسيدي يا رسول الله المدد».

الشـيخ عطـاالله هــو قائـد الجوقـة، المـصري يعرفـه منـذ كان طفـلًا، الشـيخ عطـاالله كان خوليًّـا للأنفـار، كان يخـرج بالأطفـال لمقاومـة دودة القطـن، يكتـم المـصري ضحكاتـه وهـو ينظـر إليـه والرجـل هائمًـا في دنيـاه غافيًـا بعينيـه غاديًـا للشـمال واليمـين في وصـال وتقـارب مـع آل البيـت وأوليـاء الله الصالحـين.

كان يهـم بدخـول ساحة الذاكريـن يبحـث عـن فيـضٍ مـن بركـة، يلتمـس قـوة مـن أوليـاء الله الصالحـين، مجـرد أن لمـح الشـيخ عطـا الله قائـدًا تراجـع.

في الطريـق يضحـك ويتذكـر شـيئًا وحكايـة مـا زالـت عالقـة بذهنـه لـم يمحهـا الزمـن، كان مـصري طفـلًا بـين أطفـال يعملـون في المقاومـة تحـت إمـرة الشـيخ المجـذوب، رأى المجـذوب أو الخـولي يومهـا مفتـش الزراعـة قادمًـا مـن بعيـد، جمـع الأطفـال الأنفـار وطلـب منهـم بمجـرد أن يعطـي الإشـارة عليهـم أن يصرخـوا ويتفرقـوا وكل منهـم عـلى بيتـه مبـاشرة، فرحـوا جميعًـا، سـيعودون إلى بيوتهـم مبكـرًا قبـل سـاعتين ويزيـد عـن موعدهـم الأسـاسي، الأطفـال ومنهـم مـصري بالطبـع لـم يفهمـوا الغايـة أو المـراد مـن وراء تلـك الفعلـة، لـم يفكـروا في الأسـباب يكفيهـم أنهـم سـيرجعون، الشـمس حارقـة ومـا أن عـبر مفتـش الزراعـة القنطـرة الخشـبية أعطـى الخـولي إشـارته، تعالـت الصرخـات وتفـرق الأنفـار الصغـار في كل الاتجاهـات، سـحب الخـولي يومهـا عصاتـه الضخمـة وأخـذ بالـضرب في الأرض صائحًـا متحـركًا بـين أشـجار القطـن، توقـف مفتـش الزراعـة وقـد علـت وجهـه معالـم الدهشـة، لا يـرى المفتـش أمامـه سـوى شـجيرات القطـن، لا يعـرف مـاذا يحـدث لكـن داخلـه

خوف مريب، فهو ابن المدينة الذي لم يعتد يومًا المشي بين الزروع، أعلن الخولي يومها أن ثعبانًا ضخمًا هاجم الأولاد، أسرع المفتش موليًا وجهه للجهة الثانية عائدًا مسرعًا، أما الأسباب فقد عرفها مصري بعدها، الخولي القائم بتمثيل دور الشيخ المجذوب كان يسجل أسماء الأنفار بالضعف يوميًّا، وكان يستولي على نصف الأجر اليومي بأسماء وهمية لا وجود لها.

يضحك ويسأل إلى أين أذهب؟

-٨-

عاد للعمل، عليه استكمال هدم الحوائط الأربعة.

الحياة مجرد جسر نعبره إلى الموت، هل نحطم هذا الجسر؟ مجرد المحاولة سيتهموننا بالكفر والزندقة، لو حطمناه هل تتسع رقعة الحياة أمام عيوننا وننعم بها؟ ربما يكون كلامهم صوابًا وربما كان ما نفعله جرمًا.

كثيرًا من المعاصي ارتكبنا، الجسر أمامنا وعلينا العبور من نار وعذاب الحياة إلى جهنم الآخرة أيضًا.

كنا زهورًا صغيرةً تنشد الحياة فاغتالوا براءتنا وداستنا أقدام السادة وأصحاب الشأن، كل ما حولنا ملوث حتى الهواء.

الضباع تخرج بالليل تبحث عن جثث أيًّا كانت بشرية أو غير، اليوم الضباع تخرج في وضح النهار وتفتك بالأحياء ولا جرم على الضباع، حياتنا وهم كبير وصرخاتنا محبوسة داخل حناجرنا وحلوقنا ولا تخرج، لعلها تخرج يومًا كما يدعي دومًا أبناء الجامعة ومن يصفونهم باليساريين، أو كما يدعي الشيخ الحنش ويتمنى من خلف كلماته من تحت عباءة التقوى التي يدعيها، ربما تخرج صرخاتنا دفعة واحدة في وقت وأوان واحد، تزلزل الدنيا، يومها نخرج من قمقم الحكايات المظلمة في ليالي التيه والعتمة، وما زال أبو دماغ شاهرًا أسلحته.

مصري اعتاد أن لا يشارك أحدًا حيرته، كان منذ عهد قريب

ينتشي لسماع الأغاني ويرددها ولا تخرج لحيز الفضاء، اليوم يزداد طربًا من خلال حلقات الذكر وخاصة الليالي التي يحييها الشيخ ياسين التهامي وأمثاله، هؤلاء القادمون المتوجون بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل البيت رضي الله عنهم وأرضاهم، يسبح مع صوتهم ويدندن كلماتهم ويطوف فؤاده في دنيا واسعة فسيحة وبهجة تدق معاقل قلبه فينتشي ويسبح ويغامر، ما يزيد عن شهر مضي لم يسأل أين المغردون ليذهب إليهم، نام في عشق عنكبوتي يمتص عصارة شبابه فاستسلم.

مصري عاشق كل شيء، الدروب الضيقة العتيقة، البيوت القديمة والحديثة المشيدة على أطراف القرية، أصوات هوام الليل يستشعرها نغمات تتسلل في المساء داخله فتفيض إحساسًا بنشوة، رغم كل المستحدثات من الأجهزة التي تطلق عبر سماعاتها الأغاني الحديثة ذات الجملة الإيقاعية الوحيدة، هو لا ينكر جمال الأصوات، بطبيعته يغمره الصمت ولا يحب أن ينتقد الآخرين، يشعر بضآلته وقلة قيمته فيحجم وإن همَّ يلعن نفسه كونه تخيل بأنه الأفضل ووضع نفسه موضع الحكم على من حوله، يتمنى أن يعيش الجميع في حب ومودة.

ليعيشوا ما شاءوا وكيف ما شاءوا ما داموا لا يؤذون إنسانًا آخر.

دائمًا كان حياديًّا، يجيد إخماد ثورته بسرعة ويتحكم فيها، مدركًا أنه في ذيل قائمة الناس في بلده، يتمنى من الحياة القليل، يحذر من التمادي في أي فعل أو عمل فالخوف دومًا يسكنه.

اليوم تفجرت داخله نوازعٌ غريبةٌ جديدةٌ عليه، لعل أهم تلك المتغيرات أن لسانه خرج من قمقمه ولم يصبح متعثرًا في

استخراج كلماته، تختلط الأمور في رأسه؛ الواقع والحلم، الحقيقة والخيال، الحلال والحرام، الغنى والفقر.

كل من حوله حديثهم رغبات مكبوتة يلبسونها ثوب الفعل الحقيقي الصادق، ولا يهتم بقدراته في فن الحكي أو الكذب.

يستسلم عندما يجابه يومه وتسطع الشمس بالحقيقة والواقع والفقر الذي يعشش داخل كل الناس حوله، لكن ما زالت معالم إنسانيته في بوتقتها لم تنكسر بعد، لا تعيش الكراهية في خلايا عقله، كل مفردات حديثه إن تحدث عاشقة للبشر وكل الجمادات من حوله، يحلم ويذهب في حلم وفي صدره أن جميع الفقراء والبسطاء من حوله يحلمون، وكما يقولون:

«حلم الجعان عيش».

لا يعقد مقارنة بينه وأثرياء قومه، يعقدها مع مَن هم دونه فيستريح قلبه، يخرج للخلاء يشعر بالأمان، والبساطة تقتل لحظات التذمر والضيق، يجلس وحيدًا على شاطئ الترعة، يتأمل الماء الجاري والنجوم المتلألئة فوق سطح الماء، تجود عليه نسمات المساء الباردة الشتوية ريحًا طيبة، فيتيه مسبحًا حامدًا.

عاتبته أمه على تأخره خارج البيت، طالبته بأن يسرع في إنهاء هدم منزل أم عباس، أخذت رأيه في أنها ستترك حجرة في منزلهم وتنقل حاجيات أم عباس إليها لتعيش بينهم، أبدى موافقته بلا تردد فهو يعلم أن أمه أخذت القرار وأن سؤالها مجرد مشاركة فحسب، وإن كان غير موافق فما هي أسبابه التي يسوقها؟ مجبر على الموافقة كم كان يتمنى أن يبتعد، ها هي قادمة لتعيش بينهم في منزلهم مع أمه وأخواته، هذا يستلزم

الكثير من الحرص والحذر، فأمه صعبة المراس وجريئة بما فيه الكفاية.

كم مرة تحذره أم عباس من الحديث بما بينهما.

هو أيضًا أكثر رعبا منها، فكيف يتحدث؟!!

يسترق السمع في ردهة البيت الخارجية يصل إلى أذنيه حديث دائر بين أمه وأم عباس موصول بضحكات بينهما.

من خلف الباب ينصت:

تقول أمه:

- من يوم ما ابتديت الهد ووشك نور.

- يبشرك بالخير يا أختي.

- صبية بنت ... لا تكمل عبارتها.

تضحكان بصوت مسموع، يضع عينه على موضع المفتاح، تستطيع عينه أن ترى بوضوح كامل موقفها، تميل أم عباس على أذن أمه وتهمس، رغم أنه لا يوجد أحد في المنزل، يرى جليًّا معالم الدهشة التي بدت فوق وجه أمه ولا تلبث أن تضرب على صدرها، يكاد قلبه يتوقف، ولكن هذا مستحيل، لا يمكن أن تقص أم عباس عن علاقته بها، لا تجرؤ أن تقص فيستبعد هذا الخاطر تمامًا، اضطرابٌ وانزعاجٌ بالغان يسيطران عليه، يسمع أحيانًا أن النساء عندما يكبرن فأي منهن تتباهى أمام الأخريات بأنها ما زالت مقبولة ومحبوبة وأن قلبها أخضر، يهرب من تلك الأفكار ويستبعدها تمامًا ويخرج.

تضرب في رأسه كلمات أمه عندما تتباهى بأنها لم تتزوج ولم تفكر في الزواج، وظلت حريصة على تربية أولادها كانت تقول:

- العفـاف والـشرف همـا جمـال المـرأة، أمـا المـرأة المتصابيـة هـي مـن تنـسى نفسـها دومًـا فقـد ضـاع وذبـل عقلهـا.

يردد : لو عرفت أمي بما حدث قد تصاب بالجنون.

***

بمســاعدة أمــه وأخواتــه البنــات يرتبــون حاجيــات ضيفتهــم قريبتهـم ، أو كمـا يحلـو أن تناديهـا أمهـم بأختهـا، يقيمـون صـوان ملابسـها وسريرهـا ووجوههـم تطفـح بالبِـشر لوجـود أم عبـاس بينهـم، أكـثر مـن مـرة تجمعهمـا جلسـة بمفرديهمـا، تنظـر إليـه أم عبـاس نظـرة كلهـا الشـوق، يحيـد بعينيـه بعيـدًا، عيناهـا تسـأله: هل مَـلَّ منهـا؟ أم إنـه جفـاف صدرهـا، هـي تعلـم بأنـه لا يعـرف شـيئًا مـن ذلـك، تهـم بالـكلام يحذرهـا مـن أمـه أو يـترك المـكان ويمـضي، عـاده الخـوف مـن غضـب الله وخاصـة بعـد يـوم الخـروج وراء الجنـازة وتشـييعها، تتمـنى أن تطـرح سـؤالًا أو أسـئلة متعـددة، هـو يبتعـد ويحـاول أن يظهـر أن السـبب الرئيـسي الخـوف مـن الانسـياق في تلـك الأفعـال الـتي تغضـب الله، هـو يخـاف مـن أمـه ويعمـل لهـا ألـف حسـاب، يعـرف أن مـا فعلـه مـع أم عبـاس كبـيرة مـن الكبائـر، طوقتـه بحنانهـا ظنـت أنـه أصبـح كالخاتـم في أصبعهـا، أنـه لـن يسـتغني عنهـا يومًـا وأنـه سـيظل تابعًـا لأوامرهـا، هـو لا يسـتطيع أن يرفـض لهـا طلبًـا حقيقـة ولكـن الأوضـاع تغـيرت وصـارت أكـثر صعوبـة.

في ساعة صفاء وفي وضح النهار تسأله:

- بعدت عني؟!

- غصب عني الظروف.

- اشتقت لك.

- أمي عينيها كعين الصقر لا تفوتها كبيرة أو صغيرة.

- أنا لا أستغني عنك.

تحـاول أن تقـترب منـه، يبتعـد وعلامـات الخـوف فـوق وجهـه ظاهـرة، تجـوب عينـاه أرجـاء المـنزل، فإخوتـه البنـات اقـترب موعـد عودتهـن مـن المدرسـة وأمـه موجـودة بالمـنزل، يبتعـد في حـذر بالـغ

- حرام عليك أمي.

- بتخاف من أمك؟

- بخاف عليك أنت.

تضيـع الكلمـات مـن شـفتيه، وكأنـه اكتشـف كـنزًا ثمينًـا، تـورد وجهـه وعـلاه البهجـة وهـو يقـول متسـائلًا:

- ما رأيك في البرنس؟

- ماله.

- تتزوجيه؟

تـولي وجههـا للناحيـة الثانيـة وتبصـق، يعلـو وجههـا الضيـق والتذمـر، تنظـر إليـه بـكل قـرف الدنيـا وكأنهـا تعاتبـه ولكـن بصـورة فجـة.

- أنا أتزوج برنس.

- ضل راجل.

- أنت كلب، مثل القطط تأكل وتنكر.

يحـاول أن يلتمـس المعاذيـر، أن لا تغضـب منـه، وأنـه في أقـرب فرصـة وفي ظـل ظـروف أفضـل سـيكون تحـت إمرتهـا.

- حقك علي.

- لا حق ولا مستحق، أنا يا مصري، برنس!

- راجل.

- تـف مـن بقـك واسـأل هتعـرف إنـه عمـره مـا كان راجـل، برنـس مخـصي، النـاس مـن زمـان مسـمياه طـووشي.

- مخصي؟!

- من قبل ما تتولد.

يتوقـف حوارهمـا، يسـحب نفسـه مـن جلسـته، تـتردد في أذنيـه كلمة أم عبـاس، أن البرنـس مخـصي وليـس رجـلًا، مـا معـنى كلمـة طـوشي، إنهـا المـرة الأولى الـتي تطـرق تلـك الكلمـة أذنيـه، هـل يسـأل، هـل أم عبـاس صادقـة؟ ولمـاذا تكـذب؟ البرنـس لـم يـتزوج طـوال عمـره، يتذكـر حكايتـه معـه، هـو يحـب برنـس بـكل صفاتـه ولـم يكرهـه، وحـتى لـو كان مـاذا سـيحدث؟

***

تجتمـع أسرتـه وأم عبـاس في جلسـة عائليـة ليليـة، الأم تجـتر ذكرياتهـا وبـدت أكـثر حزنًـا فقـد أَزِفَ واقـترب موعـد ذهـاب مـصري إلى التجنيـد؛ لأداء الخدمـة العسـكرية، أخـوه الأكـبر تأجـل تجنيـده لأنـه كبـير الأسرة، أختـاه اللتـان يحنـو عليهمـا دومًـا، إنـه يقتصـد في مصروفاتـه الخاصـة ليهبهمـا مـن وراء أمـه، كثـيرًا مـا يعـود مـن المدينـة وهـو يحمـل لهمـا مـا يتمنيـان، يعاملهمـا برقـة بالغـة، لـم

يتطـاول يومًـا عـلى أي منهمـا، حريـص أن ينزلهمـا مكانـة عاليـة، فيصفهمـا بصفـات محببـة لنفسـيهما، سـاعات وجـوده في المـنزل تستشـعران سـعادة غامـرة نقاشًـا ولعبًـا ومحـاورة، تشـعر الأم بمـدى الفـراغ الـذي سيتركه ذهـاب مـصري، غالبًـا تلقـي عليـه بأغلـب مهـام المـنزل، لـم تـر منـه يومـا هروبًـا ولـم يخذلهـا في مطلـب تطلبـه، داخلـه سـعادة غريبـة ولكـن لا يسـتطيع الإفصـاح عنهـا، أمـه تحـاول أن تخفـي حزنهـا، أم عبـاس تنظـر إليـه في شـبق غريـب، أزاح عـن كاهلهـا المثقـل بالوحـدة الضيـق، فتجـاسرت بعواطفهـا وغامـرت بأمنياتهـا المحبوسـة قـسرًا عنهـا بـين ذراعيـه الفتيـين، الفتاتـان سـتفتقدان قلبًـا عاشـقًا يهبهمـا دومًـا أغلـب مـا يملكـه، جلسـة تتبايـن فيهـا معالـم حـب وخـوف وفـراق وشـهوات، كل يترجـم آمالـه وفـق رؤيتـه الخاصـة، تطلـب منـه أم عبـاس أن يذهـب إلى ابنهـا الأصغـر حامـد، فهـو أعـزب وسيسـعده كثـيرًا وجـود مـصري، يكتـب عنوانـه، في نهايـة السـهرة وبعيـدًا عـن العيـون تـدس أم عبـاس بـين يديـه مبلغًـا لا بـأس بـه مـن المـال، يحـاول أن يمتنـع تصمـم عـلى هبتهـا فيتقبـل ولا إراديًّـا يمِيـلُ فيقبـل يدهـا.

أختـاه في المدرسـة، اليـوم هـو يـوم السـوق والأم معتـادة أن تتسـوق، فـكل الأشـياء أسـعارها أرخـص مـن المعتـاد، دومًـا لا تـأتي إلا قـرب الظهـر، يعـود للمـنزل لا أحـد سـواه وأم عبـاس، نظـرات حائـرة ودفقـات دمويـة سـاخنة، والعجوز ترهقهـا مراهقتهـا المتأخـرة، والفـتى يحـاول السـيطرة عـلى ضجيـج انفعالاتـه المتباينـة، هـل يسـتطيع الخـروج هـو لا يتمـنى الخـروج، مجـرد أن تدعـوه يلـبي، في حجرتهـا الجديـدة عليهـا في بيـت مـصري، يتيهـا في وهـج اللحظـة، ينتشـيا ولنشـوة العجـوز وقـت ليـس بالقصـير فتطلـب المزيـد، هـل

يعـدَّه وداعًـا، في نشـوتها تبـكي بصـورة غريبـة وكأنهـا تطالبـه بالمزيـد، يقبـل عليهـا في نهـم جسـدي يـكاد يفترسـها، تجاريـه في صرخـات مكتومـة باكيـة، لـم يشـعرا بالبـاب الـذي انفـرج، لـم تصـدق الأم مـا يحـدث أمـام عينيهـا، فانتابهـا ذهـول ودهشـة فتسـمرت كل أعضـاء جسـدها، مشـدوهة وعيناهـا تـكاد تخرجـان مـن محجريهمـا، حاولـت أن تحـول بـين عينيهـا والمشـهد القائـم فارتفعـت يديهـا تغطـي عينيهـا، لـم تسـتطع أن تنبـس بحـرف واحـد أو كلمـة، جـفَّ حلقهـا وضاعـت كلماتهـا لكـن قـسرًا صـدر أنـين متوجـع حزيـن فـاق أنـين هـزة قريبتهـا الأكـبر منهـا سـنًّا، وكأن الدنيـا ارتجـت، فـر الفتـى وهـو يلملـم بقايـا ملابسـه، تكـورت أم عبـاس في مكانهـا وشـعرت بـبرودة تـسري في جسـدها، انهـارت في بـكاء لاطمـة خديهـا، خرجـت الأم وأغلقـت البـاب أمامهـا، الأم جابهـت الحيـاة بمفردهـا، اعتـادت التماسـك أمـام الشـدائد فـلا تتـسرع في فعـل، مـا بـين الحجـرات الثـلاث ردهـة واسـعة أكـثر مـن مقعـد قديـم متهالـك وكنبتـان، جلسـت عـلى إحـدى الكنبتـين، ارتفعـت سـاقها وجعلـت مـن ركبتهـا سـندًا لذراعهـا الـتي سـندت بدورهـا رأسـها المثقلـة بالهمـوم، تداخلـت كل خيـوط الحيـاة ببعضهـا، فلـم تعـد تـدرك بدايـة أو نهايـة، استسـلمت.

مـصري يبـكي كطفـل صغـير في حجرتـه، الدمـوع لا تفلـح في إطفـاء نـيران قلبـه المشـتعلة، ألـم يعصـف بـكل جسـده فيرتعـش ويرتجـف، مـن يلتمـس الأعـذار لمـن، مـاذا تقـول عنـه أمـه؟ تسـاؤلات بـلا إجابـات، كيـف يكـون موقفهـا منـه؟ هـو لا يسـتطيع أن ينظـر في وجههـا.

حديـثٌ دائـرٌ خـارج الحجـرة في الردهـة الخارجيـة، يقـترب عـلى

أطراف أصابعه، ينظر من ثقب الباب، أم عباس تبكي بين ذراعي أمه، أمه تأخذها بين ذراعيها وكأنها طفل صغير، تربت على ظهرها والمرأة تنتحب وتجهش ببكاء مر، الأم تهدِّئ فيها، تقوم وتأتي بكوب الماء وتطلب من أم عباس أن ترشف بعض الماء، لا تنظر إلى وجهها تتكلم بصوت لا تظهر كلماته بوضوح:

- سأترك البيت.

- إلى أين؟

- أي حد من أهلي.

- أنا أهلك.

تحاول بكلماتها المتعثرة الباكية أن تجعلها تسمح لها بالذهاب، الأم تقسم بأنها لن تترك هذا البيت إلا بعد أن يتم بناء البيت، تشعر أم عباس بمهانة أكبر، فتحاول والأم عند كلمتها لا تتراجع عنها، تلقي بنفسها بين أحضان الأم وتذهب في بكاء وعويل والأم تهدهدها وتربت على ظهرها.

الأم لا تصدق أن يأتي ولدها تلك الفعلة، مَن تلوم؟ الفتى، أم تلك الباكية بين ذراعيها مَن تجمعها بها صلة الرحم، إنها إنسانة طيبة لم تر منها أبدا فعلًا سيئًا، كلماتها دومًا طيبة فهي تراعي حقوق الناس وحق الله عليها، كيف تسمح لفتى صغير أصغر من ولديها أن يرتكب معها هذا الفعل، تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ولدها بكل أفعاله الجميلة الطيبة، كما يصفونه

إنه يخاف من ظله، كيف تأتيه الجرأة ويرتكب تلك المعصية الكبرى؟

وهـي تبـكي بـين ذراعيهـا تدعـي أن شـيطانًا ركـب رأسـها، لا تعـرف كيـف سـمحت لنفسـها بتلـك الفعلـة الشـائنة، تميـل لتقبـل يـد الأم فتسـحب الأم يدهـا مـن فـوق شـفتيها اليابسـة الباكيـة، تحـاول أن تصفهـا بأنهـا طـوال عمرهـا عفيفـة ومحترمـة والـكل يشـهد بأخلاقهـا، لا تنـسى الأم أن تلـك المـرأة قريبتهـا ولا تنـسى –أيضًـا- أنهـا لـم تبخـل عليهـا بـشيء فخيرهـا عليهـا كثـير وفضلهـا كبـير، فـأم عبـاس هـي مـن تفـك كربهـا دومًـا، هـي الـتي تمـد يـد العـون لهـا في سـاعة العـوز والحاجـة، وغالبًـا لا تـرضى بـرد المـال وتقسـم لـلأم بأنهـا هديـة منهـا لـلأولاد، الأم تحـاول كثـيرًا أن تـرد جميـل أفعالهـا، لكـن في تلـك اللحظـة تتنازعهـا عوامـل غريبـة وكأنهـا تتمـنى أن تطبـق بيديهـا عـلى عنقهـا حـتى تفـارق الحيـاة، كيـف تتجـرأ تلـك العجـوز... تبتلـع مـا يجيـش في صدرهـا مـن مشـاعر غاضبـة تجـاه أم عبـاس، يخـرج مـصري وهـو محـني الـرأس لخـارج البيـت، لـم يسـتحم ويعـرف أنـه جنـب، لكـن كل هـذا لا يهـم ولا يفكـر فيـه، يبتعـد عـن المـنزل، يهـرب للمدينـة القريبـة، تطالعـه صـورة أمـه وهـي تشـاهده في ذلـك الوضـع المخـزي، مـاذا سـتقول عنـه؟ أمـه تعـرف سـلوكياته فطـوال عمـره محبًّـا للبـشر ولا يعـرف العـداء لإنسـان، لـم يمـس يومًـا إنسـانًا بسـوء، نعـم هنـاك جـزء كبـير مـن تلـك الصفـات يحـاول بهـا التحايـل عـلى الحيـاة واتقـاء الـشر الأقـوى، هـي طبيعـة درج عليهـا، اعتـاد ذلـك.

تأتيه كلمات أمه محذرة:

لا تكذب وكن صادقًا دائمًا، غالبًا فعل ذلك.

الأمانـة ووصفهـا للإنسـان الأمـين، حـتى حكاياتهـا وأقاصيصهـا القديمـة تمتـدح الأمانـة وأصحـاب الأمانـة، فـسر يومًـا كلمـة الأمانـة

وفـق مفاهيمـه الطفوليـة، عندمـا وصلـوا بالمتـوفي حـتى بـاب القـبر، يطالـب مَـن داخـل القـبر الخارجـين «هاتـوا الأمانـة» والمقصـود جثـة المتـوفي، نعـم نحـن أمانـة في الحيـاة، فـالله وهبنـا الحيـاة وعلينـا أن نحافـظ عليهـا، حياتنـا رهـن إشـارته سـبحانه.

كيـف يقابـل أمـه ومـاذا يـرى داخـل عينيهـا؟ بمـاذا تصفـه؟ دومًـا كان مؤديًـا للصلاة ومراعيًـا حـدود الله، تائهًـا متشـككًا فيمـا بـدر منـه، كيـف ولمـاذا؟ ألـم يكـن عازمًـا مـن بعـد أن شيع الجنـازة ناسـيًا أنـه جنـب أن لا يقـترف تلـك الفعلـة الشـائنة ثانيـة، مـا يحمـل همـه حقيقـة هـي أمـه، مـن كانـت تدعـوه دومًـا برجـل البيـت، فقـدت ثقتهـا فيـه بالتأكيـد.

أيـام معـدودة وسـيمضي للخدمـة العسـكرية، عندمـا يذهـب للقاهـرة هـل يذهـب لحامـد ابـن أم عبـاس كمـا أشـارت عليـه، لـن يفعـل ذلـك مطلقًـا ولـن يحـاول أن يـرى تلـك المـرأة أو أي إنسـان قريـبٍ منهـا، هـل هـي السـبب فيما حـدث؟ يلقي بتبعـات الحوادث السـابقة عليهـا، أليسـت هـي الـتي دعتـه، هـي الـتي تنازلـت وسـلمت جسـدها لـه، هـي الـتي كانـت تعلمـه الكيـف والفعـل؟ إنهـا هـي أسـاس البـلاء، أمثالهـا يسـتحقون القتـل علنًـا لا يكفـي رَجْمُهُـنَّ، لـن يذهـب إلى ولدهـا، سـيرد عليهـا مـا وهبتـه مـن نقـود، إنهـا ظنـت أنهـا اشـترته بنقودهـا النجسـة، إنهـا امـرأة نجسـة، نعـم قريبـة لأمـي ولكـن شـتان مـا بـين أمـي وبينهـا.

هل تقبل أمي أن تفعل فعلتها؟

مسـتحيل وألـف مسـتحيل، فيصـف أمـه بأنهـا أشرف سـيدات الأرض.

تأتيـه كلمـات واحـد مـن شـباب الثائريـن في إحـدى سـهراتهم

المعتــادة.

- الدنيا امرأة شبقة.

سأله مزيدًا من التوضيح.

عرفــه معــنى المــرأة الشــبقة والــتي تعصــف غريزتهــا بعقلهــا وتستســلم لنزواتهــا.

هذا الكلام ينطبق على أم عباس بالحرف.

بعـد أن ينفـث الثائـر المثقـف دخـان سـيجارته المتوهجـة كثيفـة الدخـان عبقـة الرائحـة، يرجـع برأسـه للخلـف قائـلًا وهـو يبتسـم:

في زمـن مـاض، كانـت هنـاك امـرأة لا أدرك أسـمها، كانـت تمـارس الدعـارة حـتى جـف جسـدها ونحـل عودهـا ولـم يعـد يقبـل عليهـا أحـد مـن النـاس، فعملـت كقـوادة حـتى عجـزت نهائيًّـا، فلـم تجـد أمامهـا سـوى أن تـربي تيسًـا وأفرطـت في تغذيتـه وتسـمينه، جعلتـه يقـوم بتعشـير ماعـز مـن يريـد بـلا مقابـل، فكانت تسـتمتع وتسـتريح نفسـها وهـي تـرى وتسـمع أصـوات الجمـاع.

ضحك أغلبهم:

وتحدث آخر قائلًا:

- التصق القرط بالخلخال.

راح في الضحك ولكنهم أرادوا منه الإفصاح فبعد تردد.

راح يصـف لهـم أحـد أوضـاع الجنـس المعتـادة والمألوفـة لـدى الرجـال، فقـد رفـع صاحبنـا سـاقيها بقـوة فقالـت لـه: ترفـق قليـلًا لقـد أوجعتـني والتصـق قرطـي بخلخـالي.

تباروا ليلتها بالوصف.

وكأنه يسأل نفسه هل جربت هذا الوضع مع أم عباس؟!

***

كانـت أم عبـاس دائمًـا تجـود يدهـا عليـه فليـس جديـدًا أن تهبـه، يحـاول أن يحتـال عـن الأحـداث بأسـباب تـرضي أفـكاره المتأرجحـة بـين الصـواب والخطـأ، ولكـن مـا يضنيـه الآن، كيـف يقابـل أمـه؟

بعـد صلاة العـصر في مسـجد المدينـة المعتـاد ذهابـه إليـه، لـم يـؤد الصـلاة فهـو جنـب ويعلـم ذلـك، لـم يجـد مكانًـا يذهـب إليـه، جلـس سـابحًا فيمـا حـدث لـه، سـمع صـوت الشـيخ الغريـب وهـو يقـول: {فَخَلَـفَ مِـن بَعْدِهِـمْ خَلْـفٌ أَضَاعُـوا الصَّـلَاةَ واتَّبَعُـوا الشَّـهَوَاتِ}. صـدق الله العظيـم

هـل يقصـده الشـيخ بتلـك الآيـة؟ عينـا الشـيخ تقتحمانـه رغـم بعـد موقـع جلوسـه عـن مجلـس الشـيخ، يشـعر وكأن عينيـه تعريانـه وتظهرانـه في فعلـه الشـائن الدنـس، داخلـه شـبه يقـين بـأن الشـيخ لا يتفـوه إلا بحسـاب لقـد جربـه أكـثر مـن مـرة قبـل ذلـك، هـذا الرجـل حبـل وصالـه مـع الله قائـم ومتـين، هـذا الرجـل مرفـوع عنـه الحجـاب، ينظـر في الوجـه فيـدرك مـا يشـغل الـرأس ومـا تنـوء بـه الدمـاغ مـن شـهوات، الشـيخ الغريـب لا يعـرف اسـمه ولا بلـده ولا عنوانـه، يؤكـد لنفسـه أن الشـيخ ولي مـن أوليـاء الله الصالحـين، يطالـب الشـيخ في ثنايـا كلماتـه بالطهـر فـإن الله يحـب المتطهريـن، ينتفـض مـن مجلسـه ويـسرع بالخـروج، فالشـيخ يعـرف أنـه جنـب وأنـه غـير طاهـر.

هـذا الشيخ –يومًـا- وصـف صمتـه بأنـه دليـل كرامـة، وتلـك صفـة

لأولياء الله الصالحين، هو يتذكر ذلك جيدًا، اليوم انفرجت عقدة لسانه فهو يتكلم بطلاقة، هذا الرجل يدرك حقائق فوق قدرة البشر، يوم خاض في نجاسته ضاعت عنه معالم الصمت التي كانت تغمره وكان يضيق بها.

عليه أن يعود أدراجه إلى المنزل، الساعة قاربت العاشرة مساءً، سيتسلل إلى داخل المنزل وإلى حجرته مباشرة لينام وإن الغد قادم لا محالة، لم يتبق سوى أيام قلائل تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة ويسافر للخدمة العسكرية، عليه أن يعيد لأم عباس هبتها المالية، وهذا أهم شيء يفكر فيه حاليًا، أما الثانية فعليه أن ينسَ تماما عند سفره للقاهرة أن يتوجه إلى مسكن ولدها حامد، عليه أن يتجنب أمه في تلك الأيام القليلة القادمة.

انفرج الباب قليلًا إثر دفعة بيده، وجدهم جميعًا جلوسًا، أمه وأم عباس وأختيه اللتين أسرعتا إليه فلم ترياه طوال اليوم، كان يظنهم جميعًا نائمون، نسي أن اليوم هو يوم الخميس وليلة الجمعة، معتادة الأم في هذا اليوم أن تترك للبنتين فرصة للترويح عن أنفسهما بمشاهدة التلفزيون والسهر أمامه ورؤية ما يحبون، كانت أحيانًا تتركهم وتنام، الليلة الجميع مجتمعون.

ابتسامة فوق وجه الأم تقابلها ابتسامة تشع من وجه أم عباس، تزداد دهشته ويحاول أن يتماسك ليفهم ما يدور في جنبات بيتهم، هل صفحت أمه عن قريبتها وتصالحَا، تسأله إحدى الفتاتين:

- لماذا تأخرت؟

لا يدري كيف يجيبها فتواصل الثانية.

- كنا سنتعشى بدونك لو تأخرت لربع ساعة أخرى.

تطالبهما الأم بتجهيز طبلية العشاء، تخبره الأم ويبدو على وجهها مرح غريب بأن أم عباس تبرعت اليوم بذكر من البط ليكون وليمة للعشاء، أمه تتحدث ووجه أم عباس يفيض بابتسامة.

الفتاتان تصفان ما أهدته لهما أم عباس، تسرعان وتحضران هدية المرأة لهما، يبارك لهما ويشكر أم عباس ويصفها ويدعوها بخالتي، دهشة بالغة وعليه أن يفسر مجموع المتغيرات الحادثة، يستأذنهم ويدخل حجرته، أمام مطلب أختيه يعود، نعم يكاد الجوع يقتله لكن نسي الأكل، يتناولون طعامهم بسعادة بالغة ويشكرون أم عباس التي تطلق وعودًا بأشياء أخرى جديدة في الأيام القادمة على أن يدعوا لها.

يدعون لها بطول العمر.

هناك اتفاق بين أمه وأم عباس، ماهو؟ هل يعيد ما وهبته من نقود؟ هل تقدم ثمنًا لما فعلته؟ هل تقبل أمه العوض؟ هل تستفيد أمه من وراء ذلك؟ ماذا يدور في عقل أمه؟ تتابع أسئلة تدق كناقوس في رأسه، لا يجد إجابة شافية كافية لتلك الأفعال والمتغيرات، أمه لا تتنازل بسهولة، أم عباس تتبرع اليوم بذكر من البط للعشاء وتهب أختيه هديتين!!!

الأم وهي تلتهم الطعام تنظر إلى أم عباس في مرح وتقول:

- خير الخطائين التوابون.

الفصل الثاني

-١-

رغم صفعات الهواء الباردة التي تتسرب من النافذة المكسورة في عربة القطار، لا تسري برودة في جسده بل بهجة غريبة، عيناه لا تترك شيئًا في مجال رؤيتهما أو محيط قدرتهما إلا وتتبعه، كل ما يمرق أمام عينيه يحظى باهتمام بالغ وإعجاب، يحدق في وَلَهٍ وعشق لكل المرئيات، يتمنى أن يسابق بعينيه سرعة القطار ليستجلي المناظر الجديدة عليه، سيلتحق بالخدمة العسكرية، مطلوب للتجنيد، أملٌ يراود خياله للخروج من بوتقة الوحدة والسكون والسجن المحكوم عليه أن يعيش فيه، سجن في إطار العائلة والبلدة المحدودة الأطراف، يعبر ويقفز بخيالاته فوق تلك الأسوار، القطار يرتج بقوة وتندفع الأماني للخروج من السجن الذي كان أسيره منذ صباه، تتوالد أمانٍ وأفكارٌ وتتوافد رؤى للحرية.

تطارده ذكرى أم عباس، تتواثب أفكار وتخفت حدتها مع رجفة جسده تبعًا للحركة القائمة في القطار، تهيج أعضاء ولكن تتراخى بسرعة، يعود يلتمس من الضوضاء فرارًا من تلك الهواجس والذكريات، صور تتراءى وها هي ماثلة أمام عينيه، بشر تعددت أفعالهم من صاعدين وهابطين وبائعين لكل أنواع المأكولات والمشروبات لكل وقفة جديدة، يتحدث والحديث يردده في سريرته:

تَحَـرَّرْ مـن مخاوفـك، عليـك أن تحـرق كل القوانـين الـتي ظللـت أسـيرها، إنهـا قوانـين أرضيـة صاغوهـا لاسـتمرارية العبوديـة.

يقول شيخنا:

- وإن منكم إلا واردها.

حقًّـا وصدقًـا فـكل البـشر سـيردون عـلى النـار ولكـن أهـل بلدنـا بالـذات وكمـا قـال لـه البرنـس:

- سينامون داخل النار؛ أنا والشيخ «لا مؤاخذة» وأبودماغ.

يعود لدنياه متأملًا

يختلـف الـركاب تـارة مـع البائعـين وأخـرى مـع بعضهـم، مشـاجرات تنشـب، تنتهـي ولا يلبـث أن تخـترق أذنيـه أغـاني يرددهـا شـباب يمرحـون، شـحاذون مـن مختلـف الأعمـار وكل منهـم يحـاول أن يبـدو بعاهتـه الكاذبـة أو الحقيقيـة المهـم أن يتكسـب مـن ورائها، يحسـد الجنـود بملابسـهم العسـكرية.

كم تمنى أن يكسر حاجز السجن.

هـا هـي الفرصـة مواتيـة، لـم تصبـه الدهشـة كثـيرًا ممـا يـرى، في عينيـه تنـام أمـانٍ عاشـقة للحيـاة، داخلـه ترحـاب بالأشـياء الجديـدة الـتي يراهـا أو سـيراها لأول مـرة في حياتـه، يتذكـر أقرانه وهـم أغلبهم في الجامعــات المختلفــة، لا يحســدهم ولكــن يحبهــم ويجلهــم، يفسـحون لـه مجلسًـا بينهـم سـاعة أن يُقبـل عليهـم، رغـم كلماتـه الـتي كانـت قليلـة يسـمع ويسـتمتع بأحاديثهـم المتنوعـة المختلفـة، رأسـه تسـتوعب وتحفـظ الكثـير مـن أقوالهـم وحكاياتهـم.

يتذكر الثائر حفيد الشيخ وحكاية ثورة الكلاب الساخرة.

عندما يضحك ضحكته المميزة ويسأل:

- كيف يكون نضال الكلاب؟ ويكمل....

بصورة أخرى

هل من حق الكلاب أن تثور؟ يتركونه ليواصل.

أظن من حقها أن تعويَ أن تهوهو.

عليها أن تسهر طوال الليل تُراقب.

يصمتون وهو يشعل سيجارته ومن بين ضبابها يقص:

عندما اجتمعت الكلاب تحت الجميزة العجوز تستجير من شمس الصيف، ألسنتها خارجة من أفواهها من شدة القيظ، تلهث وهي في الظل، الكلاب أتت بعد أن رفعت طلبًا لأصحابها بساعة راحة تحت الجميزة، رغم ألسنتها ولهاثها إلا أن كلًّا منها راح يقص ويحصي ويعدد مآسيه.

كانت كلها تصنف تحت بند واحد، اجتمعوا على أن حقوقهم ضائعة، ساعات حراستهم تطول وقد تستمر الليل والنهار، معاناتهم سواء في شمس الصيف الحارقة أو ليالي الشتاء القارصة البرودة، أصحابها لا يراعون ذلك، كلاب المدينة مدللة تنام في أَسِرَّةٍ ولها طعام وشراب خاص ولها طوق ذهبي في الرقبة، يخرجونها للتنزه ولها دور فعال في حياة أصحابها، يكفي دلالها وحب السيدات والفتيات لها.

تقر الكلاب تحت الجميزة أنهم لم يروا شيئًا من ذلك على الطبيعة، لكن شاشة التلفزيون تعكس تلك الأفعال، هم ليسوا حاقدين ولكنهم يبحثون عن الحد الأدنى المطلوب لهم في الحياة.

ساعات عمل الكلاب تمتد وتطول في البيوت والمزارع والمراعي،

أصحابها يرمونهم ويلقون إليهم بفضلات الطعام والعظام، يحرسون المعز والغنم والأبقار، تسمن وتكبر ويبيعونها، يكسبون ويوم يذبحونها ليس لهم نصيب في لحومها، يشعرون بأنهم الأولى.

اتفقوا أن يلجئوا إلى منظمة حقوق الإنسان، لكنهم بشر وسيؤيدون أشباههم ويقفون في صفهم، عليهم أن يختاروا. بعد فكر عميق..

قرروا إما الهروب وإما الهجرة.

إلى أين؟

ليس أمامهم مستقبل؛ فالهجرة تعني الموت في الصحراء أو الغرق في البحر.

فكروا في التخلص من عبودية الإنسان، عليهم أن يظهروا أنيابهم للبشر، عليهم أن يكونوا أكثر جرأة مما اعتادوا؛ ليعقر واحد أو اثنان منهم أصحابه، ربما يُلقي ذلك الرعب في قلوب البشر.

الكلاب تنتظر الطعام من أسيادها.

ماذا لو ألقوا إليهم بأطعمة مسمومة ولاقوا حتفهم وماتوا؟

اقروا واعترفوا بأن الفرصة غير مواتية وعليهم أن ينتظروا.

الكلب الذي وقعت أنيابه المستسلم دائمًا القابع تحت قدمي صاحبه قال لهم:

كل مسخر لما خلق له.

ثار عليه جرو صغير قائلًا:

أنت دائمًا تعشق المذلة والمسكنة.

رد الكلب العجوز:

كلب على قيد الحياة أفضل من أسد ميت.

فضوا اجتماعهم وانتظروا أن نساعدهم في شكواهم.

يتفنن حفيد الشيخ في حكايته، يقبلون على الحديث ويمزحون ويستسلمون ويقرون أنهم أسوأ حالًا من الكلاب، إنهم طلاب في الجامعة وحظوا كثيرًا من العلم، ينظر إليهم مصري ويرضى بما قسمه الله له.

يتردد سؤال بداخله:

هل طينة البشر واحدة؟

أحاديثهم تحفز عقل مصري فيذوب فيها.

على الضعفاء الاستسلام، ابتساماتهم لؤم وإذعان للسادة، الحذر والخوف أساس الحياة، يشعر أن الطينة وفقًا لرؤى أصحابه مختلفة، فالبعض طينتهم من بقايا السابقين أو إنها رماد منهم، عليهم الرضوخ، يرى أن العيون أغلبها من حوله ذابلة تحدق في الغد المجهول في بَلَهٍ هو أقرب للجنون.

يمشي كثيرًا على غير هدى وهو يفكر في كلمات حفيد الشيخ الثائرة، مصري يستمع للحوار القائم بين الثائرين القابعين في بلدهم، ما زال يدور في فلك أفكارهم وحكاياتهم، الغريب أن أحاديثهم تستهويه رغم أن بها خروجًا عن الدين إنهم يرددون أشياءَ غريبةً، يقولون:

إن جهنم والنار مجرد كلمات يطلقها الكبار؛ ليلقوا الرعب في قلوب الأطفال والجهلة، متاهات في الفتاوى، قصور فكرِهِ لا

يستوعب ما تحمله الكلمات من معانٍ، هل يسألهم؟ لكنهم أشاروا أنه لا يتخوف من النار إلا طفلٌ أَو جاهلٌ، يبتعد ولا يسأل حتى لا يصنفونه، ما زالت الأفكار الدينية والمشاعر الخاصة به تنام في صدره، يراهم جميعًا رغم كل ما يرددونه موجودين في صلاة الجمعة بالذات، كبار وصغار يخرجون من مناسك الصلاة ومنهم تسمع أذنيه غيبة ونميمة في الآخرين، يقابلون بعضهم بابتسامات غريبة لا تعكس الحقيقة، يتسامرون بأكاذيبٍ ونهش أعراضٍ وزيفٍ وخداعٍ، ليس هناك عطاء لوجه الله، يستغفر الله؛ فهو يعلم أن هناك القليل يسعى في فعل الخير، نعم هم عدد قليل لا يبتغون شكرًا، فالشيخ عبدالمحسن مثال واضح لتلك الأفعال، رجل لا يعرف الجدل والتظاهر، يقول الشيخ عبدالمحسن:

لا تعتكف في المسجد فإن سعيت في قضاء حاجة لإنسان فهذا هو الأفضل.

يضحك وهو يفسر كلمات الرجل بجنون:

أأنا عاصي؟ إنني قضيت حاجة ملحة لأم عباس ولي، أنا لا أستطيع الزواج وهي عجوز في حاجة ماسة لمن يرفع عنها ألمًا تعانيه ووحدة تقتلها، هل أجازى لهذا الفعل؟ إن الله خلق داخلنا تلك الأشياء.

يفيق من تأملاته الساذجة ويستغفر ربه.

يتذكر أمه، كانت عيناها تقول:

لا تقدم خدماتك إلا لمن يستحق، لا تقولها مباشرة، تعرف أنه لا يكل من فعل أو عمل فيه مساعدة لجار أو قريب، لا

تلفظ شفاه أمه بكلمة، يظهر البؤس النائم بين مقلتي عينيها، مقلة في أحاديثها تحاول أن تجابه متطلبات الحياة وتتحايل عليها بأمناياتها البسيطة المتاحة لها، فترقِّع بمهارة فائقة الثياب التي بليت، تحتفظ بثبات غريب وعزيمة لا تلين، تهتم ببيتها وبنتيها؛ فهي حريصة أن يستكملا ويستمرًّا في دراستيهما، تلبي طلباتهما بلا ضجر، لا تنجرف لأحاديث النميمة المعتادة من النساء، فيصيب لسانها الخرس عندما تتبادل النسوة حولها الحديث عن الآخرين، تتذكر وتذكر مصري وأخاه كيف كان زوجها خادمًا لأخوته وأهله، ضحكته لا تغادر ثغره، في ساعات الصفو تتحاكى بأشياء جميلة عن زوجها الذي رحل عن الدنيا مبكرًا ليترك لها حملًا ثقيلًا، في قلبها تنام غصة ألم من أهل زوجها؛ فما تراه من معاملاتهم لأولادها لا يعكس ما كان يقوم به زوجها معهم، وكأن أولادها من طينة أخرى أو لا يمتون إليهم بصلة القربى، نعم يتذكرونهم في الأفراح وعند توزيع لحوم الأضحية فحسب، كم تتمنى أن ترد هديتهم ولكنها حريصة على صلة الرحم، وألَّا تقطع علاقات أولادها بأهلهم وذويهم.

تهفو عيناه للنعاس فيعود ويدعكهما ويودع الذكريات والأحاديث التي تتردد داخله، يتمنى ألَّا تضيع الرؤية من عينيه، يتابع في حب كل المرئيات التي تسرع للخلف، عيناه تسجل كل كبيرة وصغيرة حوله.

-٢-

الطريق إلى مسكن حامد

يمرق مصري في الشوارع المكتظة بالبشر وعلى جانبيها تتنوع الدكاكين بمختلف أنواعها، فاكهة وخضروات، أحدث خطوط الموضة من ملابس معروضة لمختلف الأعمار والأذواق، تتباين ملابس البشر من حوله، ضوضاء وصخب وبشر وحياة متنوعة يحس أنه أحد عناصر تلك الحياة، يدفعه أحدهم أو إحداهن، يرسم ابتسامة ويواصل، سعادة تنام داخله، طمأنينة غريبة ولا يشعر بغربة وإنما ألفة وانسجام بتلك المتغيرات.

رغم الضجيج يقبل على دنياه الجديدة، يشق صفوف الناس ممتطيًا صهوة أفكار الحرية التي يموج بها فؤاده، الحرية التي يهيم بها أن تُغير حياته، أن يتذوق طعم فاكهة جديدة وغريبة عليه، يتمنى أن يصرخ ويعلن لكل المارين من حوله أنه وضع قدميه على بداية الطريق، كان له جناحان يسبح بهما في ملكوت الله، يتنسم عبق رائحة غريبة تنعش نفسه، يطير ويطير ويغرد بلا صوت.

يستأنف سيره، فكل ما يراه ساحرًا متألقًا مبهرًا، دومًا يردد أن الكسل يدفع للملل والتذمر من الدنيا كلها، خارج من سجن أبوابه مفتوحة لكن أسواره شبكات عنكبوتية لزجة من عادات وتقاليد وصراعات، لا يشعر بجو خانق من عوادم السيارات،

الضوضاء في أذنيه سيمفونية تعزف، يمضي بلا حذر، يتأمل البنايات والمآذن الشاهقة، لم يشعر بالوقت الذي قضاه متجولًا حتى وصل لعنوان حامد، كم كان يتمنى أن لا يكون حامد وجهته، لكن لا مفر، حتى أمه كانت ملامح الرضا بادية على وجهها بعدما ضبطتهما، عليه أن يغلق هذا الموضوع ويستبعده من رأسه ويحاول نسيانه.

على السطوح في شارع متفرع من شارع الفجالة الرئيسي حجرات متفرقة، دلته فتاة صغيرة على حجرة حامد، طرقات وانفرج الباب، استقبله حامد بلقاء حار، بلهجة قاهرية تخلى عنها بسرعة وعاد للهجته القروية القديمة، يفيض بحيوية وسعادة بدت في إشراقة وجهه واستقباله.

- حمدًا لله على سلامتك.

يتفحصه ويربت بيده على منكبه ويردد:

- نورت مصر يا مصري.

- منورة بأهلها وناسها وبوجودك.

أثار انتباه حامد أن المصري يتكلم بتلقائية وبلا تلعثم باد في كلماته كما كان معتادًا من قبل، هم أن يسأله ولكن حجب سؤاله وقال:

- كيف أم عباس؟

- زي الفل.

يعود ويربت على كتفه ويشكره قائلًا:

- كلك رجولة وأخوة يا مصري، من يومك أصيل وابن أصول.

- احنا اخوات.

- أمي قالت لي: إنك قمت بالواجب وزيادة.

- دا الواجب.

- يترد لك في الأفراح يارب.

حـوارات الشـكر والعرفـان بالجميـل تدمـي أذنيـه ومضطـر أن يرسـم ابتسـامة، يتمـنى أن يعـرج بحديثـه لناحيـة أخـرى، حامـد مصمـم أن يسـوق ويدمـج عبـارات المجاملـة بكلمـات الترحيـب، فيشـيد برجولتـه ومروءتـه، كلمـات الإشـادة المتتاليـة يرتجـف لهـا قلبـه فيخفـق خفقـات تـسرع نبضاتهـا، يخـاف أن تبـدو معالمهـا فـوق وجهـه فتثـير تسـاؤلات مضيفـة، يـزدرد ريقـه ويشـيد بالسـت أم عبـاس بكلمـات مقتضبـة ويكنيهـا بخالتـه، يسـتدرج حامـد ناحيـة أخيـه الأكـبر عبـاس وأخبـاره، تنوعـت الأحاديـث ودارت الحكايـات، تنـاولَا عشـاءً قـد أعـده حامـد خصيصًـا.

سـلمه مفتـاح الحجـرة وعرفـه عـلى أم وردة جارتـه وامتـدت يـد المـرأة تصافحـه بـلا تـردد.

- ابن خالتي يا أم وردة.

- يا ميت مرحبا.

- مطلوب للتجنيد.

- بارك الله فيه.

يحذره حامد من أيام الجيش القادمة:

- مؤكد هتكون قوات أمن أو أمن مركزي.

- كله خير.

- الجيش عبودية وتحكم وإذلال ومعاناة.

يضحك ويقول له:

- حاجة صح نعملها في حياتنا.

- الجيش مسخرة .

- الحياة كلها مسخرة والشيخ قال: كل مُسخَّر لما خلق له.

- مشقة ومهانة.

- يعني يستوردوا ناس تدافع عن البلد لو فيه حرب.

- من يومك راجل يا مصري يا أخويا.

يتذكر أحاديث مجموعة الشباب الجامعيين أو كما يحب الشيخ أن يطلق عليهم اليساريين أو الشيوعيين، مشاجراتهم عندما ينضب معين حديثهم ويتحولون للحديث عن الجيش والسلطة العسكرية، آمانيهم أن تكون السلطة في البلد مدنية وألا يتولى القيادة في البلد عسكريٌّ، ينقسمون بين مؤيد ومعارض، يقولون في البلاد المتقدمة والديمقراطية لا يوجد تجنيد إجباري، على الجانب الآخر ينفي ذلك وهو يسجل تاريخ الجيش المصري منذ عهد الدولة الحديثة التي قادها محمد علي باشا، وما زال العمل بها ساريًا، ثم انحرفت عن المسار التجنيد الإجباري وأصبحت قاصرة على غير القادرين على دفع الكفالة أو ما أطلقوا عليه البدلية، يدفعها من يستطيع ولا يذهب للجيش، الجيش مصنع الرجال فيكفي أنه يعلم الأفراد المهارات القتالية والجَلَد والرجولة والنخوة، تنطلق من الطرف الأول سخريات وكلمات تقلل من شأن قادة الجيش، فيتهمونهم بأنهم متعالون بل يضربون المجند أو يشتمونه ويسبونه، يقسم أحدهم بأن ما يدعونه كذب وافتراء على رجال القوات المسلحة التي غالبًا ما

يدفعـون أرواحهـم ثمنًـا، يقسـم بأنـه سـأل وتأكـد بأنـه مسـتحيل أن يُـضربَ مجنـدٌ أو يُسـاءَ إليـه بشـتائم أو بسـبابٍ لـه أو لأسرتـه، إنمـا هـي كلمـات لا تتعـدى يـا بعكـوك يـا نمـرة، ولا توجـد أيـة مهانـة للجنـدي.

غالبًا تنتهي مشاداتهم بالضحك والسؤال:

- لماذا لا تُجند النساء؟

- أين المساواة؟

تنقلب الحوارات لناحية أخرى ويغمر الضحك الوجوه.

يتذكـر كل تلـك الأحاديـث ولكـن ينـام معتقـدًا أن التجنيـد واجـب والدفـاع عـن البلـد رجولـة وشـهامة لأي إنسـان.

***

حـتى قدمـاه تعشـق الحريـة، كـم كان يكـره أن يرتـدي حـذاءً يقبض عـلى أطـراف قدميـه بقـوة، كـم كان يعـاني مـن ضيـق الحـذاء وكـم كان يتمـنى أن يمـشي حافيًـا بحريـة حـتى لـو فـوق صخـور مدببـة، وتظـل قدمـاه مأسـورتين غصبًـا عنـه.

بقـي عـلى التجنيـد يومـان وحامـد يـترك لـه حريـة الاختيـار بـين الجلـوس في المسـكن أو الخـروج، فيخـرج بعـد ذهـاب حامـد لعملـه.

يشـق طريقـه في الشـوارع المزدحمـة، المدينـة الكبـيرة العامـرة بـكل مباهـج الدنيـا، يتأمـل الأشـياء كلهـا مـن مبـانٍ وحوانيـت ومسـاجد وكنائـس لا يفوتـه شيء مـن جمـاد وإنسـان، يستنشـق عبقًـا وأريـجَ عطـرٍ، لا تفلـت مـن بـين عينيـه ملامـح النسـاء والفتيـات ومـا يفضـن بـه مـن اسـتكمال منظومـة الجمـال والحيـاة الـتي يراهـا، تخطـف

إحداهـن عينيـه، يتعقبهـا بنظراتـه ويتأمـل قوامهـا الرشـيق، ومعالـم وجههـا الناعـم المتـورد، يسـأل نفسـه عـن حقيقـة وجههـا: هـل طبيعـيٌّ أم مصبـوغٌ بألـوان؟ تمـضي، يتأمـل أخـرى بثوبهـا الأسـود الطويـل، عبـاءة حريريـة لامعـة تـبرز تضاريـس جسـدها ومنحنياتـه، يخـوض غمـار دنيـا جديـدة بـين أحـدث خطـوط الموضـة وأقدمهـا، أحــدث البنايــات لا تخلــو مــن أثــرٍ قديــمٍ بــاقٍ يتباهــى بجمــال عمارتـه، لا يعـرف الفـروق القائمـة بـين البنايـات، أتلـك فرنسـية أم إيطاليـة أم إسـلامية؟ يعشـق جمـال وتبايـن الأشـكال عمومًـا، رغـم أن الشـارع يمـوج بمختلـف الألـوان والأشـكال، فهـو لا يـرى شـيئًا قبيحًـا، فالنسـاء وإن اختلفـن فكلهـن تطفـح وجوههـن بـبراءة شـهية، الشـعر المسـدل عـلى الكتفـين أو الـرأس الملفـوف بغطـاء، بريـق العيـون يفيـض بجمـال، تلـك تصوراتـه يكفيـه مـا يبـدو، لا تعكـس رؤيتـه مـا ينـام في صـدور الآخريـن.

أين أنا؟ وماذا أكون؟

أنـا فـأر صغـير أنـا مجـرد دميـة، بل أنـا أفضـل أنا أمتلـك روحًـا، أنا إنسـان، أنـت لا شيء مجـرد ذَرَّة مـن رمـل، جمـوع غفـيرة مـن حولـه، كل يغالـب ويعافـر ولا يلقـي للآخريـن بـالًا، حقًّـا أنـا لا شيء، كـم أنـت كبـيرة أيتهـا الدنيـا وكـم أنـا ضئيـل الحجـم والفكـر! ضعيـف لا يملـك حـتى زمـام أمـره، لكـن عـليَّ أن أحياهـا بـكل مـا فيهـا، نعـم ضعيـف وفي ذيـل قائمـة البـشر ولكنـني إنسـان، أحـب البـشر وأتـوق لـكل مـا هـو جميـل، لا أفكـر في إِيـذَاء إنسـان مهمـا اختلفـت معـه، يعاتـب نفسـه عـلى كل مـا يقولـه، فهـو نتـاج لجـبنٍ عَشَّـشَ داخلـه، وكمـا يقولـون في بلـده: «قـصر ديـل يـا أزعـر».

لكنـه لا يستسـلم ويمـضي، فهـو يـدرك جيـدًا أنـه مجـرد أثـر لقـدم

في صحـراء الحيـاة الشاسـعة، قليـل مـن الهـواء وكفيـل بـذرات الرمـل أن تدفـن هـذا الأثـر وتمحـوه ولا يتبقـى منـه شيء.

يمني نفسه أن تعود الحياة لمجاريها فيسأل:

عندمـا تعـود الحيـاة لمجاريهـا، هـل تكـون صالحـة للـشرب مبـاشرة؟

يعنف نفسه قائلًا لها:

مهمـا كان ظمـؤك للعـودة، عليـك بالتريـث والنظر والتمعـن في تلك الميـاه، ربمـا كانـت بداخلهـا عـكارة، انتقِ ويجـب عليـك تصفيتها.

-٣-

تدريبات أولية لا تتوقف، حسم وشدة وأوامر تتسم بالصرامة والانضباط، صوت يلقي بأوامره يرج الفضاء ويشق الأجواء، تعليمات ومحاذير، لكن لا كلمة نابية أو سبابٌ أو لعنٌ بأبٍ أو أمٍّ أو عائلة، يتواصل ويذوب منفذًا كل كلمة تنبس بها شفاه المعلم القائد في تلك اللحظة، زاخرة أمانيه بأحداث قادمة كثيرة، لا يشعر بأدنى ملل أو ضيق.

إحساسه الداخلي مفعم بالسعادة والبهجة، يطيع الأوامر بدقة متناهية وبروح عالية وجراءة منقطعة النظير، شغف بتلك الحياة الجديدة.

طابور الصباح بصيحاته الهادرة يلهب مشاعره:

في المساء يجتمعون، متشوقون لسماع حكايات، كل يجود بأقاصيصه وحكاياته، الغرام الكاذب والعواطف الرخيصة تتصدر مشهد الروايات، كل يغوص وينسج كلماته الزاخرة بفيض ثورة الشباب والصبا،أما التلفاز المعشوق لأكثرهم فيتابعون من خلاله المسلسلات والأفلام، ويستمتعون أكثر ببرامج العري والحوارات شبه الكاذبة السابح ضيوفُها في النفاق والكذب، يسمع ويرى من خلال الشاشة حكايات غريبة لا يستوعبها غالبًا، يمتص ريقه ولا يُعَلِّقُ خوفًا أن يظهر جهله فيكفيه مشاهدة مُقدِّمات البرامج الجميلات المختارات وفق مقاييس خاصة جدًّا، لا يخوض في

حديث لا يعرفه، يخاف الخجل فيحاول مدراة حياته بأكثر من طريقة وأهمها عدم الخوض فيما لا يعرفه أو هكذا يدعي.

لا يشعر بأي وحشة، داخله يموج بسعادة بتلك الحياة الجديدة ولكنه لا يصرح بما يداخله فكثير ممن حوله متذمرون، لا يجد في الأوامر والكلمات الحاسمة شيئًا غريبًا، مؤمن بما يحدث، يحاولون قطع حبل الوصل بين حياته الميدانية وحياة الجَلَد والمشقة في الجيش، لا يشكو ولا يحب من تسيطر عليه معالم الضيق والتذمر من تلك التدريبات والحياة الجديدة، عالم جديد يلجه، استجابة داخله لكل المتغيرات من حوله، الوطن، الشرف، الكرامة، كلمات تبعث داخله دفئًا وطعمًا لذيذًا للحياة، مذاق الطعام لم يتغير، لكنه أصبح وفقًا لمواعيد محددة وهناك إمكانية الشراء من مطعم أو كافتريا الكتيبة، رغم أن كثيرين يقولون: إن الطعام ليس طيبًا والخبز مضغه صعب وكل شيء فقد طعمه وميزته ونكهته.

يضحك الأقدم تجنيدًا قائلًا:

- يجب أن يكون هناك فرق بين حياة المدنية والجندية.

نقاش يمتد فيصول الأقدم ويضرب أمثلة كثيرة تعكس خبراته التي اكتسبها من سنوات سابقة يستطرد:

- في الحرب لا يفكر الجندي في الطعام فهناك ما هو أهم.

يشعر أن النجاح حليفه في مسيرته الجديدة، يتدفق الحماس كالرحيق فينشيه ويُسْكِر قلبه من طيب الرائحة، يغمض عينيه ويتنسم بعمق وبملء رئتيه، يدخل ساحة التدريب ورغم اليوم الطويل والمرهق من التدريبات الشاقة لكن لا أثر لضيق أو ألم،

يستسـلم لحلـم عابـر جميـل تمنـاه وهـا هـو عـلى أرض الواقـع يعيشـه.

تمـضي الأيـام ولكـن ليسـت عـلى وتـيرة واحـدة، كل يـوم هنـاك الجديـد المحفـز والمسـتنفر لطاقاتـه وأمانيـه، يشـيدون بـه في كل موقـع، في سـاحة التدريبـات الرياضيـة والبدنيـة، في ميـدان الرمايـة وإطـلاق النـيران يحـرز مركـزًا متقدمًـا كل يـوم يزيـد عـن سـابقه، تصويباتـه الرائعـة جعلتـه محـط العيـون ووُضِـعَ في حسـابات قادتـه، وصُنِّـفَ بقدراتـه الرائعـة في المراكـز الأولى، لـم ينـسَ عشـقَه للعـب كـرة القـدم، فشـارك في المباريـات الـتي أقيمـت كحـارس مرمـي وتألـق.

رجـع لعـادة قـد ألفهـا لفـترة، يـوم كانـت عينـا رأسـه تـرى جمـال سـاعة الفجـر، يـوم كان يشـارك المـؤذن، فيشـدو وتـرى عـينُ قلبـه بحـرًا زاخـرًا لا مثيـل لـه، يفـرك يديـه ويدعـك عينيـه ويثـب مـن فراشـه، سـعادة طفوليـة بريئـة، يـوم قـص عـلى الشـيخ المجـذوب المسـافر دومًـا رؤيـاه وتعـثر ألفاظـه، مسـح عـلى رأسـه وبـشره ببشرى وطالبـه ألَّا يقـص رؤيـاه عـلى أحـد، نـسي تلـك الأشـياء واتبـع نصائـح شـباب الجامعـة إياهـم فقالـوا لـه: لتنـس خزعبـلات المجاذيـب.

شيء غريـب يسـيطر عليـه هـذه الأيـام، ينهـض مـع صـلاة الفجـر فيقيـم الصـلاة.

غـدًا معـروفٌ للغالبيـة، حريـص كعادتـه ألَّا يتدخـل فيمـا لا يعنيه، كان إلى حـد مـا يعـول هـمَّ أمـه وأخواتـه ولكـن بعـودة أخيـه الأكـبر للبلـد اسـتراح وهـدأ وأصبـح أكـثر بـشرًا ورضًى، لا يهتـم بطعـام أو شراب، أشرق وجهـه وأضحـى جسـده مفعمًـا بحيويـة ودب النشـاط أكـثر، مظاهـر جديـدة وآفـاق لـم يعتدهـا فيقبـل وينهـل، يسـتهين

بـكل المشـاكل والصعـاب الـتي يتحـدث عنهـا الأخـرون، ولكـن هـذا لا يمنـع مـن مشـاركتهم بكلمـات تُعزيهـم وتشـجعهم ويطالبهـم دومًـا بشـكر الله عـلى مـا ينعمـون بـه.

تمـضي الأيـام، في إجازتـه يذهـب إلى حجـرة حامـد، يسـحبه حامـد معـه لمقـر عملـه الطائـر كمـا يسـميه، عملـه ليـس دائمًـا فـكل فـترة يتغـير تبعًـا للظـروف والمتغـيرات، في المدينـة الجديـدة الزاخـرة بـكل مـا هـو حديـث، لا أثـر لمنـازل قديمـة كلهـا عـلى أحـدث أشـكال العمـارة، في الحانـوت الضخـم أو مـا يطلقـون عليـه مـولًا تجاريًّـا كل احتياجـات البيـت كمـا يقولـون: سـلالم كهربائيـة متحركـة، قهـاوي ولكـن حديثـة الشـكل والمضمـون، رواد كثـيرون مـن شـباب وفتيـات، زاخـرة بمناظـر جديـدة عليـه، عليـه أن يطيـع أوامـر حامـد، يطالبـه بـألا يعـير مـا يـراه انتباهـا، يطالبـه أن لا تجـرح عينـاه كـبراء القـوم، الفتيـات شـأنهن شـأن الأولاد، ضبـاب النرجيلـة وضحكاتهـن العاليـة وكلماتهـن الـتي تـدور وتنطلـق لا تعـير أي إنسـان اهتمـام، ضحـكات ولقـاءات تتسـم بالحميميـة والحـب، كل منهـن يطبـع قبلتهـا عـلى صدغـي حبيبهـا أو زميلهـا عـلى المـلأ، ملابـس تكشـف أكـثر ممـا تغطـي، يبتلـع لعابـه ويحيـد بعينيـه بعيـدًا ولا مانـع مـن اختـلاس نظـرات متلصصـة فيهـا متعـة، يتذكـر ويسـتغفر الله العظيـم، تثـور نزاعـات شـبابية داخلـه، لا يشـعر بدونيتـه أمـام مـا يحـدث أمامـه، ربمـا يتسـاءل أحيانًـا عـن وضـع أسرهـم ومـن يعولهـم، لا موضـعَ لقـدمٍ فسـياراتُ أحـدث الموديـلات العالميـة تمـلأ المـكان، يحدثـه حامـد عـن أثمانهـا فتصيبـه الدهشـة، نعـم كان يـرى كل تلـك الأشـياء عـلى شاشـة التلفـاز ولكنـه وأمثالـه هنـاك في بلدهـم القابـع في الجنـوب، كانـوا يقولـون: أفـلام ومسلسـلات وأكاذيـب لمجـرد

جـذب المشـاهدين، هـا هـو يراهـا مجسـدة وحقيقيـة أمـام عينيـه، إنهـا حقيقـة فليسـت أفلامًـا ولا مسلسـلاتٍ كاذبـةً، إن مـا يحـدث في الحقيقـة ومـا تـراه عينـاه تسـتحي المسلسـلات أن تنقلـه.

دفـع العربـة الصغـيرة المكدسـة بالمشـتريات أمامـه حـتي سـيارة السـيدة، راح يرتبهـا داخـل بـاب حقيبـة السـيارة الخلفيـة، ليـس هنـاك تعـب يذكـر فعجـلات العربـة تنزلـق بسـهولة ويـسر، وقـت لا يتجـاوز عـشر دقائـق، شـكرته السـيدة الـتي يـشرق وجههـا بعلامـات الـثراء، امتـدت يدهـا إليـه بنقـود، حـاول أن يعتـذر وفشـل في إخـراج كلماتـه، يشـعر بأنـه مجـرد إنسـان قـدَّم مسـاعدة لهـا، دفعـت النقـود في يـده الـتي امتـدت غصبًـا ونظـرًا ليـد السـيدة الممـدوة إليه، مضـت بسـيارتها ولـم تصنـع مجـرد ابتسـامة شـكر فـوق وجههـا.

في ركـن قـصي بالمركـز التجـاري دخـل إلى دورة الميـاه الرائعـة التقاسـيم والألـوان، فتـح يـده وأحـصى مـا داخـل يـده، إنـه مبلـغ يتجـاوز العشريـن جنيهًـا.

عـاد لوقفتـه وراح يدفـع عربـات العمـلاء حـتى سـيارتهم، كلٌّ يجـود بمـا يبغـي، يتقبـل ويحـني هامتـه، غالبيـة الزبائـن مـن السـيدات والشـباب، مـر عليـه حامـد في تمـام السـاعة الثانيـة عـشرة في منتصف الليـل، حامـد يقـود سـيارة حديثـة، عائـدان لحجـرة حامـد، يـود أن يقـص عـلى حامـد، قطـع حامـد الصمـت:

- إنها إحدى سيارات الحج.

مصري لا يسمع شيئًا ولكنه تائه مفكر.

- تعرف يا حامد أنا كسبت كام النهارده؟

ينظر إليه ويبتسم:

- ما تحسدش نفسك ما تقولش.

- ليه؟

- خير ربنا ساقه.

- الحمد لله وأما بنعمة ربك فحدث.

- أنت حر وما يحسد المال إلا أصحابه.

- أنا دخل جيبي زياده عن مئتين جنيه.

قالها وهو يزهو بما اكتسبه فيرد حامد ببرود:

- أنا سمسرت من ورا بيع عربية ثلاثة آلاف جنيه.

عرج حامد على مطعم للمشويات مكتظ بالبشر، ألقى للفتى الذي يعرفه ويناديه بسعادة البيه، يكتم ضحكاته، بنظرات ساخرة ينظر حامد إليه ويقول:

- ما دام هديه بقشيش يبقى أنا بيه.

يغني بعده بصوت منخفض ومبتسمًا:

أنا بيه ... أنا بيه ...

- ما دام أنت بيه تسكن السطوح .

- أنا استلمت شقة من المحافظة في المقطم.

- هتنقل فيها.

- أنت ساذج قادم من....

ضحكا وهما يزدردا الطعام في نهم ونشوة.

- استلمتها من سنتين بصورة مزورة من عقد زواج، دهنتها وفرشتها وبقت عشرة على عشرة وأجرتها مفروشة.

همَّ بأن يسأله، ولكن حامد استطرد:

حجزت شقة مساكن الشباب ودفعت مقدم لها.

يهـم أن يسـأل لمـاذا؟ ربمـا يتهمـه بالحسـد، يبتلـع كلماتـه مـع الطعـام.

أنـا بابعـت لخالتـك أم عبـاس كل شـهر مصاريـف لهـا تزيـد عـن ألـف جنيـه، وحاطـط رصيـد لبـنى البيـت مـن جديـد خمسـين ألـف جنيـه، عبـاس كـتر خـيره عنـده تـلات أولاد وبيوديهـم مـدارس خاصـة، أنـا لازم أعيـش زي النـاس الـلي حوليـا.

تدور في رأسه أحاديث:

أم عبـاس آخـر مـرة وهبتـه مـا يقـارب مـن نصـف ألـف مـن الجنيهـات، اشـترت لأخوتـه هدايـا وكان طعامهـم يومئـذ بـطٌّ وحمـام، أم عبـاس كانـت تعطيـه كل يـوم في الهـدم مـا يـوازي أجـرة عامـل لثلاثـة أيـام، أم عبـاس اشـترت ود أمـي وكسـرت عينهـا بأشـياء كثـيرة، بمعـنى أصـح كـسرت عـين كل العيلـة بفلوسـها، الله يلعـن أم عبـاس.

صاح حامد فيه:

- رحت فيت؟

- لخالـتي أم عبـاس .... راح يضحـك فسـعل فامتـدت لـه يـد حامـد بالمـاء.

رشف الماء وذهب في الضحك.

- تذكرت خالتي أم عباس وأمي وناس بلدنا.

- حاول ترمي ورا ضهرك.

- أرمي إيه؟

- كل الدنيـا وكل بلدنـا ونـاس بلدنـا، نـاس قاعـدة تحسـب لبعضها، شـوف وبـص حواليـك وشـوف الدنيـا، نـاس تسـتحق، نـاس عايشـة، كل واحـد في حالـه، كلـه بيكسـب وكلـه بيبيـع.

- ناس غنية .. أثرياء.

- ريـح نفسـك مـن التفكـير تكسـب كتـير، كل واحـد بيفكـر كتـير بياخـد ...

لا يكمل عبارته ويغوص في الضحك.

حامـد لا يخجـل منـه، لا يكـذب عليـه فأحيانًـا يقـوم بـشراء متطلبـات الكيـف للكـبراء ممـن يقـوم بخدمتهـم، يكسـب مـن الطرفـين مـن أصحابـه كمـا يدعـي، ومـن تجـار الكيـف أيضًـا تتنـوع المتطلبـات ولكنـه يبتعـد عـن الاتجـار يضحـك قائـلًا:

- أصله حرام.

ويعود قائلًا:

- فيه مشايخ ما بيحرموش الكيف والمخدرات.

يضحكان وينطلقان وحامد يقول:

- أحسـن كبايـة شـاي مـن إيـدك يـا مولانـا في مسـكننا، أليـس كذلـك؟

يوافقه.

في إجازتـه التاليـة أعطـى لحامـد ألـف جنيـه ليعطيهـا لأمـه، وكلفـه أن يعتـذر لهـا ويخبرهـا أنـه يسـتغل أيـام الإجـازة في العمـل، مـا زال رأسـه يـرزح تحـت أفـكار متعـددة وغريبـة، تسـحبه مـن دنيـاه الـتي كان يأمـل فيهـا، تسـتقطبه، هـل يـرثي لحال حامـد أو يحسـده؟ حامد يتحـدث أمامـه بلغـة غريبـة، الغـد مرهـون بمـا يملكـه مـن أمـوال،

حامـد كل لحظـة يلعـن الأغنيـاء الأثريـاء ويصفهـم باللصـوص.

فماذا يكون حامد؟

حامــد لا يفكــر في الــزواج، أيــن المــرأة في حياتــه؟ عــرض عليــه حامـد أكـثر مـن مـرة إن كان بـه حاجـة للمـرأة، عـرض عليـه وكـم كان يـود لحظتهـا، لكنـه عـاب عـلى صاحبـه وراح يـسرد لـه آيـات مـن القـرآن والأحاديـث الشريفـة ومـا ينتظـر مرتكـب معصيـة الزنـا، تصنَّـع الولايـة والطهـر والعفـاف، في شـهوره الأخـيرة كان ملتزمًـا، عندمـا يهبـط إلى حامـد يـترك كل أفعالـه ويهتـم أن يجـاري حامـد وأن يتكسـب المزيـد مـن النقـود ليرسـل لأمـه، يطفـح عـلى ذهنـه سـؤال غريـب، هـل يمكـن أن تسـلم أمـه نفسـها لحامـد مثلمـا فعلـت أم عبـاس وحامـد؟ أو ربمـا لإنسـان غريـب، تهيـج ذاكرتـه وترتعـش فرائصـه ويلعـن نفسـه لمجـرد أنـه ذهـب بفكـره إلى هـذا الحـد، أمـه سـيدة كل نسـاء الأرض ليسـت مثلهـا إنسـانة، أمـه هـي الحيـاء والطهـر والنقـاء، مسـتحيل أن تفعـل ذلـك، يـتردد ولمـاذا لاتفعـل ذلـك أليسـت إنسـانة؟ لهـا متطلبـات وحرمانهـا قـد يدفعهـا، يسـتعيذ بـالله مـن الشـيطان الرجيـم، يقـوم مـن فـوره فيتوضـأ ويصـلي وتعـود إليـه السـكينة.

يذهــب تفكــيره لأشــياء غريبــة ملعونــة، يقتلهــا غالبًــا بالصــلاة، لكنهــا تهاجمــه كثــيرًا، ويحــاول ألَّا يستســلم لهــا.

ما الذي يحدث حوله؟

أليــس لهــؤلاء الشــباب أهــل؟ الفتيــات يســهرن حــتى الســاعات الأولى للصبــاح، اســتهتار غريــب، وهــم يتحدثــون ينصــت لهــم، أفـكار مغيبـة وفيهـا سـذاجة غريبـة، أفكارهـم متضاربـة، هـل يقتلـون وقـت فراغهـم ومـا يعانونـه مـن سـأم بأفعـال مجنونـة، يتهكمـون

مما يـدور حولهـم، يتمـادون في غَيِّهـم، هـذا مـا يبـدو أمـام عينيـه، أفعالهـم لا تحمـل أي نـوع مـن الحيـاء، أقوالهـم متضاربـة متناقضـة ورغـم ثـراء مؤكـد لأسرهـم إلا أنهـم يلعنـون الكـبراء والرؤسـاء ومـن بيدهـم الأمـر في البـلاد.

هــل يقدمــون أعــذارًا لأهلهــم وذويهــم لتأخرهــم أو غيابهــم المعتــاد؟

يسمع أحدهم وهو يلعن أقرب الناس إليه قائلًا:

أفكارهم مريضة، يبحثون عن خلود دائم أو مجد يرفعهم.

يتبارون في وصفهم بكل قبح وفجر ويضحكون.

-٤-

تـم توزيعهـم، هـو مـن أفضـل المجنديـن في أشـياء كثـيرة، فهـو تعلَّـم حـتى المرحلـة الإعداديـة، يجيـد أشـياء كثـيرة لعـل مـن أهمهـا الضبـط والربـط والامتثـال للأوامـر العسـكرية، يحـوز أعـلى المراكـز في الرمايـة، لـم يجـازَ طـوال الفـترة السـابقة بـأي جـزاءات معتـادة لأمثالـه، أصبـح في أغلـب الأحـوال يَـؤُمُّ المصلـين في صلاتهـم، يلقـى إعجـاب رؤسـائه.

كان نصيبــه في حراســة الســجون، حمــد الله عــلى تلــك النعمــة، فالسـجن الـذي سـيقوم بحراسـته سـجن المـرج، عندمـا سـأل عـن المـرج.

قالـوا لـه: إنهـا سـميت بذلـك نسـبة إلى المـروج والزهـور والنخيـل الكثيـف الـذي اشـتهرت بـه تلـك المنطقـة، هـو لا يهتـم بهـذا مطلقًـا صحـراء أم حدائـق غنـاء، المهـم عنـده المـكان، فعندمـا عرفـوه أن الموقـع بـين حـي السـلام وعـين شـمس في مدينـة الخانكـة الـتي تتبـع محافظـة القليوبيـة المتاخمـة في حدودهـا مـع القاهـرة الكـبرى بـل لا يفصلهمـا فاصـل، كاد يرقـص قلبـه فرحًـا وغبطـة، سيسـاعده ذلـك عـلى الاسـتفادة بإجازتـه مـع صديقـه اللـدود حامـد.

عندمـا اسـتدعاه قائـد الكتيبـة بالأمـر، كاد قلبـه يسـقط بـين قدميه، راح يعـدِّل مـن هندامـه ويلمـع حذائـه ويتمتـم بآيـات مـن القـرآن الكريـم بـأن لا يكـون هنـاك مكـروهٌ، أو إرسـاله لمنطقـة أخـرى فهـذا

شيء معتاد.

استقبله الرجل باشا، دخل معتدًّا بنفسه وبعد أن أدى التحية العسكرية بكل قوة وقف منتصبًا منتظرًا ما سيلقيه عليه القائد، دعاه للاقتراب أكثر، أخذ يصف له مهمته التي سيكلف بها.

كان موقع القصر الخاص بهذا الرجل يقع على طريق مصر إسكندرية الصحراوي، مساحة القصر تتجاوز العشرين فدانًا، يحيطه سور حجري وفوقه سلك شائك يتجاوز الثلاثة أمتار، سور داخلي آخر من النخيل والأشجار الباسقة التي تتشابك أغصانها وتحول دون الرؤية من الداخل أو الخارج، يقولون: إن السور كله مزود بكاميرات مراقبة وأجهزة رؤية ليلية وفي حجرة داخلية ما من القصر يستطيع فرد واحد أن يراقب كل ما يدور على جنبات القصر الخارجية، مهمة مصري محددة وفق ما قاله قائد الكتيبة، عليه مراقبة الدخول والخروج للبوابة الخارجية للقصر ويتناوب الحراسة والمراقبة أربعة من الجنود، ملابسهم ستكون مدنية ولن يرتدوا ملابس الجنود، كانت هناك سترات واقية لا تظهر للعيون أسفل الملابس المعتادة، المكان لا يبعد كثيرًا عن القاهرة هذا كل ما يشغل بال مصري حتى يتمكن من الرجوع إلى حامد.

تمضي الأيام على وتيرة واحدة، الرجل يخرج في سيارة سوداء وزجاجها مغلق غالبًا ولا يظهر الداخل أبدًا، تخرج خلفه سيارة حراسة خاصة، تقلُّ السيارة أربعة من الشباب بنظاراتهم الشمسية السوداء التي تغطي أغلب الوجه، عيونهم تتطلع في كل الاتجاهات، تبدو على ملامحهم الصرامة والقسوة والقوة، أجسامهم مشدودة ورياضية، تبدو عضلات أذرعهم مفتولة

قويـة إن ظهـرت، سـيارتهم تتبـع سـيارة الزعيـم كمـا يطلـق عليـه في الـرواح والغـدو.

لا يهتـم مـصري بـكل تلـك الأشـياء الحادثـة، لـه مهمـة محـددة حراسـة البوابـة الخارجيـة فحسـب، أحيانًـا يـرى الزعيـم في كـرسي متحـرك في ممـشى الحديقـة بمفـرده، حريـص أن لا يبـدي اهتمامًـا، تأخـذ جسـده قشـعريرة بمجـرد النظـر إليـه، كلمـات قائـد الكتيبـة تطـن في أذنيـه:

«حراسـتك لهـذا الرجـل تعـدُّ مهمـة قوميـة، هـذا الرجـل كان يبيـع نفسـه للبلـد وحـارب في سـبيلها داخـل وخـارج مـصر، سريـع الغضب وخاصـة في أعوامـه الأخـيرة، حـتى أكـبر رأس في البلـد تلجـأ إليـه وتسـتعين بـه وبخبرتـه ودرايتـه بـكل المشـاكل الداخليـة والخارجيـة، الجميـع يهابونـه، قليـل الـكلام، لا يخـشى أحـدًا ويرددهـا في كل وقـت، غالبًـا لـه فـترات علاجيـة يقضيهـا في مستشـفى في أحـد بـلاد أوروبـا الشرقيـة ربمـا روسـيا أو بولنـدا، عليـك أن تكـون حـذرًا لـو شـاءت الصدفـة وتعاملـت معـه مبـاشرة، فالبعـض يقـول: إنـه شـبه مصـاب بمـرض يقـترب مـن اللوثـة العقليـة، يـأتي أفعـالًا فيهـا عنـف ويلعـن أي إنسـان ويسـبه ولا يهتـم بـأي نتائـج، يمكـن أن تسـميه أنـه أحيانًـا كثـيرة غـير مسـئول عـن أفعالـه، يكـره النسـاء ويتحـاشى الحديـث إليهـن، حـتى طاقـم الرعايـة الطبيـة الخـاص بـه كلـه مـن الرجـال، فمـرة وفي أكـبر المستشـفيات في البلـد وُجـدت ممرضـة وطلبـت منـه شـيئًا فظنـه أمـرًا، لعنهـا وكال لهـا السـباب، وشـكروا الله أنـه لا يحمـل مسدسـه الـذي لا يفارقـه، دفعـوا للممرضـة الكثـير حـتى صمتـت، حـوادث كثـيرة كلهـا تشـير إلى سرعـة فقـدان أعصابـه وهـذا يرجـع إلى حالـة عصبيـة يعـاني منهـا والبعـض يقـول: إن

السبب الرئيسي الزهايمر الذي أصابه».

كل ما تفوه به القائد ينام في صدر مصري، أهم الأشياء التي يفرح بها أن أيام حراسته عشرة أيام ومثلها أجازة، لا يهتم وعليه أن يؤدي الواجب المفروض عليه بكل دقة ونظام، وما زالت تسيطر عليه حالة الرضى.

لم يتسنى له أن يقترب من الزعيم أو يراه مباشرة، يحمد الله ويدعوه أن يظل بعيدًا عنه، من مسافة بعيدة يراه أحيانًا متكئًا على عصا ماضيًا في تؤدة وبخطوات تبدو متعبة ومجهدة من أثر الحركة، ومرات متعددة غالبًا فوق كرسيه الكهربائي المتحرك، يطوف به أرجاء حديقة القصر ولكن بلا حراسة.

مصري سابح في ملكوت الله، جذب انتباهه قطة تتنمر بعصفور، يتأمل القطة وهي تتسلل ببطء وتكاد تمشي على بطنها تبتغي أن تقتنص العصفور، وفي حركة سريعة مباغتة انقضت عليه ووضعته بين أظافرها، هم بالضحك وعادت بسرعة ملامح الجدية وتغيرت معالم وجهه، فأربض وارتجف وأدى تحية عسكرية وتملكه خوف كبير، وجد الزعيم بعربته الكهربائية التي لا تصدر صوتًا بجواره، ينظر إليه ومصري واقف ورافع يده بالتحية، كل أجزاء جسده شبه متجمدة ومتخشبة وكأنه يسمع نبضات قلبه المتسرعة اللاهثة، في صوت أجش قوي قال:

- أنت لا تجيد الحراسة.

في نفس وقفته أومأ برأسه بالموافقة على كلام الزعيم.

- أنت فاشل.

يكرر الحركة السابقة نفسها.

- من يقف بباب حراستي عليه باليقظة فلا يجذب انتباهه أي شيء آخر.

عبارة معتادة ويرددها دومًا.

- تمام يا أفندم.

واقفًا منتصبًا مشدودًا.

- أنت المفروض تقف حراسة على حظيرة.

- تمام يا أفندم .

بلهجة آمرة:

- اسمك؟

- جندي مجند مصري ..

- مصري!!!

- تعرف قيمة الاسم؟

- تمام يا أفندم.

بلغة هادئة غريبة عما سبق يردد الزعيم:

- مصر ... يا أغلى اسم في الوجود.

كل من هب ودب يربط اسمه بمصر ... أنت مصري؟

يشير عليه ألَّا يعطي التحية العسكرية، أن يتكلم مباشرة بلا كلمة تمام، ولا إراديًّا يُعطي مصري التحية العسكرية قائلًا جملته المعتادة: «تمام يا أفندم» كما اعتادها لسانه هو وأمثاله من الجنود.

يضحك الزعيم ويلقي برأسه إلى الخلف:

- هتعيش متخلف وتموت متخلف.

- تمام يا أفندم.

- لا فائدة.

مصري يقف متخشبًا في مكانه لا يبدي حراكًا، الزعيم ينظر إليه وفوق وجهه علامات الضيق والتذمر البالغ فيتكلم وكأنه يردد لنفسه:

قدري أن أعيش بينكم أيها الجهلاء الرعاع الأغبياء كما قدر للذهب أن يعيش بين الرمل والتراب.

لا يعي مصري أي كلمة من كلماته فقد انساق في الاحتمالات القائمة الممكنة، الرجل يبدي غضبه البين منه، في كلماته ونظراته لعنات، أيستعطفه؟ أيبكي بين يديه طالبًا العفو الصفح؟ رغم قلة حيلته وهوانه على الناس الذي كان يستشعره منذ زمن، لكن ما زالت سطوة رجولته وسلطانها تأبى أي فعل من تلك الأفعال، لن تسقط الدموع استجداءً لرحمة إنسان، من يملك الرحمة هو الله ولا استجداء إلا منه ولا رحمة من سواه، رغم كل ما يداخله من رعب، شجاعة جديدة عليه أم تمرد على كل ما يحيطه من حياة، كلمات حامد التي يطلقها على الأثرياء وساكني القصور ومن يتعامل معهم.

«عليك أن تعيد النظر إليهم ثانية، إنهم أرخص من تلك الثياب التي يرتدونها، ثيابهم فاخرة وغالية وأجسادهم رخيصة ملعونة وداخل أجسادهم أوبئة وأمراض لا تنتمي لجنس البشر، عليك مجاراتهم والكسب من ورائهم وتعيش حياتهم».

رغم أنهما اختلفَا كثيرًا، مصري ما زال ينام داخل صدره الحب والخير، نعم تحللت كثير من الأفكار من سجنها متأثرة

بأحـداث مـرت بـه، فحامـد دومًـا مزهـو بعقلـه ويكفـي ذاتـه بفكـره ويتعـالى برؤيتـه ويحتقـر ولا يحفـل بـأي آراء مخالفـة لـه، فتـح لـه صـدره فتحـاورا واختلفَـا، يطالبـه ألَّا يزهـو بنفسـه كثـيرًا وأن لا يمتهـن غـيره، صـارَا أكـثر ألفـةً ومـودةً واختلافًـا.

يعود من استسلامه لأفكاره والزعيم يقول:

- حاربنـا وقاتلنـا مـن أجـل الحريـة، مـن أجـل هـذا الشـعب الـذي يعيـش في جهـل، بعـد طـول حـرب كان السـلام والعنـاق، سـلمنا مفاتيـح حياتنـا للغـزاة فاحتلونـا، نعـم كانـت لنـا المقـدرة وأجليناهم عـن الأرض، عـادوا أكـثر شراسـة واحتلـوا عقولنـا.

دار بعربتـه عائـدًا ولكـن صوتـه في آخـر كلماتـه متحـشرج، بـدت كلماتـه تزخـر بألـم غـير ظاهـر، ربمـا حـاول الابتعـاد حـتى لا يظهـر أمـام مـصري بالإنسـان الضعيـف، فـرَّ وهـو يسـأل بصـوت خافـت:

كل ما يدور يبعث على الجنون؟

تخفت ولا تظهر كلماته جلية، أذن مصري سمعتها جيدًا.

لحظـة فارقـة في حياتـه، توقفـت العربـة الآليـة عـلى بعـد لا يتجـاوز المئـتي مـتر مـن مكمـن مـصري، اهـتز الرجـل وأبى أن يـصرخ أو يطلـب المسـاعدة، بـلا تـردد أسرع مـصري تجـاه الزعيـم تلقفـه بـين يديـه ورأسـه في طريقهـا لـلأرض، رفعـه بـين يديـه ووضعـه فـوق عربتـه وحـاول أن يدفعهـا للأمـام، لـم يفطـن أن هنـاك فرامـل معقـودة فـلا يسـتطيع تحريكهـا، لـم يجـد بـدًّا فحمـل الزعيـم عـلى كتفـه وأسرع ناحيـة بنايـة القـصر، ثـوان وكان أفـراد الحـرس الخـاص حولـه، العاملـون بالقـصر أسرعـوا، قبـض الحـراس عـلى مـصري وهـو ذاهـل ممـا يحـدث، طرحـوا أسـئلة عديـدة، وجوههـم متجهمـة

منـذرة بعواقـب وخيمـة، هـل يلصقـون بـه تهمـة؟ ربمـا، مؤكـد لـو حـدث للزعيـم مكـروه سَيُسْـأَلُون وبدورهـم يجـب أن يجـدوا سـبيل براءتهـم، يحمـد الله عـلى عودتـه لمكانـه التقليـدي للحراسـة بعـد سـاعتين.

-٥-

يستدعيه الزعيم، يعدِّل من هندامه ويتمنى أن لا يهينه ثانية، في نهاية دوامه يتجه مباشرة صوب القصر، البوابة الخارجية تفضي إلى ممشى استطاع البستاني المكلف بالحديقة أن يجعله قمة في الجمال والروعة والتناسق البديع، خطواته إلى حد ما متخاذلة ولكن أريج الزهور تدفق إلى رئتيه فنشطت أجزاء جسده وانتعش فؤاده وأقبل خلف الخادم، تطالع عيناه حمام السباحة بمياهه الزرقاء بمحاذاة ممشى الحديقة والطريق المفضي للبناية الأساسية، الحمام في فصل الشتاء غالبًا يتحول إلى صالة مغطاة ملحقة بالقصر، قالوا له: إن كل تلك المياه تسخن فيصبح دافئًا، لم يهتم كثيرًا بكل الأشياء الجميلة التي تطالعها عيناه؛ مهمومًا ومتسائلًا عن سبب الاستدعاء، كان حريصًا أن ينظف حذاءه فالأرضيات بدت وكأنها من البللور الصافي، الردهة الواسعة الفسيحة بأثاثها الراقي المنتشر في شتي بقاعها، الجدران مكتظة بصور رائعة مرسومة باليد، بعض الصور الخاصة بالزعيم في مراحل عمره المختلفة، كلها مؤطرة بأطر ذهبية تخطف الأبصار، ستائر طبقات بألوان مختلفة، عيناه تسترق النظر وهو يتحرك خلف الخادم، جمال لم يره من قبل، تعصف رجفة بأطرافه ويحاول بدوره أن يسيطر على كل معاقل جسده، في حجرة في نهاية الردهة بدت -حتى مقابض بابها- من الذهب الخالص، توقفَا، طرقات حتى أذن لهما بالدخول، الزعيم في مخدع ملكي،

زهـور يانعـة عـلى جانـبي المخـدع، إضـاءات متباينـة، حجـرة واسـعة دافئـة بمحتوياتهـا وأجهزتهـا المختلفـة، مجـرد أن دخـل مـصري أدى التحيـة العسـكرية، أول مـرة يشـاهد ابتسـامته ورأسـه بـلا قبعتـه الـتي يرتديهـا غالبًـا، مـع ابتسـامته قـال:

- لا تحية عسكرية في حجرات النوم.

- تمام يا أفندم.

في إشـارة مـن يـده تعكـس عـدم رضـاه عـن كلمـات المـصري، وكأنه يدفـع بيـده حـشرة عـن وجهـه، طالـب الخـادم أن يـأتي بمقعـد أكـثر قربًـا مـن مخدعـه، ففعـل وأشـار الزعيـم لمـصري أن يتقـدم ويجلـس.

- العفو يا أفندم لا يصح.

- يا ابني لا تنس أنت في حجرة نومي.

- تمام يا أفندم.

في لهجة آمرة استجمع فيها الزعيم كل قوته:

- اجلس هنا.

أسرع ملبيًا، جلس لكن ما زالت فرائصه مهتاجة ومهتزة.

- مصري.

- نعم يا أفندم ...

أقسـم لـه بأنـه إن عـاد لتكـرار كلمـة «يـا أفنـدم» سـيقر عليـه جـزاء وسـينفذه بنفسـه، اهـتزت رأس مـصري بالموافقـة دون أن ينبـس بحـرف واحـد، صَمْـتٌ مـن الطرفـين، عينـا مـصري تختلـس نظـرات للأثـاث الملـكي ومـا تحتويـه الجـدران مـن رسـومات بعضهـا غريـب،

تتأرجح اللوحات ما بين طبيعية خلابة ومتداخلة لا يستطيع أن يحدد لها معالم، هو لا يعرف معنى ومراد التكعيبية أو السريالية، لكن ما سحب عيناه أكثر تلك الشاشة فوق الجدار المقابلة مباشرة للزعيم، مقسمة لأكثر من جزء، يرى المدخل الذي لتوه اجتازه، تأتي وتختفي صورة حجرة مقر الحراسة من الخارج ومن الداخل، ويحدث نفسه:

«إنه يرى كل حركة أقوم بها في الحجرة، مصيبة سوداء أن أكون فعلت ما يثير غضبه».

يدعو الله بالستر عليه، المشهد خارج حديقة القصر، جنبات القصر كلها يراها الرجل وهو جالس أو نائم مستيقظ في مخدعه، لا يهتم بأشياء كثيرة زاخرة بها الحجرة فقد توقف فكره على رؤيته فحسب آوان الحراسة، قطع الرجل صمتهما قائلًا:

- اسمك وبلدك وعنوانك ومؤهلك.

هم مصري بالوقوف من مجلسه، هم بالكلام بالصيغة العسكرية، نظرات الزعيم الحادة ألجمت لسانه، أشارت يده له بالجلوس والحديث بصورة عادية، فجلس وراح في تلعثم بادٍ وكأن حالته السالفة عادت إليه، تكلم وفاض بكل ما هو مدون عنه، وكأنه يحيد بعينيه بعيدًا عن عيني الرجل التي تبدو كعيني صقر، لا ينفذ صبر الرجل ولكن يكتسي وجهه بابتسامة عريضة تكاد تفرش وجهه ذا العظام البارزة، دخلت خادمة بعد إذن، تقدمت إلى مصري بمشروب لم يعرف ما هو وعليه أن يشربه أيا كان، الخادمة وجهها رائق كاللبن الحليب، تتحرك وكأنها تمشي على أطراف أصابع قدميها، شبه متسللة أو ربما ترتدي حذاءً خاصًا في قدميها، سأله:

- تدخن ...؟

تردد في الإجابة فعاد الزعيم قائلًا:

تدخن، في ترددك تأكيد، ندت منه كلمة واحدة:

- أعرف إنه خطأ سأحاول أن...

ضحك الزعيم وهو يردد:

- افعـل مـا يحلـو لـك حـتى لـو كان يـؤدي للمـوت، المهـم حريـة الفعـل.

- أعرف أنه قتل للنفس.

يضحك الرجل بقوة ويقول:

- عندمـا تمـوت وأنـت تضحـك أفضـل ألـف مـرة مـن المـوت وأنـت تسـعل، لكـن المـوت مـوت ونهايـة محتومـة، بالضحـك أو بالسـعال وطـرح سـؤالًا:

متزوج؟

- لا لا.

كان رده مثيرًا للزعيم:

- هل لدغك ثعبان، أم تخاف النساء، أم جربت؟

- أستغفرُ الله العظيم، أنا.

قاطعه الرجل مبتسمًا ابتسامة غريبة وكأنه يعلم عنه كل شيء:

- أنـا سـألتك عـن الـزواج لـم أسـألك عـن جريمـة فلمـا اسـتغفارك، هـل حُـرِّم الـزواج؟

عليـه أن يتماسـك، هـل ترتعـش فرائصـه؟ هـل يبـدو أمـام الرجـل مـترددًا؟ ابتسـامة الزعيـم تعكـس قدراتـه في اسـتنباط مـا يجـول

بخاطـره، يحـاول أن يـداري مـا يشـعربه فينظـر إلى الأرض، يدعـوه الرجـل أن يـشرب عصـيره، تمتـد يـده لا إراديًّـا إلى الـكأس الموجـود أمامـه ويرشـف رشـفات قليلـة بـلا صـوت.

- ليـس عيبًـا أن يرتكـب الإنسـان الخطيئـة، عليـه أن يعرف الأسـباب الـتي تدفعـه لذلـك، ربمـا كانـت أحيانًـا مهمـة، عـلى الشـباب أن يتمتـع بعمـره وبجسـده وبمـا وهبـه الله، فالمـرأة جـزء لا ينفصـل عـن الرجـل.

مـصري يسـترق النظـر، الرجـل ناظـر لسـقف الحجـرة وهـو يـردد كلماتـه، لا ينظـر إليـه ويواصـل بعدهـا قائـلًا:

- سـتظل المـرأة عاشـقة للنـوم في جسـد الرجـل؛ لأنهـا خلقـت مـن جسـده، تسكنه وهـي لـه سكن دائـم، الرذيلـة هـي المـرأة.

تنهيدة غريبة من فم الزعيم وهو يقول:

- الحيـاة حـرب مقدسـة وأجمـل زهـور النـصر امـرأة جميلـة، وأيضًـا يمكـن أن تكـون لعقـة سـم مـن ثعبـان قاتـل ...

- دومًا الحروب قائمة، كل ديانات الدنيا تدعو للحرب.

يتجرأ وبكلمات قليلة يقول مصري:

-المسيحيون يقولون التسامح.

لا يكمل عبارته، يضحك الرجل:

- سـتجد في كل الأديـان حافـزًا للحـرب، يحاولـون أن يجعلـوه هاديًـا لهـم، فالمسـيح -عليـه السـلام- شـأنه شـأن كل رسـل الإنسـانية، دعـوة للحـب والتسـامح ولكـن هنـاك أقـوال منقولـة عنـه في الكتـاب المقـدس تقـول:

«لم آت لألقي سلامًا على الأرض بل سيفًا».

الزعيم يتكلم بمودة ومحبة غريبة، فك تبسطه حزام الخوف الذي ربط لسان مصري فشاركه الحديث، تبادل معه حوار، لقد حذروه مسبقًا من مجرد النظر إليه، صنعوا له تمثالًا وكأنهم يطالبوه بعبادته، فقالوا عنه:

«إنه ذو طبيعة خشنة لا تعرف الشفقة طريقًا إلى قلبه، مجرد من مشاعر المودة التي يألفها الناس عمومًا، حتى إنه مقاطع أهله دومًا».

***

يكسر الزعيم بتبسطه وابتسامته حاجز الخوف والريبة التي سكنت قلب مصري، فيبادله حديثًا بحديث وحكاية بحكاية، يمر عليه في نوبة حراسته في عربته الآلية الصغيرة، يلقي إليه بعلبة من الورق المقوى مغلقة تحتوي على عشر علب من السجائر الأجنبية الصنع، مرة أخرى يعرف أنه في الغد أجازة لمدة عشرة أيام سيذهب إلى أمه وإخوته للزيارة، وسيبقى كل أيامه هناك، يقبض الرجل على راحة يد مصري ويدفع فيها رزمة من الأوراق النقدية من فئة المئتي جنيه، يحاول أن يعتذر عن القبول، أمام إصرار الزعيم يأخذها، يكذب عليه فهو سيعمل طوال الأيام العشرة في صحبة حامد، لكن يحصي ما وهبه الرجل إليه إنه يزيد عن ألفي جنيه، يستغرب الفعل ورد الفعل مزيدًا من حب لهذا الزعيم الغريب.

يقول له الزعيم:

- لا تصدق كل ما يردد عن إناس لا تعرفهم.

بإيماءة من رأسه موافقًا على ما قاله الزعيم، في صدره يتساءل، هل يحاول الرجل أن يغير الصورة التي نامت في صدره؟ لقد تحدث إليه في السابق بعنجهية وعظمة بالغة، يشكره ويبالغ في رد فعله وانحنائه أمامه، لكن عليه ألَّا يفكر كثيرًا، وهذا هو الأفضل، الزعيم يتحدث وهو ينصت:

- هناك كثير من الرجال يتسللون مثل الثعابين والفئران، يزحفون على بطونهم؛ ليقتنصوا فريسة ضعيفة.

لكن ماذا يقصد الزعيم من وراء كلماته؟

تتنوع أحاديثه وتتناغم حكايات مصري المشبعة بأصالة البسطاء ورقي أحاسيسهم مع أماني الزعيم، يبتسم مصري وهو يقص:

عم أيوب الصابر راجل طيب لا أهل له ولا زوجة ولا أولاد، يعيش على الكفاف، راضيًا بحياته شاكرًا، عندما يضحك كل من حوله يضحكون، عندما يسترسل في حكاياته الكل إليه منصتون مبتسمون.

يواصل مصري:

عم أيوب الصابر أشهر كلماته المنقولة عنه قوله:

«كنت أنتظر أن أنام يومًا بدون عشاء حتى يكون لي حق وأعاتب به الله أنني نمت يومًا بدون عشاء، دومًا كانت تفشل أمنياتي، أجد من يأتيني بالطعام حتى بعد أن أنام»

في أحد الأيام وقد أغلقت الأبواب وران الصمت على البلد كلها، حتى الكلاب استراحت ونامت، إلا صابر ولم يجد في البيت لقمة خبز يسد بها جوع معدته، شرب شربة ماء واستسلم

للنـوم قائـلًا:

هـا هـي الليلـة قـد أتـت وسـأنام بـدون عشـاء، سـأعاتب ربي بعـد أن ألقـاه بأنـني نمـت بـلا عشـاء.

لا يوجـد جـاز وبالتـالي لـم يشـعل مصباحـه الصاروخـي الشـعلة، لــم يذهــب في النــوم بعــد وطرقــات عــلى البــاب بعصــا، وراح يسـأل مـن الطـارق؟ جـاءه صـوت الحـاج سـعداوي، هـذا الحـاج هـو أثـرى أثريـاء البلـدة ومـا حولهـا، يتاجـر في كل أنـواع التجـارة مـن غـلال وخلافـه، لـه محـل فيـه كل الأنـواع مـن شـاي، وسـكر، وعسـل، ومنتجــات متنوعــة وهــو أكــبر محــل في كل الناحيــة، أمــا الرجــل فحجمـه لا يقـل كثـيرًا عـن حجـم الفيـل، كرشـه يتقدمـه لمسـافة، يحافـظ غالبًـا عـلى توازنـه بالعصـا الـتي لا تفـارق يـده.

- أنا عمك سعداوي .. افتح يا واد يا صابر.

لـم يأتـه هـذا الرجـل في مثـل هـذا الموعـد أبـدًا، يـا تـرى مـاذا وراءه؟

- حاضر ... حاضر يا عم الحاج.

أسرع بفتح الباب عن آخره فتقدم الرجل بلا تردد.

فــرش لــه المصطبــة بــرداء قديــم لا تظهــر معالمــه فالســواد والظلمـة يكسـوان المـكان، طالبـه بالجلـوس، سـأله عـن المصبـاح فتلجلـج بالـرد ولكـن سرعـان مـا جاءتـه الإجابـة عـلى غـير مـا توقـع، اعتـذر بـأن سـلطان النـوم غلبـه فلـم يفكـر في النـور، راح يلتمـس لنفسـه الأعـذار، فالنـوم ميتـة صغـرى أي قـبر يذهـب إليـه الإنسـان وهـل في القبـور مصابيـح؟ استحسـن الحـج مقولتـه فسـأله:

- خير يا عم الحج.

- خير يا ابني إن شاء الله.

- أي خدمة أستطيع أن أؤديها لك.

- النوم يخاصمني والجوع كافر.

- أجهز لك لقمة.

قالها صابر ويكتم ضحكاته التي كادت أن تخرج من فيه، كانت صدمة مباغتة لم يعمل لها حسابًا عندما جاءته كلمة الحج.

- يبقى كتر ألف خيرك يا صابر، هموت من الجوع.

لم يفكر كثيرًا ولم يجتهد في الرد.

- هات عصايتك يا أبا الحج.

معلوم أنه سيستعين بالعصا وهو ماض في طريقه لشراء ما يلزم من أشياء وحذِرًا من كلاب قد تعترض طريقه، سلمها له الرجل بلا تردد، استأذنه لدقائق منتحلًا عذرًا لشراء الجاز وبعض الأشياء الأخرى، فوافق الرجل وطالبه بالإسراع.

اتجه صابر مباشرة لمنزل الحج سعداوي، طرقات على الباب وجاءه صوت الزوجه بمن الطارق؟ فرد عليها بأنه أيوب الصابر، وعاد سؤالها مستهجنًا تلك الساعة التي يأتي فيها، لقد قارب الفجر، لكنه ألقى معاذيره بأن الحج هو من أرسله ودلالة على صدق قوله ها هي عصا الحج يرسلها إثباتًا وتأكيدًا.

- ماذا يريد سيدك الحج؟

راح صابر يعدد كل ما يلزمه في عشته، شاي وسكر وحلاوة طحينية وكم قطعة من الجبن القديم والجديد وأيضًا كرة من الزبد، لم ينس شيئًا مما يعوزه، حتى الجاز لزوم مصباحه، لم تتوان السيدة فجمعت له كل ما طلب به زوجها، معروف

عـن زوجهـا نهمـه الشـديد للطعـام وربمـا كان معـه في تلـك السـاعة ضيـوفٌ أيضًـا، دفعـت لصابـر بـكل مـا طلبـه منهـا بالزيـادة، عـاد صابـر محمـلًا وشـاكرًا، أشـعل نـور مصباحـه ونـيران موقـده الطيـني، وتربـع الحـج بصعوبـة أمـام النـيران والتهـم الأكل التهامًـا وكأنـه كان عـلى صيـام مـن مـدة طالـت، صابـر يتأملـه:

- أنت جوعان.

- لقمتك يا صابر فيها طعم جميل.

- بالهناء والشفاء.

- بيتك عمران بكل...

قاطعـه الرجـل قائـلًا وابتسـامته الواسـعة فـوق محيـاه، فتظهـر سـنته الذهبيـة أكـثر إشـعاعًا مـع ضـوء النـيران السـاقط فـوق وجهـه:

- أقسم لك لم آكل بهذه الطريقة منذ شهر مضى.

يشـيد بطعـم ونكهـة الطعـام، احتـسى أكـثر مـن كأس من الشـاي، تجشـأ في نغـم بـدت سـعادته في تقطـع وتلحـين مخارجـه مـن فمـه، يضحــك فيضحــك صابــر لأي كلمــة يقولهــا ولكــنَّ صابــر ســابحٌ في مشـيئة الله وقدرتـه واسـتجابته، فلـم ينـم دون عشـاء كمـا كان يتمـنى ليعاتـب الخالـق سـبحانه، حـتى صـلاة الفجـر وقـد انسـحبا الحـج وصابـر إلى المسـجد الكبـير، مَضَيَـا في الطريـق يـد فـوق كتـف صابـر والثانيـة تسـتعين بالعصـا حـتى يحافـظ عـلى توازنـه بعـد تلـك الأكلـة الرائعـة، لـم يتركـه صابـر حـتى بعـد الصـلاة وحـتى وصـل بـه لبـاب بيتـه، عـاد أدراجـه ضاحـكًا.

يضج الزعيم بالضحك ويسأل مصري:

- متى كان هذا؟

- أنا لم أعاصر عم أيوب ولكنها تروى عنه.

- ليست في هذا الزمان .

تغيرت ملامح الزعيم وهو يردد «ليست في هذا الزمان».

يندد بما يحدث هذه الأيام فيقول:

- هذا الزمان يستأمنون الذئب على الخراف.

لا تأخـذك الرحمـة بثعابـين هـذا الزمـان، عليـك بالنـيران امـلأ بهـا جـوف جحـور الثعابـين لا تخـف ولا تـتردد، الحكمـة ألَّا ينطـق لسـانك قبـل عقلـك، عليـك أن تقلـب الأمـور عـلى وجوههـا كافـة، أيهمـا أصلـح وأبقـى، فسـنابك الخيـل تتعـثر في الصخـور وتغـوص في جبـال الرمـال ولكنهـا تطـير زهـوًا وتسـابق الريـح فـوق الأرض المنبسـطة الصالحـة، نحتـاج لفرسـان يلـوون أعنـة الخيـول؛ ليتجهـوا بهـا صـوب الأرض المنبسـطة لتجـري الخيـول بحريـة، لا تتعجـب كثـيرًا يـا مـصري فإننـا نصنـع مراكبًـا في جـوف الصحـراء، رغـم أن البحـر بعيـد والجبـال عـلى امتـداد البـصر، ولـم يركـب أي منهـم البحـر مـن قبـل ولا يـدري بطرائقـه ومـده وجـذره، ننتظـر سـيدنا نـوح عليـه السـلام؛ ليدعـو ربنـا ليغـرق الأرض بمـن فيهـا، انتهـى عـصر الرسـل بمحمـد عليـه الصـلاة والسـلام، هـم أكـثر بعـدًا عـن الإيمـان والديـن، لا تغـرك كل تلـك السـيارات الحديثـة ولا البنايـات الرائعـة فمـن يسـكنها ضاعـت معالـم الإنسـانية مـن قلبـه، إنهـم بـلا مشـاعر حـب وإيمـان، تنبعـث منهـم روائـح خبيثـة تعكـر ميـاه الحيـاة وتفـوح منهـا عطانـة، ذهـب زمـن الحـب والمـودة، علينـا أن نحبـس دموعنـا.

تترقـرق الدمـوع في عيـني الزعيـم، يبحـث مـصري عـن حديـث يبدد

بـه صمـت اللحظـة وألمهـا الـتي اجتاحـت كيـان الرجـل، هـل أدمـى بكلماتـه أو بحكايتـه جرحًـا في صـدر الرجـل؟ لكـن خرجـت كلمـات الرجـل في أسى:

- حبات عرقنا كانت دمًا.

يصمت وتتجاسر يده وتمتد لتمسح الدموع ويكمل:

سـافرنا بـلادًا بأسـماءٍ جديـدة وهويـاتٍ غريبـة وعقدنـا العـزم عـلى المـوت في سـبيلها، ذاهبـون بـلا أمـل في العـودة لأحضانهـا، كل مـرة كنـا نـودع أولادنـا وأهلنـا وينـام داخـل قلوبنـا أن هـذا هـو الـوداع الأخـير، كـم كنـا نقـاسي ونتصنـع القـوة والجسـارة ونتماسـك فـلا دمعـة تنسـاب أو تَطْفِـرُ.

يصمت ويعود ضاحكًا:

بفعـل منـا وصمـود وتحـدٍّ أغلقنـا قنـوات عيوننـا الدمعيـة – حـب الوطـن – علينـا أن ندفـع الثمـن وكـم هـي رخيصـة حياتنـا في سـبيله، نلتحـق بأعمـال وعلينـا أن نجيدهـا في أقـصر وقـت ممكـن، يعـود للضحـك قائـلًا:

تخيل أن أعمل خادمًا في بيت دعارة!!!

عـلى أن أجمـع المعلومـات من أفـواه الغـواني وبائعـات الهوى،عليَّ أن أهيـم بهـا عشـقًا؛ لتنقـل إلى مـا يـدور في رأس العدو.

أسـاير الركـب رغـم أنفـي وفي سـبيل الوطـن، أنـا أعشـق امـرأة تبيـع مشاعرها.

نعـم الرجـل يتمـنى امـرأة واحـدة، أنـا أقـضي سـاعات هـوى في أحضـان امـرأة يـنز جسـدها بعـرق الرجال الآخريـن أو بماء شـهوتهم، مهمـا رشـت جسـدها بـأرقى العطـور فـإن نتانـةَ بيـعِ جسـدها رائحـةٌ

ظاهـرةٌ، ويـوم تحـاول أن تسـد مسـام وفتحـات أنفـك لا تسـتطيع، بعدهـا تتقيـأ وتشـعر بـكل القـاذورات.

كلمـات الزعيـم تقطـر أسى ومـرارة، قـصَّ أحاديـث كثـيرة عـلى رأس مـصري، اسـتطاع أن يسـتأثر بلبـه ومشـاعره، ذهبـت كل الأحـداث السـالفة الـتي بموجبهـا ظـنَّ الظنـون بالزعيـم، اسـتقر في صـدره بتلـك الصـور الغريبـة المملـؤة بالشـجاعة والقـوة والصلابـة في سـبيل بلـده، فتـارة يكـون في بـلاد الثلـج وأخـرى في غابـات إفريقيـا وأحراشـها، يتخـلى عـن اسـمه الحقيقـي ويعيـش باسـم مسـتعار، يعـرف أنـه لـو مـات سـيموت نكـرة في بـلاد غريبـة ولا يأبـه لذلـك.

-٦-

كانت البداية هروب، اليوم استقر به المقام، كان يبحث عن الحرية ووجدها -كما يقول- في تجنيده، يقبل على كل الدنيا بحب وأمل، الفرصة سانحة للاستغفار والتوبة والعودة لحظيرة الإيمان، يرفع يديه بالدعاء المحفوظ لرب السماء أن يغفر له ويتولاه برحمته.

كثيرًا ما يتيه في طوفان الذكريات التي تأسره في حبائلها، حشرة في بيت العنكبوت اللزج، تنغص عليه حياته التي هام بها، يشعر أن رأسه يكاد ينفجر، لا تجدي مع الصداع الذي يعانيه عقاقير أو مشروبات، يحاول أن يربطها بمنديل أو ما شابهه ويشد طرفيه بقوة.

العزلة، الابتعاد عن النساء خير، حامد يفتح أبواب الرزق والحياة أمامه فيكسب من ورائه الكثير، يساعده في كل أمور حياته، يفتح له بيته أيًّا كان حجرة أو حتى جُحر صغير، فله كل الشكر والامتنان، وفي نفس الليلة التي يشاركه في حجرته الوحيده تطارده ذكرى العجوز العاشقة، فيقضي وطره منها، يلعن أفكاره ويلعن تلك الأفعال القذرة التي يأتيها أو التي كان يفعلها، إنه يخون الإنسان الذي فتح بيته له، يناديه يا أخي، يتقزز من الأفكار والأحلام التي تهاجمه، يشعر أنه إنسان عاق ومن يفعل الخير معه يرده غيبة وفعل فاضح مع من؟

يلتمس أعذارًا.

إن الله يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به، أليس كذلك؟ أنا لم أشرك بالله، أنا مؤمن وما فعلت كان وليد حاجة تأسرني، هي دفعتني ولم أفكر يومًا، هي تحتاج من يشاركها لحظة، أنا لم أعِ ما يحدث، كنت أسير غيبوبة.

يعوده شيطانه ويصف آهات الندم التي يفرزها قلبه بأنها تشدد ليس له مبرر، عليه أن يضع الأمور في نصابها وما فات مضى، عليه أن ينسى، فمن يلوم؟ وعلى من تقع اللائمة؟ أسئلة تتردد لا تحظى بإجابات قاطعة أو شافية مقنعة، وتظل عالقة بالذهن، كيف كانت شخصيته ضعيفة أمامها؟ كان فكره مغيبًا، استسلام وطاعة عمياء لكل ما تشير به عليه وما تريد، كان رهن إشارتها، إشارة واحدة ويسرع ملبيًا ويفجر طاقته الكامنة وسعادة ترفرف فوق حنايا جسده ورعشة محببة تروي ظمأ أحلامه.

دليل غيبوبته أنه يأتي بالفعل معها في بيتهم، كيف تأتيه الجرأة ويفعل هذا، دليل واضح على مدى تهوره واندفاعه وجنونه.

يجافي النوم عينيه، فجرحه كما يتخيله دامٍ وينزف بغزارة وهو لا يستطيع إيقاف نزيفه المتتابع من رأسه.

يقلب الأمور ثانية، أمه غضبها الماثل في عينيها المتوهجتين اللاعنتين، رعشة كلماتها وهي تصب سبابها ولعناتها بلا حديث ولا شفاه تتحرك، في المساء وفي اليوم نفسه تحولٌ غريبٌ، ضحكات في يوم مأتم، يكاد يصيبه الجنون ولا يستطيع أن يشفي غليل أفكاره بإجابة تقنعه، اليوم نفسه هدايا من العجوز لأخواته البنات وسعادة غامرة ومشاركة طعام في مأدبة عامرة، هل رضيت أمه عن فعله؟ هل تبارك فعله؟ هل طوت

العجـوز أمـه تحـت ذراعيهـا؟ هـل تخـاف أمـه أن لا تجدهـا بجوارهـا إن أصابتهـا حالـة عـوز؟ تطفـح الأسـئلة وتتوالـد.

لا يسـتطيع فـك شـفرات الحيـاة الدائـرة مـن حولـه، يعـود يقيـم الصـلاة ويحـاول أن يبعـد عـن ذهنـه كل الأفـكار الخبيثـة اللعينـة.

ينظر إلى حامد ويبتسم.

- خير؟

- أنت إنسان رائع يا حامد.

بنظرة تقطر سخرية وابتسامة كاذبة:

- وما سر الروعة يا أخي؟

- تستطيع مجاراة الدنيا من حولك.

- أنا لازم أعيش.

لا يعاتبـه ولـم يسـأله عـن سـبب وجـوده عنـد جارتـه في تلـك السـاعة المتأخـرة مـن الليـل، اكتفـى بحثـه عـلى الاغتسـال والتطهـر.

يضحك حامد ويطرح سؤاله:

- هل الغسل من الجنابة أهم؟

لا يعـرف مـصري كيـف يواصـل الحديـث، صاحبـه يرتكـب جريمـة كل الأديـان تحرمهـا وهـو يشـير عليـه بالطهـارة، فأيهمـا أولى؟

يضحك حامد بقوة ويقول:

- أخاف عليها الفتنة.

- ماذا تقول؟

- أخاف عليها الفتنة أن لا تسمع؟

- مم؟

- حاجتها وحاجتي نساعد بعضنا.

- زنا ... أستغفر الله العظيم.

- زوجها في السجن وهي تحاول جاهدة أن تعيش.

- تعمل.

- هـي تعمـل خادمـة في أحيـان كثـيرة، لكـن مـا دخـل العمـل بحاجاتهـا.

- حرام بَيِّن.

طال الحوار وأمتد.

في الليلـة التاليـة وبعـد أن أنهيـا أعمالهمـا ولـم تتجـاوز السـاعة العـاشرة مسـاء، قـاد حامـد مـصري لمكان فيـه تجمعـات متباينـة، هـذا يسـحب عـودًا ويـردد أغـاني، هـذا يقـص حكايـة مـن ورقـة مكتوبـة وجمـوع تنصـت، هـذا يفيـض بقـول شـاعر قديـم ويـرد عليـه آخـر بكلمـات شـاعر حديـث، شـباب وشـيوخ، سـيدات وفتيـات، شـيش يـسرع عمـال القهـوة الحديثـة بتغيـير جمـرات أحجارهـا، كركـرات وسـحابات وضبـاب يغلـف وجوهًـا، تنتفـض الضحـكات أحيانًـا فتكـسر رتابـة الحـوارات القائمـة، مناقشـات قـد تصـل لحـدود الخـروج عـن المعتـاد في الحديـث، مـصري يتأمـل الجمـوع المختلفـة، حامـد يبحـث ويتفـرس الجالسـين يبحـث عـن إنسـان مـا، يسـحب مـصري ويتجـه إلى مائـدة يتجمـع حولهـا العديـد مـن الكبـار والشـباب مـن الجنسـين، الرجـل يتحـدث في مـرح بالـغ ويصـف أيـام زمـان، وينـتزع الضحـكات، المناوشـات تتـوالى وتصـب وهـو جاهـز بالـرد وابتسـامته لا تفارقـه، سـحب كرسـيين وانضمـا لزمـرة المسـتمعين، مـا انتهـى الرجـل مـن الحديـث وخفـت أحاديـث

مريديـه، اقـترب حامـد مـن الرجـل أكـثر وهمـس في أذنـه، قـام مـن فـوره وتبعهمـا مـصري، يبـدو أن الرجـل معـروفٌ للجميـع، الجميـع يودعونـه بألقـاب تبجيـل واحـترام زائـد، في قهـوة لا تبعـد كثـيرًا عـن السـابقة دار حوارهمـا...

فقال حامد:

- وجدت لك مشتر.

رد الأستاذ:

- أتمنى أن يعرف قيمتها.

- يعرف أو لا يعرف ما تريده هو..

- هذه المكتبة وتلك الكتب ثروة عمري.

- قال: ألفين من الجنيهات.

انتفـض الرجـل واقفًـا وهـو يلعـن، كاد أن يتعـثر وهـو يهـم بالمـضي، أسرعـت يـد حامـد وأجلسـته وهـو يهـدئ مـن روعـه.

- الكلام أخد وعطا ... وبين البائع والشاري يفتح الله.

- ما يزيد عن ألفي كتاب..

امتـد الحـوار، المـصري صامـت لا يـدري مـا يقـول ولا يسـتطيع المشـاركة ولـو بكلمـة، الأسـتاذ كمـا يطلقـون عليـه يتكلـم وحـزن يقطـر مـن بـين كلماتـه، يحـاول مـصري أن يشـاركه حزنـه بكلمـة تطيـب خاطـره فيقـول :

- من يقرأ في هذه الأيام؟

وكأن عبـارة مـصري كانـت حافـزًا لحامـد، يـسرد عـلى مسـامع الأسـتاذ ويعرفـه بمـن سيشـتري تلـك الكتـب، أحـد التجـار الأثريـاء

هـو يمتلـك حجـرة فارغـة في قـصره الجديـد بالقاهـرة الجديـدة، أصحابـه قالـوا لـه: إن تلك الحجـرة جديـرة بـأن تكـون مكتبـة يجمـع فيهـا الرجـل مـن الكتـب قديمـة وحديثـة، تعكـس مـدى ثرائـه المادي والثقـافي.

- مجرد أن قال ذلك أمامي أسرعت إليك.

بأسى بالغ يقول الأستاذ:

- أنا في بلد تبيع مفكريها، بلد بقت سوق نخاسة كبير.

كلماتـه زفـرات تقطـر حـسرة، آهـات تلعـن حياتـه وأيامـه، يقـص عليهمـا كيـف كان واليـوم مـاذا أصبـح؟ كيـف كان يصيـغ حيـاة النـاس واليـوم نكـرة لا أحـد يفكـر أن يسـاعده في ظـروف حياتـه الراهنـة، يلعــن التســول والمتســولين، يتمنــون أن أمــد يــدي أســتجديهم، يلعــن الفقــر وتلــك الأيــام، تنهمــر الدمــوع لا إراديًّــا مــن مقلتيــه فــوق وجنتيــه لا يجففهمــا، يتمــنى أن تخفــف حــدة النــيران الــتي تلتهــم جســده.

في شـقة الأسـتاذ يدخـل حامـد ومـن خلفـه مـصري، شـقة فسيحة ورائحــة عطانــة غريبــة في أرجــاء المــكان، يــضيء مصابيــح الكهربــاء الضعيفــة، المــكان يعــج بالكتــب، في كل موضــع حــتى الأرضيــات فوقهـا أوراق لمجـلات وصحـف عربيـة وأجنبيـة، يدعوهمـا للجلـوس عـلى أريكـة متهالكـة، لا يحـاول أي منهمـا أو يفكـر في مسـح الغبـار مـن فـوق مقعـده، عـلى الجانـب البعيـد ثلاجـة قديمـة قِـدم عمـر الرجـل نفسـه، يفتحهـا ويسـحب شـيئًا لا يُظهـر جيـدًا معالمـه، يعـود بزجاجــة وثلاثــة كــؤوس وأمامهمــا يجلــس ســاحبًا منضــدة صغــيرة أمامـه، يصـب خمـرًا ويقـدم لهمـا، يمتنـع مـصري، يعـدد لـه أفضال الخمـر ويرشـف كأسـه، يضحـك حامـد ويطالبـه بالمزيـد، يضحـكان:

يسترد مصري وعيه قائلًا:

- أين زوجتك وأولادك؟

يصدر ضراطًا طويلًا من فمه وتشير يده في الهواء بالابتعاد.

- حمدًا لله ماتوا قبل أن يولدوا.

يعاود حامد السؤال ثانية فيقول الأستاذ:

- وهل صرت مجنونًا مثل باقي البشر؟

- تعيش بمفردك!!

- عندما كنت معروفًا ومعي..، كن يأتين مهرولات.

- من؟

- النساء والفتيات.

- اليوم؟

- يتحاشين الجلوس معي، لا تستغرب في هذا الوكر الرائع كثيرات قدمن برغبتهن وكل منهن قامت بدور الزوجة.

- زنا.

- أنت جاهل، برغبتها لم أجبرها.

- الزنا يورث الفقر.

يضحك حامد من حوارهما ويحتسي المزيد من الخمر مباشرة من الزجاجة، يعنفه الأستاذ، ويعود إلى مصري:

- من يتزوج عليه أن يراعي حياة أولاده، الغد غير مضمون وقلوب البشر اشتعلت بالحقد والضغينة، مات الحب اليوم فماذا تنتظر غدًا؟ أولاد مشوهون، في الغد سيتقاتل الإخوة، أكبر جريمة يرتكبها الإنسان اليوم زواج وأولاد، عليه أن يعيش ما قدر

لـه ويتركهـا.

- يلقبونك بالأستاذ!!

- مخطئون.

يتدخل حامد لأول مرة في الحديث الدائر قائلًا:

- ربنا خلقنا؛ لنعمر أرضه.

- ومن البداية كانت الخطيئة.

يتوقف ويدفع في جوفه بما تبقى في الكأس ويستطرد:

انفـض عـن رأسـك غبـار الفكـر الملائـكي وعـش تفاصيـل حيـاة البـشر، تأمـل مـا يـدور مـن حولـك، حـاول أن تسـتنبط مـا يحملـه الغـد.

حامد ضاحكًا بصوت مجلجل وقائلًا:

- هناك المرأة إبداع المولى.

يجلـس الأسـتاذ ويضـع سـاقًا فـوق أخـرى ويتقلـد منصبـه القديـم ويقول:

- هناك فرق كبير بين الرجل والمرأة.

يصمت ويندفع مصري ويسأله:

- أي فرق؟

- الرجل من روح الله أما المرأة فمن جسد الرجل.

ولا يلبث كثيرًا ويعود وابتسامة تملأ وجهه.

- لـم ينفـخ الله في المـرأة مـن روحـه الحيـاة، المـرأة عقوبـة ربانيـة، يمكـن أن تطلـق عليهـا إصـلاح وتهذيـب للبـشر عمومًـا.

بدا أن حامد في حالة سكر خفيفة فصاح وهو يقف من مكانه.

- يـا مولانـا، قصـدي يـا أسـتاذنا، هـل تسـير الحيـاة بـدون النسـاء؟ النســاء متعــة الدنيــا وســجن للرجــل ولكــن بــين ذراعيهــا أو بــين فخذيهـا أو داخـل جسـدها، تتابعـت انطلاقـات الفواقـة مـن فمـه وكأنـه يترنـح أثـر تلـك (الزغطـة)...

يعدد مآثر النساء وفضلهن بصورة مثيرة فيسأله:

- بماذا يهدي الله سبحانه عباده في الجنة؟

لا ينتظر إجابة ويقول:

يهـدي البـشر الصالحـين نسـاء، نعـم إنهـن نسـاء أروع وأحـلى وأجمــل، عــذروات جميــلات، كواعــب، حــور عــين ...

بلا تردد يقول الأستاذ:

-هـذا مـا يقولـون ويضحكـون بـه عـلى السـذج، عـلى البـشر أن يموتـوا وينتظـروا الدخـول إلى الجنـة ولـن يدخلـوا، لا وجـود للجنـة في الآخـرة، ومـن يريـد أن يصنـع جنـة عـلى الأرض فهـو كاذب، مـن يصنـع جنـة فـوق الأرض بـلا خطيئـة كاذب، لا يوجـد ولـن يسـتطيع ولـم يفلـح الأنبيـاء وغيرهـم وبـاءت كل محاولاتهـم بالفشـل وتقاتـل أتباعهـم وشربـوا مـن دمـاء بعـض.

مال مصري على حامد قائلًا:

- هذا الرجل في رأسه هوس وجنون، هيا بنا.

هَمَّـا أن ينطلقـا، دعاهمـا الرجـل لمشـاهدة المكتبـة التي سـيبيعها، رفـوف متناسـقة ممتلئـة عـن آخرهـا بالكتـب والموسـوعات والتراجـم والقواميـس، أغلفتهـا تعكـس رقي مَـن اقتناهـا وعظمـة مـن سَـطر حروفهـا، يسـتعرض الأسـتاذ في وعـي كامـل كل مـا تحويـه المكتبـة، مكتـب رائـع جميـل تتألـق جوانبـه بصفائـح ذهبيـة مطعمـة بالصدف

وعلى جوانبه وقوائمه تتناغم قطع الخشب المعشقة بالأرابيسك والعاج، ومن خلفه بدا مقعد ضخم دائري من الخشب الصافي، بهر مصري وحامد المشهد.

بلا تردد صاح حامد:

- سأدفع لك ثلاثة آلاف من الجنيهات وللمكتب والكرسي ألفًا فيصير المجموع كله أربعة آلاف، وعلى الله العوض.

في كلمات الأستاذ استجداء أن يزيد الثمن، وهو يقول:

- كانت أمنيتي أن اتبرع بها لمكتبة عامة؛ ليقرأ من يشاء.

يصف الأستاذ ما كان بالأمس، يوم كان يشاد بكل كلمة يقولها، يوم كان الإعلاميون يسعون إليه ليتكلم وينشرون مقالًا مطولًا عن أفكاره وأمانيه، يوم كان يدفع بكتاب لناشر فيتلقفه ويدفع له ما يريد، لماذا ذهبت كل الأضواء عنه؟ لأنه ينتمي لأفكار الوزير إياه، وعلى كل وزير جديد بطانة وأحبة وشلة وكهنة، هو لم يعرف ولم يستوعب، وهذا ما جناه بكلمته التي كانت يومًا صادقة.

يصف المكتبة بثروة عمره.

يلمس الكتب بأنامله وكأنه يودعها، يتطلع لكل الكتب في اشتياق، يتنسم عطر كلماتها، لا يصدق أنها ستهاجر موضعها ومكانها، لا مفر من بيعها هو لم يعتد الاستجداء من إنسان، لم يلتحق يومًا بوظيفة، كان طائرًا حرًّا مغردًا بما يشاء لا يهاب إنسانًا، هكذا يقول عن نفسه.

يضحك ويواجههما بابتسامة بعد أن يزيح الدموع التي كادت، يسحب كتابًا ويستعرض أمامهما عنوانه:

- هذا كتاب من كتب التراث.

فيرد حامد:

- لسنا ممن يحبون القراءة، لا تراث ولا يحزنون.

- جهلة، سيحرق الجهلة البلد.

يحاول مصري أن ينهي الحديث، يضرب حامد على ظهره وبيده يشير عليه من خلف ظهر الأستاذ بالإسراع.

- إن كنتما تعرفان القراءة.

يشير عليهما بالعنوان: «روضة العاطر في نزهة الخاطر»

يقلب أوراقه الصفراء، يقربها من أنفه، يغلقه وهو يقول:

هل تدركون؟ أعرف إنكم جهلة، فصاحب هذا الكتاب عالم وإمام كبير والرجل يقول كلامًا اسمعوا:

«يحمد الله الذي جعل اللذة الكبري للرجال في فروج النساء، وجعلها للنساء في أيور الرجال» يشرح لهما بلا حياء، يضحكان ويقول حامد:

- إمام!!! إنه إنسان قليل الأدب.

يجاريهما الرجل في الضحك ويقسم بأن هذا علم قاله الأولون ولم نعرفه، ولا حياء في علم، يضحك ويسحب كتابًا آخر من كتب عليها علامات القدم، يفتح صفحاته وهو يقص عليهما، أن هذا الكتاب من كتبه كان في أخريات عمره وكانت زوجته التي رافقته رحلته الطويلة غاضبة، وقد ذهب عنه مداعبة النساء فغدا لا يحاول ولا يداعب ولا يلامس زوجته، دعاها فلم تلبِّ فقال لها وهو ينظر إليها نظرة ذات مغزى تعكس حالته الجنسية:

بصورة تمثيلية الأستاذ يحاور نفسه على لسان الزوجين

فـيردد عــلى لســان الــزوج بكلمــات مصحوبــة بتنهيــدة عاجــزة: «مــات مَــن كان يصلــح بيننــا»

وضحـك وسـعل فضحكـت بدورهـا وقالـت لـه: «لقـد نفـذ زيـت المصبـاح»

فتحـول غضبهـا لحالـة مـرح وهـي تـردد: «كنـت دائمًـا متوهجًـا»، فـيرد الرجـل ضاحـكًا: «كان عـودك طريًّـا لدنًـا».

تغضب وتنظر إليه بتذمر:

«وهل أصبح؟»

يلقي باعتذاره قائلًا:

«لم أقل يا حبيبتي يابسًا».

يضحكون، يطالبه الأستاذ أن يرفع الثمن.

يهدد حامد في كلمات سريعة:

- لـن أزيـد عـن خمسـة آلاف جنيـه وبـين البائـع والشـاري يفتـح الله.

في شـبه توسـل مقنـع يطلـب منـه الأسـتاذ مبلغًـا تحـت الحسـاب في تـردد يمنحـه.

في اليــوم الثالــث بعــد أن نقــل حامــد مكتبــة الأســتاذ لمقرهــا الأخـير في قــصر التاجــر الــذي أضحــى معروفًــا، اســتجاب مــصري لنــداء حامــد وهــو يشــير إلى صــورة في الجريــدة الــتي يتصفحهــا أحـد الجالسـين بجوارهمـا في المقهـي، شـعر الرجـل بأنهمـا ينظـران لصـورة الأسـتاذ فقـال:

- مات منذ ثلاثة أيام.

وما لبث صاحب الجريدة أن قال:

- كان عالمًا رائعًا، اختفى عن الأنظار لم يعرفوه إلا بعد موته.

سأله مصري:

- عالم كبير!!! هذا الرجل.

لم يستطع أن يكمل حديثه وإنما استمع لصاحب الجريدة الذي يعدد كتب هذا الرجل ومناقبه وأراءه وعدد الرسائل العلمية التي تمت في أعماله وكتبه، فعدد الدراسات ورسائل الدكتوراه التي تناولت إبداعاته في مختلف علوم المعرفة والثقافة والأدب حتى أراءه السياسية، وسأله المصري عن حالته في آخر أيامه وكيف كانت؟ لم ينس أن يشير أن السبب الرئيسي يكمن في مواقفه السياسية الصلبة التي لم يتراجع فيها عن أرائه.

نظر كل من مصري وحامد لبعضهما وفي وقت واحد قالًا:

- يستحق ما حدث له.

ضحكا ونظر إليهما الرجل بارتياب وطوى صحيفته وابتعد لمقعد آخر.

-٧-

استدعى صاحب المكتبة الجديد حامد من خلال الهاتف المحمول فأسرع ملبيًا وضاربًا له موعدًا بالمساء، فرك يديه وبدت ملامح البهجة فوق وجهه وصرح لمصري بمَن يحادثه واستأذنه في التوجه إليه الليلة ولكن بمفرده.

في اليوم التالي يمد حامد يده بمبلغ ألفي جنيه لمصري يحاول أن يردها ولكن يقسم حامد، استلم حامد مبلغًا يقارب العشرين ألف من الجنيهات.

يسأل مصري:

- هل تفكر في وظيفة؟

- الأعرج في هذا الزمان من يفكر في وظيفة.

يشعر مصري أن كلمات حامد صائبة، يكاد يقتنع بكل ما يفعله أو يردده حامد، يطالبه حامد بأن الليلة عليهما أن يتناولا عشاءهما مع أم وردة، وهو غارق في الضحك وكأنه يجيب على ما بدا في عيني صاحبه.

- حرام أكسر بخاطرها.

علامة حزن داخلية وتساؤلات مطروحة في صدر المصري:

حامد هذا شيطان أم ملاك؟ يلعب بكل الأوراق التي يمتلكها في يده، لا يحمل همًّا للدنيا، يعيشها بكل ما فيها، يحاول أن

يساعد أمر وردة، ولكنه يرتكب جُرمًا كبيرًا في الوقت نفسه، شتات فكر وتداخل رؤيا، ألم يقل أحدهم يومًا إن إبليس مؤمن؟ أم يدعي ويقول يومها ويفسر أن إبليس عرف ربه ووحدَّه، ألم يقل إبليس في كتاب الله الكريم: {فبعزتك لأغوينهم أجمعين}، {إني أخاف الله رب العالمين}، {رب بما أغويتني}.

كلمات صدق من رب الكون تعكس حقيقة إبليس.

هل كل إبليس في هذا الزمان مؤمن ويخاف الله؟

يجره حامد لجلسات يشعر فيها أحيانًا بجهله، إنهم مثقفون في جلساتهم الخاصة ضباب سجائرهم أو جوزتهم يفضي إلى السكر، يقوم حامد على خدمتهم يتكسب من ورائهم فيبيع ويشتري، يشارك في الحديث اللاهث الضاحك الذي يحوي بين طياته جهلًا أو علمًا، يسمع أحدهم يلعن العلم وأفكاره قائلًا:

- العلم يا ولدي شقاء ونقمة والجهل نعمة.

يطلق ضحكة عالية ويستطرد:

- الجهل أفضل نعمة في الزمان الفلل.

يردد آخرُ بعد نفس طويل ومن خلال الضباب الذي يلف رأسه:

- أكبر كذابي الدنيا المثقفون وأرباب القلم، كلٌّ يسعى للكسب تحت أي مسمى، ليس عيبًا أن تكسب ولكن العيب كل العيب أن تتقرب إلى الله كذبًا.

ويرد عليه الأول:

- كل يسعى يا سيدي.

ألم يقل مشركو العرب، إنهم يعبدون الأصنام زُلْفَى؛ تَقَرُّبًا

لله؟ !!

في كلمات مرددة بصورة مسرحية يقول:

- هي مد وجذر.

ينصت مصري لكل الأحاديث الدائرة، يضحك أحدهم وهو يفسر معنى المد والجذر وفقًا لأقوال السلف:

- الثور الذي يحمل الأرض فوق قرنيه، تنفسه هو المد والجذر، ففي زفيره مد وفي شهيقه جذر.

يضجون بالضحك ويصمتون وتتعالى كركرة مياه الجوزة.

ويعود صاحب النبرات المسرحية بالقول:

- جسد الإنسان مُصنَّع وفقًا لمنظومة الكون، فعظم الإنسان من الجبال، لحم بني آدم من الطين والتربة، أما دم البشر فمن الماء: حلوها، ومالحها.

يحاول مصري أن يستدرج حامد؛ ليعرف منه فيرد عليه ضاحكًا:

- كبر دماغك، كلام ما لهش عوزه.

لا يحظى بإجابة ترضيه، هؤلاء المثقفون فما بال الجهلاء، حقًّا إنهم يهيمون في كل وادٍ ويتلاعبون بالكلمات في جنون، ما زال يبحث عن الحرية في كل شيء، يحاول أن يطرح أسئلةً على صاحبه فيتجاهله.

بعدها يذهب حامد في النوم وشخيره يتعالى تِبَاعًا ومصري يجافيه النوم، من كلماتهم الجميلة التي حفرت في ذاكرته، المساواة بين الناس، لكن يعود متذكِّرًا كلمات الشيخ أن الله خلق الناس درجات وعلى كل إنسان أن يلتزم درجته، ومن يتطلع لدرجة أعلى قد يقع في هوة سحيقة وهي الكفر والعياذ بالله، لا

ينسى الشيخ-أيضًا- أن يشير أن هناك بشر فضلهم عمَّن سواهم.

قادم يبحث عن الحرية وجاهل بمعالم الطريق، الدروب متشعبة، لحظات يشعر بالسعادة التي يموج بها صدره ولكنها سعادة خاملة.

حلم غريب يأسره، يجد نفسه بين عجائز يحاول الخروج من بينهم، يشير عليه شخص تبدو على ملامحه الحكمة والوقار، يطالبه أن يقفز وأن يدفعهم:

- يا سيدي إنهم مرضى وكلهم عجائز.

- أن تقفز أو أن تنتظر الدور؟

- أقفز فوق ظهورهم؟!

- أسرع.

- سأقتلهم.

- هم مقتولون.

- ومتى يحين الدور عليَّ؟

- إن لم يكن اليوم فالغد، أسرع اقفز، ادهس رؤوسهم، خذ دورك لا تتكاسل.

- يموتون، وأنا قاتل.

- قلت لك: هم ميتون.

- لم أحترف القتل، لم أقتل يومًا.

- إذن اذهب فمت.

- إزهاق الروح حرام.

- حتى تقيم ببلدك سيسألك مساعد الفرعون أسئلة وعليك

الإجابــة، إن نجحــت أخــذت لقــب مواطــن.

- مواطن!!!

- نعم ولكل مواطن درجة لا يتخطاها.

- من يرسب؟

- مطرود.

- إلى أين؟

- لبلد آخر يتسول فيه حياة.

- يتسول!!

- عليــه أن يعتــاد حيــاة الــرق، يعيــش مــنزوع الأظفــار ومُرَاقــب بجواســيس في كل الأنحــاء، حــتى أركان البيــت والحديقــة والشــارع.

- موافق.

- بعت.

- هل من حقي أن أقبض الثمن؟

- أي ثمن؟

- ثمن غربتي.

- لا ثمــنَ لــك، أنــت مجــرد نفــر، أهلــك أيضًــا أنفــار أو أصفــار، عبيــد وســتظلون، اخلــع ثيابــك حــلَّ موعــدُ جلــدك.

يصرخ ويقوم فزعًا من نومه.

ينظر حوله ويدعك عينيه، يجفل من ضحكات حامد:

- ماذا حدث؟

- يبدو أنك تحلم.

يتذكر بأنه كان أسير حلم، كم يتمنى أن ينتقد أفعال حامد ولكن يخاف أن يأخذ نقده بمحمل خطأ، ماذا ستكون النتيجة؟ يعاتب نفسه وعلام ينتقده؟ هو يأخذ من الدنيا مثلهم والجميع يلهثون، أموال تتدفق وبشر ينعمون ويحاولون إسعاد أنفسهم، يبحثون عن المتعة وهو أحيانًا يبيعهم المتعة وأحيانًا يبحث وينقب ويشتري بما يثبتون به أنهم أثرياء حتى في الفكر، يباشر أعماله من بيع وشراء وسمسرة، فلعبة السمسرة التي أجادها يقول عنها: إنها بلا رأس مال، أخبره أن البداية كانت قمة المعاناة، كان يرفع على كتفيه الرمال ومشتملات البناء فوق كتفيه، كان يومه يبدأ من شروق الشمس وحتى غروبها، كان ينتظر مع المنتظرين قادم يستأجرهم لعمل، قد يأتي مقاول أنفار يذيقه ومَن معه المرارة والهوان وعليه وعليهم الرضوخ والرضا، عندما يحدثه يضحك حامد وهو يردد:

- عمر الحداية ما ترمي كتاكيت.

يذكره بأفراح الكبار في البلدة والكل يسارع في إرضاء الكبير، ففرح السادة أفراح للعامة، أليس كذلك؟ حامد يتحدث بلهجة واثقة وأحيانًا بكلمات يحفظها ممن يعيش بينهم وخاصة أرباب الكلام فيقول:

- لا وئام وسط اللئام.

علينا أن ننسى كل ما فات، أن نهيل التراب على السابق كله، علينا أن نفتح أعيننا، فالغد قادم محمل بالخيرات يستطيع أن يجني ثمارها من يساير الركب.

يردد أحاديث وحكايات لا يملك أمامها مصري سوى الإذعان والصمت، أم وردة؟ أكثر من مرة في الليل ويجد حامد قادمًا

مـن حجرتهـا، لا يتسـلل ولا يهتـم بـأن يعـرف مـصري أو لا يعـرف، ممارسـاته تلـك تعكـس أن مـا يفعلـه هـو الصـواب، ويقـول: إنـه يخـاف عليهـا الفتنـة، ومـاذا يفعـل هـو؟ مـرة أخـرى يـشرح ظروفهـا الـتي تعيشـها ويُجَمِّلُ أفعالـه قائـلًا: «ربنـا بـيرزق وهـي وابنتهـا لهـم نصيـب».

يردد : ما زال في قلب حامد متسع للخير.

يتحدثـان فيفيضـا بحكايـات الغلابـة والمحرومـين مـن أهاليهـم في بلدتهـم البعيـدة، يشـعران بأنهمـا مجـرد ريشـة تتحـرك طبقًـا لدرجَـات الريـاح وقوتهـا واتجاههـا، عليهمـا أن يـتركا نفسـهما فليـس الأمـر بيدهمـا، مجمـل مسـيرة حياتهمـا مسـايرة الدنيـا، مفعـول بهمـا وعليهمـا الضحـك وإن ذهـب العقـل فهـذا أفضـل.

عـلى كلٍّ منـا أن يغـرس نفسـه في باطـن الأرض كالوتـد أو كالجبـل، الاستسـلام لريـاح العاطفـة والحـب والوَلَـه يـؤدي إلى الفقـر.

يسمعه ويصغ إليه جيدًا:

- علينـا أن نرسـم ملامـح الغـد، فمـن ملـك المـال ملـك زمـام الأمـور، لا مانـع مـن رسـم الـبراءة فـوق وجوهنـا، لا تـدع الـبراءة تنـام داخـل جسـدك فنحـن رهـن كذبـة حياتنـا الكـبرى، لـو أظهـرت حقائـق نفسـك سـتنال مـن السـخرية مـا يفـوق قدرتـك عـلى التحمـل فعليـك أن لا تظهـر مـا تبطـن.

مـا زال مـصري شـغوفًا بأفـكار الحريـة الـتي يسـعى إليهـا، راحتـه وواحـة أمانـه أن لا يُعَكِّـرَ صَفْـوَ يومـه إنسـانٌ يكيـل لـه السـخرية وهـو يبتسـم، هكـذا كانـت حياتـه، لـم يشـعر بـأي تعـب في التجنيـد، كلمـا خـرج للشـارع في إجـازة يمـضي في الـدروب والشـوارع ويتنسـم بعمـق،

رغـم الـتراب والضوضـاء، النـاس متزاحمـون متكدسـون وشـوارع زاخـرة بـكل المتناقضـات، أطفـال رجـال نسـاء وباعـة جائلـين، سـوق ضخمـة أصبحـت الشـوارع، والـكل يلهـث ويتابـع الحيـاة ويبحـث عن المكسـب، حـتى المخلفـات الـتي تكتـظ بهـا الشـوارع أصبحـت أحـد المعالـم المهمـة، يحـس أن البـشر حواسـهم وعيونهـم مسـحوبة لدنيـا أخـرى.

«هناك جني يركب جسد حامد ويتكلم بلسانه!!!»

أشـعر أن هـذا الجـني تَمَلَّكَـهُ، عصـب عينيـه عـن الحـق، يحـاول أن يرفـع عنـه الحـزن ويـزرع بـذور البهجـة داخـل صـدره، تتفتـح وتثمـر أمـاني تتفجـر وتتوالـد، تعشـش أفـكارًا جميلـة تسـحبه بعيـدًا عـن الواقـع المؤلـم، أصبـح لا يهتـم بحديـث يقـال أو يـتردد ويـأتي كل الأفعـال الـتي يتمناهـا والمحـروم منهـا غالبًـا.

***

الليلـة مـن الأيـام الـتي يشـعران فيهـا بلـذة الأكل في المـنزل، يشـعر المـصري بجمـال الغـداء الـذي تطهـوه أم وردة، فيقبـل عليـه وكأنـه طعـام أمـه نفسـه، حامـد لا يأبـه لذلـك وكل مـا يقولـه: إنهـا لحظـة جميلـة أن يشـارك تلـك الإنسـانة وابنتهـا، يسـتغرب مـصري كـم الـبرود الـذي يحتفـظ بـه صاحبـه، غالبًـا تجمعهـم المائـدة المتهالكـة في حجـرة حامـد، مـع أم وردة وبنتهـا.

يسـتخدم مـصري الهاتـف المحمـول دومًـا حـتى في اتصالـه بأمـه وإخوتـه، هاتـف حامـد مغلـق، يكـرر المحاولـة كل عـشر دقائـق، أم وردة وابنتهـا والجميـع في انتظـار حامـد، لـم يـأت ولـم يتصـل،

تحـاول أن تخفـف مـن توتـر مـصري بـأن للغائـب حجتـه..

بـدا عـلى الطفلـة ميلهـا للنـوم، قامـت بتقديـم العشـاء للطفلـة، طلبـت منـه أن يحمـل الطفلـة بـين ذراعيه لتضعهـا في سريرهـا فحمل الطفلـة لحجـرة أم وردة، مجـرد أن وضـع الصغـيرة في مخدعهـا أسرع بالخـروج متوجهًـا لحجـرة حامـد، يهاجمـه شـعور غريـب، أم وردة تنظـر إليـه نظـرات تدخـل القلـق إلى نفسـه ولا يجـد لبعـض الكلمـات تفسـيرًا، عـادت إلى الحجـرة مـع دقـات هاتفـه المحمـول، أسرع يسـتعرض شاشـة هاتفـه، بـدت عـلى وجهـه علامـات الارتيـاح.

- الحمد لله.

- سي حامد؟

تطلـع إليهـا وهـو يـردد كلمتهـا مصحوبة بلقـب سي، كأنه يسـخر من كلمـة سي، سـلمها الهاتـف واسـتكملت حديثهـا مـع حامـد، تضحـك ضحكـة مسـحوبة بموسـيقى لا تتناسـب ووضعهـا، يتبـادلان حديـث مـرح تطـول مدتـه عـبر الهاتـف، يخبرهـا بأنـه مسـافر وقـد يغيـب لمـدة يومـين أو ثلاثـة عـن القاهـرة، كلماتهـا الولهانـة وهـي تقطـر حنانًـا وتصـف حالتهـا لبعـده تلـك المـدة الطويلـة، يختلـس نظـرات إليهـا، يرتفـع ذيـل فسـتانها، بـدت سـاقاها لامعتـان مصقولتـان حديثًـا، تشـعان بريقًـا وكلمـا ارتفـع الذيـل مواكبًـا ضحكاتهـا تهتـاج أعضـاء جسـده، يحيـد بعينيـه بعيـدًا، يلاحـظ الفـرق الشاسـع بـين سـاقي أم عبـاس وسـاقي أم وردة، لا ترهـل يظهـر، تماسـك وصلابـة وتوافـق وذات مقاييـس جديـدة عليـه، لفـة السـاقين والربلتـين تنتهـكان مـا تبقـى مـن إنسـانيته الصامـدة، أفعالهـا وحركاتهـا تدفعـان بثوبهـا فـيزداد ظهـور مـا خفـى، هـل مفتعلـة ومتعمـدة أو وضـع طبيعـي؟ هـل وراء نظراتهـا الـتي زادت اتسـاعها وجمالهـا بعـد

أن كحلتها لتوها هـدف؟ عـاد إليـه تلجلجـه في الحديـث، يحـاول استجماع عبارة كاملة ولكـن تهـرب الكلمـات مـن فيـه، مـا زال كمـا هـو فـلا جسـارة فعـل اكتسبها ولا اندفاعًـا وطيشًـا، عيناهـا تقـولان أشـياء ووجنتاهـا عامرتـان بشـباب وحيويـة، يغـوص في المـاضي، متعمـدة أن تميـل وهـي تطلـق ضحكاتهـا، فتكـون فتحـة ثوبهـا كفيلـة بـبروز أغلـب نهديهـا ومفرقيهمـا، يظهـر جليًّـا جيدهـا العاجـي المرمـري أو هكـذا تصـوره للحظـة، كلماتهـا عذبـة رقيقـة ناعمـة وهـي تتحـدث إلى حامـد وعينيهـا تفتـكان بمـصري، تكبـل عينيـه وبـصره فيظـلان أسـيران أي فعـل تقـوم بـه، انفعـالات تمـوج بالمـرح فـوق صفحـة وجههـا، هـو لـم يجـرب شـباب الجسـد، وأم وردة مـا زالـت في ريعـان شـبابها، لا يثـق في ذاتـه، نهـج لـم يتغـير ومـا زال يعيـش أحلامًـا بعيـدةً عـن الواقـع المحيـط بـه، مزيـد مـن الحركـة يتبعهـا عـري أكـثر، يمتـص ريقـه حـتي يجـف حلقـه وترتعـش أجـزاء جسـده وتـبرق عينـاه.

تشـتعل وتسـتعر النـيران تـأتي عـلى كل خلايـاه وأعضـاء جسـده مـا ظهـر منهـا ومـا اسـتتر، تغمـره الحـرارة، تـدرك مـا أَلَـمَّ بـه، تلقـي بهاتفـه المحمـول، تتراجـع للخلـف حـتي تتوسـط المخـدع وابتسـامة تمـلأ وجههـا، ودعـوة تنـام في عينيهـا، لـم يجـد مفـرًا مـن الاقـتراب، جاذبيـة كاد أن ينسـاها وهـوى عربـد وفجـر وتفجـر فاقـترب، عـروق نافـرة ورعشـة ووهـج وزفـرات تلتهـب كلمـا دنـا، يتقـدم وهـو مسـلوب الإرادة، شـهقات متتابعـة بـين اللـذة والبـكاء ومزيـج مـن النـواح والبهجـة، تطالبـه بالتريـث وتخـترق نظراتهـا جسـده، تنقشـع الأتربـة فيتأمـل، أول مـرة يـرى جسـدًا لأنـثى حقيقيـة، يبتعـد للخلـف لمزيـد مـن التأمـل وتبـدو الدهشـة فـوق وجههـا.

حقيقـة لا سراب، يعيـش لحظتهـا، يستسـلم، في عفويـة غريبـة تتكلـم، تسـتأثر بلبـه بحكايـات قهرهـا وحياتهـا البائسـة، يفكـر مـاذا يحـدث فيمـا بعـد؟ هـل سـتقص لحامـد مـا كان منـه؟ هـل هنـاك احتمـال أن يطـرده حامـد؟

قبـل أن تفارقـه وتذهـب لحجرتهـا طالبتـه بمبلـغ مـن المـال، يـود أن يسـألها لمـاذا؟ نظراتهـا المملـؤة بالعهـر والفسـق، تقـترب أكـثر وتحتـك بـه بقـوة، يـدرك المغـزى، يهبهـا مـا تطلـب عـن طيـب خاطـر.

يستجديها أن لا تقص على حامد ما حدث.

تضحـك وهـي تلـوح بالنقـود وتطالبـه بالمزيـد، يستسـلم لطلبهـا ويمنحهـا وهـو يلعنهـا في سره، تـرن في أذنيـه كلمـات حامـد عنهـا كإنسـانة ذاقـت ألـم الدنيـا وتحملـت في سـبيل أن تعيـش وتـربي ابنتهـا بؤسـها وشـقاءها وإنهـا تسـتحق الشـفقة وامتـداد يـد المسـاعدة، يصفهـا بأنهـا إنسـانة رائعـة، أي روعـة يقصدهـا صاحبـه؟ إنهـا تبيـع جسـدها لمـن يشـتري، كيـف استسـلم لهـذا الفعـل؟ تمـنى نسـيان المـاضي، نظـرات أمـه المعاتبـة اللاعنـة لـه تطـارده، هـا هـو يقـترف الأثـم نفسـه الـذي يـورث الفقـر، إلى أيـن يذهـب بعـد ذلـك؟ لقـد انزلقـت قدمـه لبحـر جديـد آخـر كان مهمومًـا أن يهـرب مـن الغـرق فيـه، فـترة طويلـة هـدأ وعادتـه سـكينته المفقـودة، عندمـا يمـشي في الشـوارع يشـعر بالحريـة الـتي منحهـا الله لـه، يشـعر بالخـير الـذي بسـط بـه الله يـده إليـه، مزيـد مـن الشـكر لله، لكنهـا مجـرد لحظـات وقـد يركـب فـرس أحلامـه فيركـب الغـرور رأسـه، كان مثـل طائـر يطـير قريبًـا مـن السـحاب، خطابـات وأسـئلة كثـيرة تمـلأ رأسـه تتعاقـب فتعيـده لحظيرتـه، يحـس أنـه مجـرد إنسـان لا يفـرق كثـيرًا

عـن الآخريـن بـل أقـل منهـم، يتمـنى أن يمـرغ خديـه في الـتراب، يعـود فيسـجد ويقـترب فيتطهـر ويغتسـل ويـزرف الدمـوع ويجهـر بالدعـاء «يـارب ... يـارب».

مجاذيـب حلقـة الذكـر البسـطاء يصرخـون، لمـاذا؟ أَلَـمٌ أَمْ هَيَـامٌ وحـبٌّ، تختلـط الأمـور ويـزداد الضبـاب فيحجـب رؤيتـه، يتمـنى هبـوط نـدى الصبـاح الصـافي فيغسـله مـن تـراب ودخـان مسـموم تكثـف وتكاثـر فـوق خلايـا جسـده، يدعـو ويدعـو وعليـه أن يفكـر في الهـروب مـن جديـد ولكـن إلى أيـن؟ يعاتـب نفسـه عـلى فعلتـه، يبـكي، نعـم خطيئـة، ولكـن كل البـشر يرتكبـون المعـاصي فليـس هـو نـبي معصـوم.

أمـام حزنـه وندمـه تخـرج مواويـل حزينـة بغنـاء فطـري، كلمـات عبـارة عـن مرثيـات حفظهـا منـذ طفولتـه.

أيهمـا أفضـل الحيـاة يائسًـا أم المـوت والظفـر بالجنـة وبالحـور العـين؟

-٨-

تتكـرر الجلسـات مـع المثقفـين، يدفعـه حامـد للذهـاب معـه، هـم يبحثـون عـن المـزاج للإبـداع الـذي ينتظرونـه وحامـد يبحـث عـن مزيـد مـن الكسـب، هـو لا ينكـر أن حامـد دائمًـا يجعـل لـه نصيـب فيمـا ينالـه، أيًّـا كان مقـداره هـو لـم يشـارك حقيقـة في الفعـل وإنمـا يتكسـب فقـط، لكـن تلـك الجلسـة وهـذا المـكان كـم هـو ثقيـل عـلى نفسـه، يشـعر بأنهـم كاذبـون يدعـون الإيمـان ويقيمـون شـعائر الديـن وفـق رؤياهـم الخاصـة، أهـم الأشـياء أن الكثـير مـن أحاديثهـم يحفظهـا وأغلـب الأحيـان لا يـدرك مغزاهـا، يقلـب الكلمـات الـتي يحفظهـا:

«يسـكن الله جسـدنا، علينـا أن نحـرره مـن داخلنـا لنعبـده، نتحـرر مـن أغلالنـا الـتي صاغهـا الأخـرون، نلتمـس الغـرق والنجـاة».

ومرة ثانية يقول أحدهم:

«الجنـس مبعـث الحيـاة وبدايـة الكينونـة، تنمـو بـه الحيـاة، الجنـس نجاسـة علينـا أن نتطهـر منهـا، الجنـس مبـاح وغـير مبـاح».

ويبدو تناقض الكلمات التي يتداولونها في:

«هـل احتياجـي الجنـسي إليـكِ هـو سـبب حـبي لـكِ؟ إن كان الأمـر كذلـك تعـالي نفـرغ مـن طاقتنـا الجنسـية ولـنر النتيجـة بعدهـا، فـإذا ظهـرت بـوادر الحـب فأهـلًا ومرحًبـا وإن لـم تظهـر تخلصنـا مـن فائـض انفعـالات حبيسـة ترهقنـا وهـذا شيء جيـد؛ لأنـه يقتـل

أفـكارًا مترديـة في متاهـات.

يتأمـل ضحـكات السـيدات الـتي تتعـالى أكـثر مـن الرجـال، ينتظـرن مزيـدًا مـن كلمـات الولـع الجنـسي، مـن كلمـات لا تتقنـع بحيـاء تنطلـق مـن الأفـواه تمـوج بثقافة وفكـر لا يسـتطيع أن يسـتوعبه وهو القـادم مـن أعمـاق التخلـف والرجعيـة، هكـذا يصـف نفسـه أمـام رقيهـم وثقافتهـم، الجميـع ينتظـر حديـث الأكـثر خـبرة فيقـول:

«هاجـس غريـب يتملكـني، لقـد عزفـت عـن الدنيـا ومـا فيهـا، كرهـت المـرأة والجنـس، كنـت أتمـنى راحـة البـال، غصبًـا عـني أتأمـل أزواج الطيـور والحيوانـات وشـبقها الجنـسي، بعضهـا يتقاتـل وبعضهـا يغـرد وهـو يمـارس، إن عمليـة التفريـغ مـن الكبـت الجنـسي بدايـة لحيـاة أفضـل، فـإن الطاقـة الكامنـة داخـل البـشر تفيـض وتثـور ويبـدع الإنسـان أكـثر وأكـثر، فيخـترق حجـب وجـدران الصمـت القهـري، يحلـق في أفـق الإنسـانية الرحـب الواسـع البحـر بلا ضفـاف، سـيطوف في بقـاع المعمـورة رغـم جلوسـه في مكانـه ولـم يبرحـه، سيسـبح عقلـه فيجـوس ويكشـف ويستكشـف أُفقًـا رائعـة جديـدة، لا تنسـوا أن الأنبيـاء صامـوا واحتجبـوا وصـبروا، هـي قـدرة وإنهـم فـوق البـشر، فالصـوم عـن الجنـس قضيـة يجـب أن نـترك الأبـواب لهـا مفتوحـة لنتخلـص منهـا فـورًا، أغـلال تقيـد العقـل والفكـر».

مثقفـون ويدعـون المعرفـة بـكل شيء يصيبونـه بـردة غريبـة في معتقداتـه ومعارفـه، عليـه أن يتعلـم منهـم، لكـن مـاذا يتعلـم؟ إنهـم يتحدثـون بطلاقـة غريبـة عـن أفعـال مرذولـة، هـم مـن آخُـذُ وغـيري العلـم والمعرفـة منهـم، لا شـاطئ لأفكارهـم ولا حواجـز توقـف نزيـف كلماتهـم الخارجـة غالبًـا، مـا يذهـب بعقلـه أنهـم

كثـيرًا مـا يتكلمـون في الجنـس وتشـاركهم نسـاء، يضحكـون ويتبادلـون أقـذع الكلمـات، هـل كل حياتهـم عـلى هـذا المنـوال، وكيـف تتقبـل السـيدات تلـك الحـوارات؟

ينفـض عـن رأسـه الأفـكار، يحـاول أن يزيـح عـن رأسـه سـتائر عـادات وتقاليـد بليـت وتفتقـت واهـترأت.

لكن ذاكرته ما زالت تحتفظ بالكثير.

يتذكر حديث الشيخ الغريب:

«يقـول رسـول الله صلى الله عليـه وسلم: أخـوف مـا أخـاف عـلى أمـتي رجـل منافـق عليـم اللسـان، غـير حكيـم القلـب، يغيرهـم بفصاحتـه وبيانـه ويقتلهـم بجهلـه».

هم الفصحاء العلماء.

كان ومـا زال لا يفقـه عـن جمـال النسـاء الكثـير، كانـت أقـصى أمانيـه في المـرأة أن يقـضي وطـره منهـا، لكـن الخـوف مـن تلـك المصيبـة الكبـيرة ينصـب أمـام عينيـه نـيران مشـتعلة لا تنطفـئ هـي نـيران جهنـم والآخـرة، يخبـو أملـه ويحـاول دومًـا أن يكـسر أوهـام أمانيـه، لا يعـرف مـن مواصفـات جسـد المـرأة شـيئًا، تعـج ذاكرتـه بمواصفـات سـمعها ودونهـا في رأسـه فيقولـون:

عيناهـا فنجـان وبطنهـا كمـا العجـين الخمـران والفـم بالفراولـة، أمـا الـسرة فخاتـم سـليمان والرقبـة كمـا رقبـة الجمـل.

لـم يتركـوا جـزءًا إلا ووصفـوه، فهـي الفـرس الـتي تحتـاج لفـارس يجيـد القفـز فـوق ظهرهـا يراقصهـا آوان الرقـص ويهديهـا قطـع السـكر ليفـوز برضاهـا، لكـن المـرأة متجـبرة متغطرسـة تسـتطيع أن تسـوق الرجـل لمنتهـاه، تسـتطيع أن تسـقطه مـن فـوق ظهرهـا

بسهولة.

لا يتنكر لجهل يرزح فيه، بدائية في تناوله لأفكار البشر الحديثة، تختلط بريقه مرارة البائسين غالبًا، ويخاف لون الدماء ويعشق كل ما تبثه الطبيعة من ألوان مختلفة وما تشدو به كل الكائنات، يشعر بمتعة غريبة.

عندما يسأل حامد وتتكرر أسئلته ينفجر فيه، تخرج كلماته كما الطلقة، لا تعرف العودة لأدراجها، كلمات سريعة غاضبة من صاحبه:

نعم يا سيدي تغتصبنا الحياة بكل مطالبها وتحولاتها ومتغيراتها، تغتصب عذريتنا براءتنا طفولتنا، يصمت ويعاود لعن الحياة بكل ما فيها.

حامد هذا الذي ينعم بكل لحظة في حياته، يعيش ولا يلقي بالًا لأي فعل يأتيه، يجاهر بالفاحشة ويتحدث عنها بمرح غريب، ذهول ودهشة يستوليان عليه، كل ما يدور حوله يبعث على الجنون هكذا خُيِّل له، حيرة وشتات وقلق ورغم كل هذا يشعر بزهو غريب كونه حاز مؤخرًا على حريته التي كان يرجوها، ها هو خارج حدود بلده وموطنه، لكنه لم يستطع فك شفرات الحياة ومتغيراتها حوله، فكيف يساير تلك الدنيا، عليه أن ينزع قشرتها الظاهرة، لكن كيف؟ يشعر وكأن إبليس أصبح صاحب اليد العليا فوق أفئدة البشر، تحاصره الأفكار ويبحث عن ملاذ، يخاف من ذلك الجني الجديد عليه الذي يركب رأسه.

بعد صمت لم يدم كثيرًا، يحاول حامد أن يُغَيِّرَ دَفَّةَ الحديث معتذرًا لصاحبه عما بدر منه، يداعبه حامد بكلمات قد تكون قاسية بعض الشيء ولكنها تخرجه من ورطة الفكر الذي ينزح

فيـه كثـيرًا، أمـام مـن يفجـر مـا حـاق بـه مـن لعنـة، تـأتي كلمـات حامـد بـألا يلقـي بـالًا للدنيـا، فـالله مسـيرها وفاتـح بـاب رحمتـه ومغفرتـه في الليـل والنهـار، علينـا أن نسـتغفر فحسـب والله كفيـل بالرحمـة.

يتقلد حامد منصب العالم بالدنيا قائلًا:

نعـم مظاهـر اجتماعيـة خادعـة، عنـاق كاذب، ابتسـامات منافقـة، عفـن نائـم داخلنـا جميعًـا أثريـاء وفقـراء لـن تجـدي كل عطـور الدنيا لـو أفرغناهـا وسـكبناها فـوق أجسـادنا أن تغـير تلـك الرائحـة العفنـة الكريهـة المنبعثـة مـن داخلنـا، أجسـادنا تنهشـها الغـيرة والتطلعـات الغريبـة، نظراتنـا تشـع خبثًـا ولؤمًـا.

يضحك ويشعل سيجارته ويلقي برأسه للخلف.

لا تبحث عن الأخلاق كثيرًا ستتوه.

يـرى مـصري في كلمـات صاحبـه الكثـير مـن الصـدق، رغـم قسـوتها ومـا يتمتـع بـه حامـد مـن جسـارة وغـرور كثـيرًا مـا يركبـه فإنـه يوافقـه على رأيه.

الفصل الثالث

-١-

يتحدث المثقف الكبير ومصري ينصت بانتباه بالغ فيقول:

«الاسم مجرد بطاقة اجتماعية للتميز في الحياة، يولد الإنسان بلا اسم، يطلقون عليه اسمًا، يموت الإنسان ويحمل اسما وإثمًا، لو بدون اسم يدفع حق إثمه، قليلون لا يحملون الآثام، أطفال أو أشخاص مرفوع عنهم القلم ورسلٌ وأنبياء، رغم أن الأنبياء لم يفلتوا بعصمتهم من ادعاءات بني إسرائيل، فمنذ بدء الخليقة ارتبط الإثم بالإنسان، قتل الأخ أخاه، وكذب سيدنا يعقوب على أبيه ليأخذ منه البركة بدلًا من أخيه بمساعدة أمه، وأبناء يعقوب كذبوا بدورهم، وصل الأمر أيضًا إلى سيدنا موسى فقتل وأثِم أيضًا، أما لوط فقد زنا ببنتيه وأما سيدنا سليمان فقد أنساه حبه للنساء ذكر ربه».

مصري يستمع وترتعش فرائصه من تلك الكلمات التي يطلقها هذا المثقف الكبير، يخاف أن يجهر بما يأكل قلبه، تقلد منصب قائد الدفاع عن الدين أو هكذا صورت له نفسه، أخذته الحمية والعاطفة الجياشة فشعر وكأن أنفاسه تتلاحق وتهيؤات تجسمت في رأسه، وتمنى أن تكون لديه القوة والجسارة والبطولة المرجوة فيمزقه، تذكر كينونته وهوانه في الدنيا وبين الناس، عقد مقارنة واكتفى أن لا يجهر وسر في نفسه.

«هذا الرجل المجنون الزنديق الكافر يدعي على أنبياء الله،

الرسـل والأنبيـاء المعصومـين مـن قِبـل رب السـماء يلوثهـم بهـذا الـكلام الجـارح، هـل وصـل بـه التطـاول إلى هـذا الحـد؟ أعـوذ بـالله مـن الشـيطان الرجيـم».

يقطع حامد حديثه مع نفسه:

- سرحان؟

- الراجل الكافر يقول على نبي الله زنا ببنتيه والآخر كذاب.

- ربما كان صادقًا.

- أنت مجنون، استغفر ربك.

يـترك حامـد كـرات الجمـر المتوهجـة في مكانهـا وبـلا تـردد يسـأل المثقـف الكبـير كمـا يدعونـه ويطلقـون عليـه:

- يا مولانا.

تتوجـه أبصارهـم إلى حامـد الـذي بـدوره يسـأل عـن صحـة مـا ذكـره الأسـتاذ، يسـحب الأسـتاذ نفسًـا عميقًـا ويزفـر ضبابًـا كثيفًـا ولا يسـعل، يـشرح ويفيـض في الـشرح أن اليهـود وهـذا موجـود في كتبهـم هـم مـن قالـوا ونحـن ننكـر هـذا بالطبـع، ينسـحب الأسـتاذ بكلماتـه، ويتدخـل مـصري:

- لماذا نردد أحاديثهم؟

- لمجرد العلم بالشيء.

- كلمات تجهر بالكفر.

يسـأله عـن شـهادته فيتلعثـم ولا يـرد، يصـف مـصري بالجهـل والسـطحية في الفكـر، اتخـذوه هدفًـا لسـخرياتهم الـتي انطلقـت، تتـوالى كلماتهـم تقذفـه بالصفـات السـيئة الجاهلـة، يصفونـه بأنـه

وأمثالـه ممـن يتشـدقون بالقـول وينصبـون أنفسـهم حمـاة الديـن والشريعـة هـم سبب تخلـف البلـد كلهـا، وكأنهـم وجـدوا هدفهـم، فانطلقـت سـهامهم تطعـن بـلا تـردد، تسـتهزئ بألفـاظ وكلمـات لا حيـاء فيهـا، انسحب مـصري ومـن خلفـه حامـد، يحـاول حامـد أن يهـدئ مـن ثائـرة صديقـه لقـد نالـه منهـم الكثـير، يعاتبـه حامـد بأنـه طلـب منـه أن يجلـس في البيـت ولكنـه صمـم عـلى الحضـور، يطلـق عللًا وأسـبابًا في ضيقـه مـن الجلـوس في البيـت بمفـرده، يتمـنى أن يفصـح لحامـد عمـا كان مـن أم وردة، لا يسـتطيع، ربمـا أثـارت كلماتـه غـيرة حامـد، ولكنهـا ليسـت زوجتـه أو مـن بقيـة أهلـه ليغـار عليهـا، لا يحبـذ الخـوض في هـذا الموضـوع الشـائك، عليـه أن يحتفـظ بهـذا الـسر ويجعلـه رهـين قلبـه فحسـب، كانـت مفاجـأة لم يتوقعهـا عندمـا جابهـه حامـد وهـو يضحـك قائـلًا:

- أغلق الباب على نفسك.

بدا الانزعاج على وجه مصري

- لماذا؟

- حتى تستريح منها.

- مَن؟

لا يهتـم بسـؤاله وفي نظـرة لـم يسـتطع مـصري تفسـيرها، ابتسـامة تحمـل بـين ثناياهـا معـانٍ، بعـد وكـزة خفيفـة في جانبـه يطرح سـؤالًا:

- لكن ما رأيك فيّ؟

يغمز له بعينيه مبتسمًا..

- أنت قليل الأدب.

- وأنت رجل عبيط.

حوار طويل يمتد طوال الليل، لم يجد مصري مفرًّا من الاعتراف بكل شيء بعد أن أحكم وأغلق عليه دروب تهربه، راح يلعنها ويلعن من خلفوها ويصفها بالكرب وكيف استطاعت أن تخرجه من جنة حيائه، بكى وشكى لصديقه مر الشكوى، حامد يكاد يقع على الأرض من كثرة الضحك وهما يمشيان في الطريق، يصفه مرة بالسذاجة وأخرى بالطيبة والجهل بأمور الدنيا والحياة من حوله، يضحك أكثر وهو يصفه بالبخل كما وصفته أم وردة، علامات تعجب فوق وجهه بادية، صاحبه لا يرحم ويواصل سخرياته وتعليقاته المرحة التي تترك أثرًا غائرًا في صدر مصري، يدينه ويرفع عن وجهه نقاب التقوى والإيمان، يقبع لسانه في جوفه كلما يهم بكلمة تتوه أمام ضحكات صاحبه، بدا الشارع شبه خاليًا من المارة تلك الساعة، تنفَّسَا وتحدثَا بكل حرية، يجلس على الأرض فوق الرصيف فيجلس حامد بجواره وهو يمسح الدموع من عينيه من كثرة الضحك المبكي، يشعل سيجارتين يقدم إحداهما للمصري.

- حاول أن تكون أكثر كرمًا.

يوكزه بكوعه وكزة خفيفة في صدره:

- كفاية حرام عليك.

يغوص حامد في الوصف ويبدو وكأنه عارف ومدرك بكل ما تموج به رأس المرأة من أفكار، يتكلم ويفيض وكأنه الخبير العليم بكل شئون نساء الكون، يدعوه أن لا يخاف منها، أن لا يبتعد عنها أو غيرها، فيهنَّ المتعة واللحظات السكرى الجميلة، فكيف يحيا الإنسان بدونهن، فالمرأة بكل ما تحمل من نزق وفجور قادرة أن تذلَّ أعظم الرجال، ويمكن أن تهب الدنيا أروع

القـادة والعلمـاء، إنهـا ممزوجـة بأشـياء مختلفـة متناقضـة، بـدا وهـو يتحـدث ومـصري ينصـت غـير مصـدق مـا تجـود بـه قريحـة زميلـه وحبيبـه، يتحـدث عـن المـرأة الـتي اسـتطاعت أن تنهـي بيدهـا أسـاطير عـن أشـجع الرجـال، ينتقـل في وصفـه فيقـول: إن ملكـة النحـل يواصـل كل الذكـور السـباحة والطـيران خلفهـا، وأول مـن يلقحهـا يكـون نصيبـه المـوت وهـو يـدرك تلـك الحقيقـة ويسـبح ويطـير خلفهـا، هـي البدايـة والنهايـة وهـي الملكـة والأم والأصـل، فالمـرأة تشـدو بالحـب، تلمـس شـفتاها أنَامِلَـك وتطـرق أذنيـك أعـذبُ كلمـات الهـوى والعشـق، مـن لمـس أناملـك شـغفًا تواصـل زحفهـا المقـدس فتبتلـع الأصابـع، بعدهـا تسـحب الـذراع كلهـا، في النهايـة تبتلـع الجسـد كلـه، تتبقـى صـورة شـبيهة بالأصـل، كل البـشر وكل الرجـال يمارسـون نفـس الطقـوس والأفعـال وكل الدنيـا مرهونـة بوجـود المـرأة.

يتأملـه وهـو يتكلـم وينفـث دخـان سـيجارته مثـل المثقفـين إياهـم، يسـحب مـصري نفسًـا طويـلًا مـن سـيجارته ويسـأله:

- كل النساء؟

- نعم كل النساء.

- وأمي وأمك وأختي وأختك و..؟

يوقفه وهو ينهض ليواصل المسير:

- لا عليك لا تفكر كثيرًا، اترك الأمور لصاحب الأمر.

- هل تفكر في الزواج؟

وكأن سؤال مصري أعاد إليه صوابه.

- نعم أفكر ولم يحن الموعد بعد .

- من كوكب ثان؟

- سأذهب إلى بلدنا.

- وهل بلدنا بعيدة عن كوكب الأرض؟

- زوجة صالحة.

- وهل نساء بلدنا كلهنَّ صالحات؟

- أفكر يومها في فتاة بنت ناس طيبين.

- وما أدراك؟

- مظهرها يعكس.

- كثيرًا كانت المظاهر كاذبة.

- بنت مثل أختك.

عندها عمهما الصمت، حامد يحاول أن يقرأ ملامح صاحبه ولكن الشارع أنواره خافتة لا تعطيه الفرصة ليستبين ما أسفرت عنه كلماته، مصري سبح في أفكار ناوشته وقلبت عليه مواجع.

-٢-

لماذا يخصه الرجل دون سواه بالحكي؟

كثير من أحاديث الزعيم لا يفهمها مصري، وربما لا يدري المغزى من ورائها، لكنه مضطر للإصغاء وألَّا تفوته كلمة من كلمات الرجل حتى الكلمات غير المفهمومة، الزعيم خبر الدنيا، تغرَّب في ربوع المعمورة، تم تلقينه العديد من المعارف والسلوكيات غير العادية، تعرض لمواقف كما يقول يشيب لها الولدان، صقلته التجارب المتنوعة ولم يستسلم، تعلم كيف يجوس في عقول البشر ويستخلص المعلومة التي يريدها، لا يذهب مباشرة لما يريد، اعتاد المداورة، حديثه مخادع فعندما يشير للاتجاه صوب الغرب هو يبغي المسير شرقًا، وهكذا تدور ساقية أفكاره في شتى الميادين، ضحكاته لا تعني السعادة والمرح وكثيرًا ما كانت مجاراة لمحدثه ومشاركة سطحية فحسب، ما يهمه البحث في أغوار محدثه عما يريد، في أحاديثه المعتادة والمتتابعة مع مصري استطاع أن يعرف ويستخلص ما ينام داخله من أفكار، ففي نظره هو مجرد فتىً ريفي ساذج لا يموج داخله بأي أحلام وتطلعات أو أفكار مريبة، سطحية في كلماته وحكاياته التي تموج ببساطة تعكس نقاء صاحبها، مجرد فتى لم يخض دروب الحياة، فلا عمق فكر ولا أبعادَ لرؤية، يُضحك الزعيم كثيرٌ من حكايات مصري.

في آخر حدود المزرعة والحديقة، مصري يقف بجواره والزعيم في كرسيه الآلي المتحرك بلا ضوضاء، يطلب من مصري بندقيته، تغمر الدهشة وجه مصري، لكن لا يستمر تردده كثيرًا فيرفض أن يسلمها له، تتغير ملامح الزعيم.

- لماذا؟

- عفوًا يا سيدي.

- أنا آمرك.

- إنها تعادل روحي وأمانة وهناك قائد.

يقاطعه مزمجرًا.

- ستعيش ...

يبتلع وصفًا كان سيطلقه عليه.

- أنا الزعيم، أنا من باع عمره، أنا...

لا يستكمل حديثه، يصمت ثم ينفجر قائلًا:

- كلهم من أكبر راس في البلد يعملون لي ألف حساب.

الخوف يتملك مصري ولكن لا يستطيع أن يتحرك، نعم هو مأمور بتلبية كل أوامر هذا الرجل وحراسة بوابته، لكن كيف يفرط في سلاحه، ربما أتى فعلًا مجنونًا أو أقدم على أشياء تكون عواقبها وخيمة، هذا السلاح يمثل بالنسبة له حياته.

ضحك الزعيم وصفق بيديه.

- جندي رائع.

يدور حديثٌ مشبعٌ بروح الود والمحبة، وقع كلماته على رأس مصري أفقده صوابه، فارتجف جسده وتعرقت يداه وتحشرج

صوتـه، يتملكـه خـوف مـن أفعـال قـد يؤتيهـا الرجـل بإرادتـه أو بـدون، الزعيـم يشـيد بمـصري ولكـن يعيـب عليـه طيبتـه الزائـدة، يسـأله الزعيـم:

- كيف تراني؟

- أعظم إنسان.

يقاطعه هاشًّا بيده فوق وجهه مطالبًا إياه بالصمت قائلًا:

- مـا دمـت أنـا أعظـم فـلا داعـي، كلهـم صاغـوا عبـارات محبـتي لينالـوا رضـائي، سـتفعل مثلهـم وتنافـق، أنـا أعلـم أنـك لـن تكـون صريحًـا معـي.

- أقسم بالله العظيم أنا حبيتك لله في لله.

- وأنا طلبتُ منك السلاح ورفضتَ.

- أنــا أنفــذ الأمــر، البندقيــة زي حرمــة الراجــل، الــلي يفــرط في زوجتـه يفـرط في سـلاحه ويعيـش طـول عمـره ... لا مؤاخـذة يـا باشـا.

يضحـكان أحدهمـا يضحـك مـن قلبـه والآخـر متوجسًـا ومجامـلًا، يـدور الحديـث لجهـة مغايـرة فيسـأله عمـا يحـب أن يفعلـه لـو كان في بلـده وفي تلـك السـاعة، وكأنـه يفكـر، يطالبـه الزعيـم بالجلـوس، يجلـس أمامـه متربعًـا عـلى الأرض وسـلاحه فـوق سـاقيه، يبتسـم وهـو يصـف لـه تلـك اللحظـة ومـا يتمنـاه فيهـا، هـو عاشـق للحريـة والهـواء الطلـق، يكـره البيـوت وجدرانهـا، يشـعر أنـه عـلى قيـد الحيـاة وهـو يجلـس بتلـك الطريـق عـلى شـاطئ مجـرى الميـاه الصغـير ويبـاشر عمليـة الـري أو مـا شـابهها، سـيفكر في صناعـة كـوبٍ مـن الشـاي فـوق نـيران يشـعلها في الخـلاء، في كل كلماتـه يعتـذر للزعيـم وكأنـه يقـول شـيئًا حرامًـا أو ربمـا لا يعرفـه، يطالبـه الرجـل

بالانتباه فيهم واقفًا مؤديًا التحية العسكرية، في سريرته يسأل ربما قال شيئًا لم يرض الرجل!!! هل عليه أن يبدي اعتذاره؟ ما سر تحوله لقد كان سعيدًا ومرحًا وابتسامته فوق وجهه؟ لقد أربد وتصلبت معالمه وخرجت كلماته أوامرَ من قائد مسيطر، لم يذهب كثيرًا في فكره فقد قطعه الرجل وهو يصيح به:

- فورًا وبالعجل أريد كوبًا من الشاي الأسود المغلي فوق النيران، عليك تجهيز ذلك بأسرع ما يمكن، هيا.

هل عاده جنونه؟ ربنا يستر!

ينتبه للأمر ويعطي التمام للزعيم.

ابتسامة الرجل ترفع عنه الخوف شيئًا فشيئًا.

يسرع في قطع بعض الأغصان اليابسة من مختلف الأشجار، يتوجه إلى مكمن حراسته مباشرة فيأتي بالبراد الخاص بالشاي الذي يحتفظ به، والشاي والسكر ومشتملات الجلسة والحفلة.

ينفخ في النيران، تشتعل ويدفس البراد وسطها.

سؤال مباغت جديد يوجهه إليه:

- وتفكر في إيه تاني؟

يرفع رأسه وقد أثر الدخان عليها.

- الستر ... الستر يا معالي الباشا.

- ربنا ستار غفار.

- آمين يا رب.

- بصراحة يعني ما لعبتش بذيلك؟

- قلت بلسانك يا باشا ربنا ستار غفار.

يأخـذ الحديـث مجـرى أكـثر حميميـة، يتنـازل الزعيـم عـن وقـاره وهيبتـه ويصمـم أن يقـص مـصري عليـه، الخجـل يحـول بـين مـا يتمـنى أن يقصـه مـصري ويأخـذ رأي الرجـل فيـه، هـل يقـص عليـه مـاذا فعلـت فيـه أم عبـاس ومـا كان مـن أمـه؟ لكـن تحـول أمـه مـن مؤنبـة لـه تبـدو في النهايـة مستسـلمة إنهـا مشـكلة كبيرة، سـيحاول أن يجـد دوافـع لهـذا التحـول، أمـه تبـارك فعـلًا قـذرًا، أمـه إنهـا مـلاك طاهـر وهـي أفضـل سـيدة عـلى وجـه الأرض أو هكـذا يراهـا، هـل يقـص عليـه مـا حـدث مـن أم وردة وكيـف جرتـه إلى ارتـكاب جريمـة معهـا؟ أم يقـص مـا يفيـض بـه جـوف صاحبـه حامـد مـن الحكايـات وبطولاتـه فـوق مخـادع الحريـم؟ أم يكـذب ويقـص عليـه حكايـات لا أسـاس لهـا مـن الصحـة، هـل يمكـن أن يكتشـف زيـف حكاياتـه؟ ومـاذا يفعـل سـاعتها؟ هـل يؤنبـه؟ ربمـا يقطـع عنـه المعونـة الـتي يهبهـا لـه كلمـا أتـت فرصـة مناسـبة، هبتـه مرتبطـة دومًـا بحالتـه المزاجيـة، يتمـنى أن لا يعكـر مزاجـه شيء، يتنـاول الرجـل مـن يـد مـصري كـوب الشـاي وقـد اكتـسى سـطحه بريـم وفقعـات الشـاي البنيـة الذهبيـة، في تلـذذ بـدا في رفـع رأسـه وإسـبال جفنيـه مـرددا «الله»، يتـذوق ثانيـة في رشـفة ومعهـا يصـدر صوتًـا وكأنـه أحـد أبنـاء الفلاحـين أو العاملـين في الأرض، بـدت الدهشـة واضحـة عـلى وجـه مـصري، بـدد دهشـته وهـو يضحـك ويصـف لـه حياتـه وتقلباتهـا وكيـف كان عليـه مجـاراة كل الأمـور مـن حولـه، وتسـلل بحديثـه إلى النسـاء والفتيـات وأيـام زمـان، يبهـر مـصري بأحاديثـه السلسـة والممتعـة والـتي يشـبعها بنزواتـه وغزواتـه لمعاقـل النسـاء، مـدى صحـة تلـك الحكايـات، هـل هـي طريقـة لجـذب مـصري الـذي انفكـت عقـدة لسـانه وراح يـروي بـدوره عـن آخـر مغامراتـه فـوق

جسـد أم وردة، يقـص ويحيـد بعينيـه بعيـدًا كسـوفًا مـن عيـني الزعيـم الغائـرة الصقريـة الرؤيـة، يضحـكان:

- عشيقة صاحبك؟

- ظننت ذلك.

- والحقيقة؟

- يا سيدي إنها طلبت.

- ماذا؟

- نقودًا مقابل ...

- دفعتَ؟

- الكذب خيبة ... نعم.

- لا تأمن للمرأة التي تدفع لها أو تهبك مقابل.

- الحساب بالساعة أم ب..

- لا أفهم.

- كم ساعة استمررت في...؟

- حوالي ساعتين أو يزيد قليلًا.

مصفقًا وضاحكًا:

- بطل ياولد ... برافو.

تتعـدد لقاءاتهمـا، أصبـح مـن المعتـاد قبيـل الغـروب أن تشـتعل النـيران وفي ولـهٍ وحـبٍّ يحتـسي الزعيـم الشـاي المغـلي فـوق أغصـان الأشـجار اليابسـة، يسـتطعمه ويمتـدح مـصري وصناعتـه.

-٣-

أخبرتـه أمـه عـبر الهاتـف بـأن حامـد حـضر إلى البلـد وأنـه شـبه تقـدَّم بصـورة غـير مبـاشرة لخطبـة أختـه.

- ما رأيها؟

- اتجنيت يا مصري المهم سترتها.

- الشرع بيقول:

مقاطعة وبلهجة معنفة:

- الشرع يطالبنا بصيانة شرف البنت.

- إنها متعلمة وحاصلة على شهادة.

- أختك صبية لا تعرف الصواب أين؟

- حقها.

- أنا أعرف إنك ...

صمتـت أمـه ولـم تكمـل عبارتهـا، اسـتطاع أن يفـسر ذلـك بأنهـا إشـارة لعلاقتـه الآثمـة بـأم عبـاس وحامـد، أمـه تـشرح لـه بـأن مـنزل أم حامـد أصبـح كمـا القـصر، الابنـة سـعيدة بـل إن ارتباطهـا بـأم حامـد ازداد، إنهـا لا تفارقهـا، الأم تقـص عليـه مآثـر السـيدة ولا تشير ولـو بطـرف خفـي لإثمـه معهـا، تغفـل تمامًـا تلـك الأفـكار الـتي تعشـش في صـدره هـو فقـط، عـلى الجانـب الآخـر يفكـر:

لماذا يتزوج حامد؟

حامد يتحدث معه عن كم النساء اللائي عاشرهن في الحرام، إنهن كثيرات وهو يقضي وطره من أي منهن، فلماذا يفكر في الزواج؟

لينجب أطفال!!!

ليس زواجًا إنه علاقة آثمة ولكن وفقًا للشرع، ماذا يقول؟ إنه يرفض هذا الزواج بكل ما يحمله، هل حاجته للسكن معه أيام إجازته تدفعه أن يوافق؟ إنه فتح له أبواب رزق، بل إنه أحيانًا يقتسم له ويقتطع جزءًا من أرباحه التي يكسبها من وراء سمساراته المتعددة في شتى المجالات، عليه أن يقطع كل علاقاته بحامد، لكن كيف يستطيع أن يسيطر على أمه ورؤيتها، إنها صعبة المراس ولا تتراجع عن كلمتها أو وعد تقطعه على نفسها، عليه أن يتدبر الأمر بحكمة، عليه أن يستغل وضع أخيه الأكبر، لكن كيف؟ لحظتها يمكن أن تفسر أمه الأسباب، يمكن أن تقص على أخيه بصورة سرية جدًّا.

تحتفظ ذاكرته بكلمات الزعيم:

«تاريخ البشرية كله مزور، عليك أن تعيش اللحظة بكل ما فيها ولا تهتم بالماضي، ولا تنتظر من المستقبل أن يصفو لك وأن يشهد من قدمت حياتك خدمة لهم فيذكرونك ويصنعون لك تمثالًا، سينسونك وهذا مؤكد، هناك لحظات مبهجة في حياة الإنسان من أهمها لحظة النشوة واللذة مع الأنثى، فكل الطرق في الفضاء متعرجة وبمعنى أدق متعرجة ولا وجود للطريق المستقيم إلا فوق صفحة أو مستوى محدد، ليس علينا أن نقتل بعضنا بالرصاص، فلنقتل بعضنا باللذة والشهوة فالغد مرهون بالردة».

يضحك الرجل ساعتها بقوة ويلقي في جوفه بمزيد من الخمر.

وعاد قائلًا له:

«أنـت مشـتت الفكـر، رأسـك فيـه ألـف مـشروع ومـشروع وهـذا قمـة الخطـأ، عليـك أن تضـع عينيـك عـلى هـدف واحـد، عليـك أن تدقـق في تصويباتـك، أخلـص لفكـرة واحـدة فقـد تنجـح أمـا الشـتات فنصيبـه الفشـل».

هــو يبحــث عــن الحريــة، ليــس لــه هــدف محــدد أو معــين في الحيـاة، هــل يستسـلم وشراع مركـب حياتـه يسـير وفـق الريـاح، يـترك الريـاح تعبـث بمسـيرة حياتـه ومركبـه بـلا دفـة تحـدد مسـاره، منـذ مـتى هـو حـر الاختيـار؟ منـذ طفولتـه وهـو يشـعر بدونيتـه، مـا الجديـد الـذي طـرأ عليـه، دومًـا يكبـح جمـاح أي فكـرة ثوريـة في جوفـه، يدهسـها فـكل أفعالـه تتسـم باللامبـالاة، لا يعـرف ولا يعـي خطـة للمسـتقبل تسـير خطواتـه وفقًـا لهـا، فليـأت الغـد بمـا يحمـل، تـواكل غريـب يترجمـه بأنـه بحـثٌ عـن الحريـة، يطمـع أن يعيـش وفـق منظومـة إنسـانية مثـل كل البـشر مـن حولـه، تطـارده كينونتـه بأنـه في ذيـل قائمـة البـشر، لـم يتغـير الحـال كثـيرًا، رغـم الأوامـر الـتي ينفذهـا حرفيًّـا لا يحيـد عنهـا ممـن يرأسـه لكـن يشـعر بـشيء مـن الحريـة، أمـا أن يتسـاوى بالبـشر فالبحـث عنهـا يعكـر صفـو حياتـه فيلقهـا بعيـدًا عـن رأسـه وفكـره، تنتابـه حالـة غريبـة فلا تصفـو نفسـه وخاصـة بعـد أن طلـب حامـد يـد أختـه للـزواج، يجـب أن يتحـرك لسـانه ليرفـض تلـك الزيجـة الـتي تضـع أختـه في مصـاف الجــواري، سيشــتريها حامــد ســيذهب إليهــا كل شــهر أو شــهرين لينـام معهـا وتحمـل منـه وتظـل خادمـة لأمـه، يعـود هـو يمـارس حياتـه المعتـادة مـع أم وردة وأمثالهـا، في وحدتـه يـصرخ بـلا صـوت:

«أنا مذنب ... أنا مذنب ...»

لكن لمن يتكلم للجدران أم للفراغ المحيط به، كم يريد أن يجهر بما يعتل في صدره ولكن لمن؟

هل يفضح نفسه؟

من يعرفه في تلك الدنيا الواسعة العامرة الصاخبة ليلًا ونهارًا، إنه نكرة لا قيمة له ولا هوية، إنه يخاف أن يحلم ويرتفع صوت أحلامه، يمكن أن يجره ذلك لجريمة قد يعاقب عليها، عليه أن يعود.

«ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

منافق أفَّاك لعينٌ، هكذا يصف نفسه، إنه يلجأ إلى الله وهو عاص، لكن باب مغفرته دومًا مفتوح، ليعود مستغفرًا مطالبًا بالعفو.

يرفع يديه لله طالبًا الرحمة سرًّا وجهرًا، أمام المرآة وأمام نفسه تصفَّح أوراق حياته السالفة، يخاف اللعنة، بكى وزرف دموعًا كثيرة حتى همدت كل أجزاء جسده وطغى سلطان النوم عليه.

يظل في حراسته يقظًا متنمرًا رغم الهدوء المقيم دومًا، سكون شبه دائم لا تقطعه إلا أصوات نفير سيارات على الطريق السريع، أضواؤها أيضًا تكسر ظلمة الليل الخارجية فحسب، كثيرًا ما يتمنى ليلة بلا أضواء ولا كهرباء؛ ليستمتع بأضواء القمر ونسائم الليل الطرية والندية وحتى إن اختفى القمر فالنجوم كفيلة بالضياء المسكوب من السماء في عذوبة لا مثيل لها.

يعود للملاذ مثله مثل سائر البشر وأغلبهم، يتمسكون

ويقبضـون بأيديهـم عـلى حبـال رحمـة الله، يلتمسـون منـه العفـو ويذهبـون لأوليائـه وأضرحتهـم يشـفعونهم ويوسـطونهم في إيجـاد حـل لمـا يقعـون فيـه مـن مشـكلات ومـا يجابهونـه مـن ضيـق وتوتـر أو حـتى مـرض، يسـأل الشـيخ فـيرد:

- تتبـع الأولويـات في كل شيء، ففـي الديـن هنـاك أركان في البدايـة ومـن ثـم فرائـض ومـن بعدهـا نوافـل.

حديث يطول ويكون سؤاله في النهاية صريحًا:

- تقدم أحدهم لأختي وأنا أعلم بسفاهته وأفعاله المنكرة.

يوقفـه الشـيخ وهـو يدعـو لهـذا الإنسـان بالهدايـة، ويهـون الأمـر عليـه ويسـأله:

- هل أختك راضية به؟

- لا أكذب عليك يا سيدي فقد رضخت.

- هل هناك إجبار؟

- أعتقد.

- جرم ولا يحق لإنسان.

فعندمـا ذهـب أحدهـم لرسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم يسـأله فقـد تقـدم لابنتـه اثنـان، أحدهمـا غـني والآخـر فقـير، فسـأله الرسـول:

وبنتك من تهوى؟

فقال الرجل : الفقير ، قال الرسول: لا أرى للمتحابين إلا الزواج.

غضـب صامـت تعكسـه حمـرة الحدقتـين المشـبعة بالدمـاء وزفـرات تنطلـق مـن محبسـها غضبًـا، تضيـع معالـم الطريـق مـن

قدميه فلا يدري أي الطرق يسلك، تستعر نيران غضب وضيق وتذمر، يتغلب الدخان الكثيف المتصاعد فيحجب الفكر عن العقل، ضباب ولا منفذ له منه، يضيق صدره وكأنه في النزع الأخير من الحياة وكأن زفراته الصادرة تودع الدنيا.

يتأمل الشجرة التي أمامه، يتأمل الغصن اليابس الذي أصابه الجفاف، هل يزهر هذا الغصن من جديد؟ أتزدهر وتشع أوراق جديدة بخضرة، الجذع والجذر واحد وشبكة الأغصان المتشابكة ماء حياتها واحد، هل جارت كل الفروع على هذا الغصن؟ هل سحبوا منه ماء حياته؟ اختصوا أنفسهم فحسب بالغذاء، بالشجرة جزء ملعون يصيبه الجفاف فتهجره الحياة ولا تلوذ به الطيور.

تنهيدة عميقة ويواصل:

هكذا الفقراء في بلادنا، وعلى البستاني أن يتخلص من الأغصان الميتة اليابسة، لتبدو الشجرة أكثر إشراقًا تبعث البهجة للناظرين، الغصن اليابس يُلقى في النيران لصناعة كوب من الشاي للأمير أو الحقير سيان، سيحترق ولن يذرف أحد عليه الدموع.

يدندن بأغنية حزينة حفظها منذ طفولته، يرددها دومًا في سره ولا يفصح بها أمام أحد، يمسح دموعه التي كادت، تتوالى أسئلته:

هناك علاقة بين الخوف والغناء أم التعب والألم والغناء، عمال جني القطن يصدحون بالغناء وعمال التراحيل وعمال البناء يحاولون التغلب على تعبهم بالغناء، أتذكر جدتي وأحيانًا أمي بمرثيات تغنيها أو تطلقها منغمة طوال اليوم، الخائف

يستجير بحكايات كاذبة عن الشجاعة.

يرى أخته أجمل الجميلات، يتمنى لها حياة سعيدة رغدة، كيف وهي محبوسة بجدران الفقر والعوز والحاجة، يتأملها والصغرى وهما ذاهبتان للمدرسة في الصباح، زهرتان ولكنهما نبتتا في جوف بيت فقير، لن يجدي أي فعل ويفكر في الاستسلام، فالزهور تذبل في كل الأحيان.

فما الفرق بين نهايتها فوق غصنها أو بعد قطفها؟

ربما بعد القطف يستعينون بها لإدخال البهجة على مريض، يضعونها في كأس أو مزهرية في أروقة المستشفى أو يضعونها فوق قبر أو تابوت، يمكن أن يرسلها عاشق لمحبوبته، في كل الأحوال يتغير اللون وتتبدد الرائحة والعبق الجميل، في النهاية ستذبل، من يترك الزهور لتنام في أحضان أغصانها، ربما تثمر بذورًا جديدة؛ لتنتج بدل الزهرة ألف زهرة.

حامد سمسار ناجح، ماهر في اقتناص الفرص، يتاجر ويكسب دون رأس مال، يبيع ممتلكات الآخرين لمن يبغي، يكسب من الطرفين البائع والمشتري، إمكانيات الخسارة غير قائمة، المكسب والمكسب فحسب في كل الحالات، أساليبه متعددة للفوز وحيله تتغير تباعًا، لا يعرف النزاهة ولا يفكر فيها، ليس في حاجة إليها في هذا العالم المشحون بالمقامرة حتى لو كانت على حساب بشر آخرين، يسعى بكل ما يملك للكسب، يقول له:

«مجنون من يسبح في بحر تماسيح البشر وتغفو عيناه».

لتكن حذرًا من اللون الأبيض.

- لماذا؟

- اللون الأبيض ممنوع.

- كيف ولماذا؟

- لك ثأر مع تلك الدنيا، عليك أن تقاتل.

- من قال ذلك؟

- أهلنا في الصعيد يوم يكون لهم ثأرٌ، ممنوع اللون الأبيض، فلا شال فوق الرأس باللون الأبيض، حتى الملابس الداخلية لا تتلون باللون الأبيض، حتى منديله ليس بالأبيض، فالأبيض لون الاستسلام، وإن كان لا مفر منه فالكفن يحمل هذا اللون، احمل كفنك وانتظر قاتلك، الرجل الحر يأبى ذلك.

حقًّا الحياة أرض زلقة، علينا عبورها بتريث ودون مساندة من الآخرين، علينا أن ندرك موضع أقدامنا، نستدفئ بالدموع أو بالشموع، وللأسف كلاهما لن يمنح الجسم الدفء المطلوب، عندما نقف أمام الشموع تكبر ظلالنا المرهونة بضوء الشمعة فيتنامى ونتخيل بأننا عمالقة رغم قصر قاماتنا في الحياة، علينا أن نشق زحام الحياة ونغامر ونعافر ونقاوم ونصارع، علينا أن نصل للطرف الآخر للحياة ونضع نصب أعيننا النجاح بكل الطرق المشروعة وغير ... لا لا، علينا أن نحسبها فما هي النتيجة النهائية؟ سنصل للنهاية، ستطلُّ الشيخوخة علينا وقد أُرهقنا وتكالبنا على الحياة، يومها نتنفس بصعوبة بالغة وننظر للماضي بأسف وننتظر الراحة الأبدية بلا ألم، تتساوى الحياة في كل الحالات.

***

-٤-

يشعر مصري بأن الزعيم تزداد هلاوسه كلما توغلا في الحديقة، وبعد أن يرشف كأسين من الشاي الأسود المغلي وقد يواصل الشرب بأكثر من ذلك مدندنًا، أحيانًا يشعر وكأن الرجل به مس من الجنون، عليه أن يطيعه فهو يردد دومًا بأنه فوق القانون، غامضًا في كثير من تصرفاته، تحذره إحدى العاملات بأن عليه أن يتقي غضبه وأن لا يثيره، فيمكنه أن يقتله ولا يتحرك له رمش أو جفن، يحبه حقيقة ولكن يخافه أكثر.

هل يجد لذة في الحديث إلى مصري؟

هل حقيقة ما يقول؟

يستمع مصري إليه:

نسيت عمري ونفسي، عشت خادمًا مطيعًا مؤمنًا بحقها، لم أستطع أن أتنصل وأبتعد، لم أعرف طعمًا لحياة أسرية سعيدة مثل سائر الخلق، كانت البداية مع تلك الفتاة الأوروبية التي عشقت همسها وصمتها ورقتها، كانت تجيد العربية وملتحقة بالمعهد العربي في تلك الدولة التي وفدت إليها تحت اسم مستعار وفي مهمة تتعلق بمصلحة البلد، كان عليَّ أن أتقن لغة تلك البلد بل لهجات أهلها المختلفة، تقربت منها وساعدتني وزاد شغفي وحبي لها، لكن حقيقة كان حبًّا كاذبًا بكل المقاييس، فالأهم والأبقى مصلحة بلدي، لم أفصح لها عن سبب وجودي

الحقيقـي، كانـت مشـاعرها صادقـة رغـم كـذبي، عـادت معـي إلى مـصر وبعـد خمسـة أعـوام قـررت الفـرار فهربـت وعـادت، طفلـتي لـم أسـتطع الحصـول عليهـا بـل لـم أعـثر عليهـا.

تنهيدة بعمق جرحه الغائر..

هل يا ترى على قيد الحياة؟

كـم كانـت جميلـة كقمـر ينـير ليـلي، ذهبـت وحـل الضبـاب والغبـار، كان هنـاك مـا هـو أهـم، وظللـت وفيًّـا للبلـد، فمارسـت أعمـالي وتفانيـت ولـم أعـر لمشـاعري اهتمامًـا يذكـر، نبـض قلـبي وأنـين فـؤادي جبسـته بـل سـجنته ودفنتـه.

كنـت صلبًـا، شـاركت في أعظـم حـروب بلدنـا بـل العـرب قاطبـة، حاربـت بدقـة متناهيـة رغـم بعـدي عـن جبهة القتـال، اسـتطعت أن أرصـد أشـياء كثـيرة وتتبعـت خيوطًـا حالـت دون الوقـوع في أخطـاء وتعلمنـا جميعًـا مـن دروس النكسـة.

تعاوده التنهيدة العميقة ولكن يواصل:

أغلبهـم اسـتفادوا وأُثـروا وعاشـوا عيشـة الملـوك والأمـراء، عندمـا أغمـض عيـني لا تفارقـني صـورة البلـد فأفكـر في أمانهـا، لا يأتيـني النـوم بسـهولة مجـرد دقائـق معـدودات، كلهـم يعملـون لي ألـف حسـاب.

تمتـد يـده لمـصري مطالبًـا بـكأس مـن الشـاي، فيرشـف رشـفة طويلـة ولكـن لا يعقبهـا استحسـانه المعتـاد بعـد الرشـفة ويواصـل ويؤكـد:

كلهم يعملون لي ألف حساب ...

كثـيرون باعـوا واشـتروا واغتنمـوا وأُثـروا، رصـدت تحركاتهـم

وأفعالهـم بحكـم العمـل الـذي كلفـت بـه في آخـر أيامـي، لـو عرفـوا أن مـا بحـوزتي يعـري الكثـير منهـم، أكـبر رؤوس البلـد قدمـت لي الـولاء ورفعـوني لمكانـة لا أحلـم بهـا، لقـد كنـت صادقًـا، كنـت حائـط صـد منيـع وكنـت أدافـع وظننـت أنهـم يسـتحقون، للأسـف.

يزفر ألمًا من فِيهِ وبعد صمت يواصل:

ظللـت محتفظًـا بالكثـير، لسـت سـهلًا فأنـا لحـم جسـدي مـر ولا تسـتطيع معـدة هضمـه ولا توجـد أسـنان تسـتطيع التهامـه.

كلماته كلها تشيد بقدراته وما يستطيع أن يفعله.

حـتى قتـلي سـيكون مصيبـة فـوق رؤوسـهم، حريصـون عـلى حيـاتي أكـثر مـن حـرصي عليهـا، وأنـا أعمـل حسـاب ذلك.

ينظر لمصري ويسأله:

- ترى بعينيك طقم الحراسات الخاصة على أرقى مستوى.

- نعم نعم.

- هل ترى عضلاتهم؟

- الله أكبر مفتولة يا سيدي.

- غلط منفوخة.

أنـا لـم أطلـب حراسـات خاصـة، إنهـم يطوعـون القانـون وفـق رغبـاتي، أنـا رجـل فـوق القانـون، شـكلت خلايـا تعمـل في الداخل وقد وجهـت لهـم الدعـوة أن تسـتمر الخلايـا الخارجيـة ودرجـة أهميتهـا، حـتى المشـاريع الكـبرى الـتي سـاهمت فيهـا في بـلاد إفريقيـة أغفلوهـا ونسـيناها جميعًـا، ويـا للأسـف هـم أيضًـا أشـقاؤنا نسـونا بدورهـم في الكثـير مـن المحافـل الدوليـة، جفـت منابـع الحـب الحقيقيـة الـتي ربطتنـا بالقـارة السـوداء امتدادنـا وظهرنـا، تنكرنـا وابتعدنـا

وأغفلنا حقهم علينا وحقنا عليهم، فقدنا الكثير من أصدقائنا وسعى الجميع لحياة جديدة، حتى الحدود صارت مرتعًا خصبًا لكل الأفعال المشينة فوق الأرض وتحت الأرض، غرباء يدخلون وإخوة يتقاتلون، أنا أعرف الدوافع وراء كل هذا ولم أتكلم بعد.

يصمتان ويتجرأ مصري:

- ألم تتزوج ثانية؟

- نعم تزوجت.

قالها بتريث وحروف تنزف ألمًا وأكمل:

- وأنجبت، وليتني ما تزوجت.

مفاجأة ألجمت لسان مصري، لم يصدق عينيه، الزعيم بكل صلابته وجبروته واعتزازه بذاته وقدراته ينخرط في البكاء، عقدت الدهشة لسانه، فلم يدر ماذا يقول أو ماذا يفعل في هذا الموقف غير المتوقع.

كأن الزعيم فاق من غفوة، فمسح دموعه واسترد وعيه، تفرَّس وجه مصري بثبات وقوة فأجفل مصري ودار بعينيه بعيدًا، حاد ببصره صوب أرضية الحديقة وبدت فوق ملامح وجهه علامات الأسى.

فقال الزعيم:

- لم يهزمني أحد.

تتداخل الحوادث والأفعال والأقوال، مزيج من البكاء والدموع والضحكات، ألم وأنين وسخرية من واقع محيط، وحياة كانت زاخرة بقدرات وأفعال عجيبة وجسارة فذة يرويها الرجل ويتباهى.

يقول في كلمات مقتضبة وفوق شفتيه ابتسامة ساخرة:

- أشعر أن كثيرين منهم يتمنون إزهاق روحي، لكنهم يخافون، أشعر بأنهم يرصدون حركاتي وأفعالي، يزرعون داخل بيتي أجهزة للترصد، أنا من علمتهم وأنا المعلم الأول لهم، أنا صاحب الباع الكبير، أعي كل ما يدور حولي وأتعامل معهم رغم كل ذلك.

لماذا يختص المصري بكل تلك الحكاوي؟

هل مصري يستطيع أن يستوعب كل ما قاله؟

مؤكد هو يحس بخوف ولكن لا يفصح، هو في حاجة لإنسان أيًّا كان ليستمع إليه، إنسان مطيع لا يجادله، يشعر أنه وجد في مصري ضالته المنشودة، يشعر وكأن كل العاملين في المنزل مدسوسون عليه، كل منهم ينتظر ويتمنى أن يعرف أين يخبئ خزينة أسراره؟ ريبة تنام في صدره منهم جميعًا، مُغالٍ بدوره في ردود أفعاله فيرتعشون أمامه كفئران، حتى حراسه الأشداء الأقوياء يسخر منهم ويصفهم دومًا بالأغبياء ويقول:

الحراسة عين لا تنام وقلب جسور.

يدفعه بكرسيه الآلي المتحرك أو يمشي بجواره صامتًا، يدندن الزعيم بغناء خافت لمطربين رحلوا، يتوقف كرسيه بفعل يده ويقول:

- سيغرقون البلد بغبائهم، يتبارون في جمع الثروات والأموال بصورة مستفزة غريبة، النيران ستأكلهم وما يملكون، يهرِّبون الكثير من الأموال لبنوك خارجية وبأسماء مستعارة أو بحسابات لا يعرفها سواهم، المصيبة أنهم هناك في الخارج يعلمون كل

ذلك وبدورهم ينتظرون، سيسطون على تلك الأموال يوم تأتي الفرصة المناسبة، يسرقون قوت شعبهم لصالح الآخرين ... كلاب أولاد كلاب.

إنهم يملكون من الأموال ما يكفل لهم وأحفاد أحفادهم أن يعيشوا في عز وثراء، الله يخرب بيوتهم، حرام حرام.

يحاول مصري أن يغير مجرى الحديث الدائر، فينتقل بأحاديثه وأقاويله لفقراء بلدهم المعوزين قائلًا:

عم أيوب الصابر، كان يشعر بمتعة رائعة وهو يجلس أمام بيته ململمًا ثوبه ومنكمشًا في ذاته مستدفئًا بشمس الصباح متمتعًا بدفء طبيعي، هو من أفقر خلق الله في بلدنا، يعيش على ما يجود به الله عليه كما قصصت عليك سابقًا، لا يختلف حاله كثيرًا فكل أيامه راضيًا، جاءه متسول قائلًا:

- حب لأخيك ما تحب لنفسك.

ضحك الصابر فردد المتسول:

- أنا أخوك في الإنسانية.

يطالبه الصابر بالمضي من أمامه ولكن المتسول مصممًا أن ياخذ حسنة منه، شارحًا له مدى الثواب من وراء صدقته.

- تمتد يدي إليك فلا تردها.

أمام إصراره، لم يجد بدا، صاغ ابتسامة فوق محياه وامتدت يده إليه وسحبه لداخل بيته المتواضع الفقير، أجلسه وأغلق الباب، بدا الانزعاج على وجه المتسول، وسأل الصابر:

- ماذا تريد؟

يهدئ الصابر من روعه قائلًا:

- ها هو بيتي أمامك خذ ما تشاء منه، لك ما تريد، ألسنا إخوة؟

- نعم.

- علينا أن نقتسم ما نملك.

بدت الدهشة واضحة على وجه المتسول الذي راح يقلب نظره في جنبات المنزل فلا يجد شيئًا، همَّ واقفًا من جلسته المجبر عليها، حاول أن ينسحب من الموقف بأي طريقة ممكنة، وهو يردد في تقوى كاذبة:

- يا أخي كلنا نتسول إلى خالقنا.

في لؤم قروي يرد الصابر:

- نعم وليس عيبًا أن نقتسم ما نملك.

في دهشة يسأله:

- كيف؟

- قسمة بالعدل، ألسنا إخوة في الإنسانية؟

حاول المتسول أن ينجو بما يملك، باءت محاولاته بالفشل، تناول الصابر فأسه ورفعه مهددًا وظهر في عينيه جليًّا أنه صادق في تهديده، وطالبه أن يخرج كل ما يحتويه جرابه وأن يقوم بنفسه بالقسمة بالعدل، لم يجد مفرًّا، اقتسم كل ما يملك حتى جيوبه أفرغها وقسمها بالعدل، امتدت يد الصابر وانفرج الباب وسمح للمتسول بالخروج وهو يدعو له والآخر يلعنه بلا صوت ويلعن الإنسانية التي ينتمي إليها وفر هاربًا.

يضحك الصابر وهو يحصي ما جادت به السماء عليه، خبز ونقود تكفي لأيام قادمة ويضحك حامدًا الرزق الذي وهبه الله

لـه.

يسـتطيع مـصري أن يخـرج الزعيـم مـن دائـرة القلـق والصمـت والألـم، تتسـع ضحـكات الزعيـم ويبادلـه مصافحـة الأيـدي، ويسـأل المـصري:

- لماذا تلفظ الدنيا أهل الخبرة والكبراء؟

- هذا وضع طبيعي.

بعد صمت لا يدوم كثيرًا يستطرد الرجل:

عندمـا تنضـج الثمـرة فـإن الشـجرة تلفظهـا فتسـقط، وهـو نفـس الحـال بالنسـبة للإنسـان فبعـد النضـج والمعرفـة مـوت، المـوت قـادم.

-٥-

منـذ غـاب الزعيـم، يـد الإهمـال طالـت أغلـب الأشـياء، بـدا واضحًـا لعيـني مـصري هـذا التحـول الغريـب، الجميـع كان يخافـه ويخشـاه، ينظـر للحديقـة ومـا أصبحـت عليـه، يتمـنى أن يزيـل تلـك الحشـائش الـتي انتـشرت وتغولـت في بعـض الأجـزاء، بـدون أن يكلفـه أحـد وفي سـاعات راحتـه يرفـع ويجمـع أوراق الشـجر، يزيـل السـعف الذابـل والليـف مـن عنـق النخيـل، يعمـل عـلى تلقيـح شـجيرات النخيـل المختلفـة، يطـلي بعـض جـذوع الأشـجار بالمـواد الزراعيـة الحافظـة، عاشـق بطبيعتـه للخـضرة بوصفـه ريفيًّـا عـاش حياتـه بـين الخـضرة والـزروع، جميـع العاملـين يهتمـون بالأشـياء الـتي تقـع عينـا ابـن الزعيـم عليهـا، أمـا البعيـدة عـن متنـاول عينيـه فـلا اهتمـام بهـا.

تَجَـرَّأ أحدهـم وسـأل عـن الزعيـم، أجابـوه بأنـه خـارج حـدود مصر وسـتطول إقامتـه بالخـارج لحاجتـه للسـفر.

- لماذا؟

لـم يحـظ بإجابـة تشـفي صـدره، يتمـنى أن يسـأل ابنـه، لا يتجـرأ، هـو يكتفـي بإلقـاء التحيـة المقتضبـة إليـه، أحيانًـا يلقـي إليـه بصنـدوق معبـأ بعـشرة مـن علـب السـجائر الأجنبيـة الصنـع ويـدس في يـده مبلغًـا مـن المـال، يشـعر وكأنهـا وصيـة مـن الزعيـم إلى ولـده، يحجـم عـن السـؤال ويكيـل المديـح للزعيـم وابنـه.

من يأتون في صحبته، ينطلقون في شتى الأماكن، بمرور الوقت تزداد جرأتهم ويذهب حياؤهم وكل يبحث عن مغنم وغنيمة، مع إشراقة الصباح يذهبون، ينامون بالنهار ويعشقون الليل، ساعة مضيهم تنطلق أبواق السيارات كنعيق بوم يتردد صداه في أذنيه، يفتح بوابته يرفع يده بالتحية مع انحناءة خفيفة للرأس مزدردًا في نفسه:

«مع السلامة يا أولاد القحبة»

يبدو من مظهرهما الهدوء والحكمة أو هكذا تخيل مصري، بعد أن ألقيا بالتحية إلى مصري جلسا على المقاعد القريبة منه، تبادلا حديثًا يغزو أذني مصري.

- كلهم يقتلهم الجشع، مال يجنونه بلا عمل أو تعب.

- إيجار اليوم الواحد آلاف مؤلفة.

- ونصيبه المعروف عذراء.

- عاشق هو متيم بالسينما.

- بالنجمات فحسب فليس عاشقًا للأضواء.

- لا يحب الظهور الإعلامي.

- تلك الممثلة التي حجبت عنها الأضواء، إنها تتبعه كظله.

- قوادة وتجيد عرض بضاعتها.

- ترضيه بما يريد، وتسحب منه ما تريد.

- المنتجون والمخرجون يعملون لها ألف حساب.

- كما المنشار تقبض منهم أيضًا كي يوافق الضيف على مطالبهم.

- دارت بها الأيام.

- وماذا تفعل؟ كيف تعيش؟ لها اثنان من الأولاد في أمريكا.

- عليها أن تعمل..

- أن تبيع..

- ما علينا، كلهن يبعن.

- ونحن.

- أسوأ حالًا منهن.

- باب التوبة مفتوح.

يضجان بالضحك، ينظران ناحية مصري يتصنع بأنه ليس منتبهًا لحوارهما أو لنظراتهما، يخرج أحدهما سيجارة ملفوفة يدويًّا بعناية بالغة، يبدو وهجها وضباب دخانها وعبق رائحتها، تغزو الرائحة أنف مصري فينظران إليه ويبتسمان وتمتد يد أحدهما، يشكرهما معلنًا بأنه في نوبة الحراسة، يضحكان ويجاريهما الضحك ويطرح أحدهما سؤالًا عليه:

- نوبة حراسة!!

- نعم يا أفندم.

- أنت رجل رائع.

ولا يلبث مغنيًّا:

- وأبو الهول الأصيل حارس على الوطن..

يغنيا معًا ويضجان بالضحك ويسأله أحدهما:

- نعم عليك حراستنا.

ويضيف الثاني:

- لو حصلت كبسة وقبض علينا؟

يرد مصري بتلقائية:

- المكان مؤمن جدًّا يا معالي الباشا.

- الله عليك راجل من ضهر راجل.

- شكرًا يا معالي...

يقاطعه الأول:

- الله يخرب بيت ناسك، أنا حارس مثلك، أنا مكتوب على جبيني خدام، خادم أمشي خلف البهوات، فهمت؟

- تمام يا أفندم.

يضحكان ويشاركهما مصري، في نغمة حزينة وبعد صمت لم يطل مداه يقول الثاني -من بين دخان السيجارة- متسائلًا:

- متى يأكل الراعي غنمه؟ يرد مصري:

- عندما يجوع.

يقف الأول وبصورة تمثيلية مسرحية يقول:

- فليأكل الرعاة أغنامهم و ...

بسرعة يكمم صاحبه فاه وهو يضحك ويسحبه ويمضيا بعيدًا داخل الحديقة.

روائح النساء العبقة تمضي في ذيل ثيابهنَّ، يستنشق مصري عبقها فتغزو معاقل قلبه، ويسأل:

هل تلك الرائحة لجذب الرجال؟

يضحك مصري وتعود ذاكرته لبلده، يتذكر الحمير وأنثى الحمار وحركة فكيها في استدعاء الذكر الذي يهرول ناحيتها، قد

يكسر وتـده ويشـتد عصيانـه ويتمـدد عضـوه الذكـري بصـورة مثـيرة وينهـق ويرفـس ويهجـم، سـاعتها تتصنـع الحمـارة الـدلال فترفسـه بخلفيتيهـا، لكنهـا تستسـلم في النهايـة.

أين أنا؟

***

جمـوع تدخـل، ليـس أمـام المـصري إلا أن يفتـح البـاب عـلى مصراعيـه ويصنـع ابتسـامة وانحنـاءة قصـيرة، يتقـدم الجمـوعَ ابـنُ الزعيـم في سـيارته الرائعـة، وجهـه أبيـض صـافٍ كاللـبن الحليـب وكأن الشـمس والهـواء لا تعـرف الطريـق إلى وجهـه، جسـده يبـدو كقطعـة واحـدة لكـن أناقتـه تـسرق العيـون، أحـدث خطـوط الموضـة يرتديهـا، قسـمات وجهـه رخـوة ناعمـة، الغريـب في صوتـه رنـة الأمـر العسـكري، تغلـب عليـه ابتسـامة نـضرة لكـن لا تعكـس مـا يجـول بخاطـره، عينـاه تشـعان بريقًـا وتـكاد تقفـز منهمـا معالـم الشـهوة والرغبـة المغلفـة بالاسـتعلاء والتكـبر، الجميـع رهـن إشـارته، أفعالـه وأقوالـه أوامـر واجبـة التنفيـذ الفـوري، لا يعـرف الحواجـز فـأي سـد يضعـه هـو وفـق رغباتـه وتطلعاتـه، كلهـم يمضـون خلفـه، تلـك الممثلـة المشـهورة الـتي كانـت مصـب عيـون كل البـشر وكان الجميـع يتلهفـون للاقـتراب منهـا، ذهبـت عنهـا الأضـواء وليـس لهـا مصـدر آخـر للـرزق، فكانـت يـد ابـن الزعيـم سـندًا لهـا في عثرتهـا، المقابـل أصبحـت كإحـدي جواريـه الـتي تأتمـر بأمـره وتسـعى لإرضـاء كل نزواتـه وغزواتـه، مجـرد إشـارة منـه وعليهـا التنفيـذ وبسرعـة.

مـصري يخـاف يتوجـس الـشر كثـيرًا ويحـاول أن يشـجع نفسـه بقـدر الإمـكان، يأتـون حـتى موضـع سـكنه وحراسـته، كثـيرًا مـا تزكـم أنفـه رائحـة الخمـر الـتي يزفرهـا أي إنسـان منهـم ذكـر أو أنـثى.

هل يمكن أن يتهور أحدهم؟

يتمنى أن لا تغفل عيناه، يرهف سمعه ويستقصي الحكايات فيعرف كثيرًا من الخبايا لكن عليه بالصمت، يحاول الابتعاد تصفعه كلماتهم الغريبة، يعرف كل ما يدور من خلال حواراتهم المتتابعة، الساخط والناقم واللاعن ومن ينزل ابن الزعيم منزل الآلهة والعظماء، كل حسب حالته المزاجية التي يستشعرها.

ينصبون آلات تصويرهم، يرفعون مصابيح ويشيدون ببقايا أخشاب منازلًا غريبة أحيانًا، وكاميرا تزحف وتسرع حسب رغبة المخرج، حركة دائبة، أعداد غير محدودة تختلف من يوم ليوم، نساء كحوريات من الجنة، قد تتقلد إحداهن دور فلاحة أو متسولة، حجرات القصر ملاذ لهن لتبديل ملابسهن، أفراد قائمون على مساعدتهم في تغيير أشكالهن وفق الدور المنوط بهم، أوامر المخرج تنطلق فيصمتون ويترقبون، تنتهي اللحظة بعد إعادتها أكثر من مرة، يضحكون ويصرخون ويباركون ويتبادلون التحية والعناق.

في مكمنه يترقب ويراقب ما تسفر عنه الأحداث، يرى بعينيه أفعالًا آثمة، يجهرون بالفعل ويتبادلون الابتسامات والقبلات، وكأنه يسأل هل ما يحدث ارتكابًا لمعصية أم أنه وضع عادي؟؟!!! يبدو أن الفعل ليس بخطيئة إلا من وجهة نظره فحسب، إنها مدنية وهو بعيد عنها، لا يعيرونه اهتمامًا، ربما يستخفون به، يعود من جديد مطالبًا نفسه بالصمت وعليه أن يلتزم بما هو منوط به، ما عليه سوى السمع والطاعة فحسب، وما الجديد في ذلك طوال عمره نكرة، عليه أن يرضى بما قُسم له، ها هي معالم الحرية تظهر وتراها عيناه، عليه أن ينظر

بعيـدًا حـتى لا يرتكـب إثمًـا، إنهـم ينتـشرون في الداخـل والخـارج، ضحكاتهـم تفضـح سـترهم، ينظـر فتعصـف لثماتهـم وقبلاتهـم بعينيـه، فيحيـد بعيـدًا فتقـع نظراتـه عـلى جلسـات عشـق ثانيـة وثالثـة، عليـه أن يـولي الأدبـار ببـصره.

ثـراء فاحـش تعكسـه السـيارات المتنوعـة الفارهـة، يكـسرون وحشـة القـصر ومـا حولـه، وجـوه ناعمـة مصقولـة بفعـل فاعـل عليهـا تنعكـس الأضـواء سـواء كانـت الوجـوه لرجـال أو سـيدات، شـفاه ورديـة فاقعـة وأخـرى قرمزيـة دمويـة، أسـنان لؤلؤيـة وسـيقان تتمـرد عـلى ملبـس، أثـداء تعلـن عـن تبرمهـا فتفيـض وتنطلـق بـلا حواجـز إلا القليـل، شـعر يتلـون بألـوان تختلـف، رجـال يحاولـون إخفـاء تجاعيـد الرقبـة والوجـه رغـم أنهـم تجـاوزوا عمـر الطيـش ولكـن لا يحفلـون، تتلـون رؤوسـهم باللـون الأسـود ويجاهـرون بأفعـال لا تعكـس حقيقـة أعمارهـم.

تلـك ممثلـة مشـهورة معروفـة يراهـا في مسلسـلات التلفـاز وأفلامـه، تـكاد عينـاه تخـرج مـن محجريهمـا وهـو يتأمـل جمالهـا الفتـان ولا يصـدق نفسـه بأنـه يراهـا حقيقـة بشـحمها ولحمهـا الناصـع البيـاض، هـي تمـضي كطـاووس، إنهـا أجمـل بكثـير ممـا يشـاهده، يفتـح ابـن الزعيـم ذراعيـه مبتسـمًا: باشـا، تجـري ناحيتـه بنشـوة شـبابية لا تتناسـب وعمرهـا الحقيقـي ورغـم كعـب حذائهـا العـالي ويتلقفهـا يشـبعها لثمًـا وتقبيـلًا، الـكل يغضـون البـصر وكأنهـم لا يـرون، يقولـون:

«عيبٌ أن تنظر للعشاق».

مدنية وهو كل يوم يعرف الجديد عن الحرية.

أمـا تلـك فغـادة صغـيرة تحـاول أن تسـتقطب نظـرًا، تـسرف في

إظهـار مباهجهـا، تفيـض بالضحـكات وتحتـسي مـا كان مـن شراب لا تهتـم بالتعـداد، فعلهـا يعكـس حداثـة عهدهـا بتلـك الأفعـال، تترنـح وتقـترب أكـثر مـن ابـن الزعيـم، والممثلـة القديمـة الـتي كانـت يومًـا مشـهورة، الـتي وظفـت نفسـها قـوادة في خدمـة ابـن الزعيـم والمتتعبـة لـه كظلـه، تدفعـه أن ينظـر لتلـك الغـادة الصغـيرة، يهمـل دعواتهـا فتعـود هامسـة:

- خشب ما ادقِّش فيه مسمار.

يضحك وتعجبه العبارة ويسألها:

- متأكدة؟

- كله بكر.

- متأكدة؟

- برهان يا باشا وهكسب الرهان وهدية ب....

- من عيوني.

تقـترب الغـادة، إصبعـه يشـير لهـا فتميـل ناحيتـه ويـكاد نهديهـا يقعـا أو يخرجـا مـن فسـتانها، يهمـس في أذنهـا، تبـدو الموافقـة جليـة في إيمـاءة رأسـها وتعقبهـا بضحكـة مفتعلـة تعكـس سـذاجتها في مضمـار العشـق وبيـع الحـب.

لهو وبهجة وعمل مربح للجميع.

كل غـرف القـصر وحديقتـه مبـاح فيهـا التصويـر وبـكل الأوضـاع الـتي يبغيهـا المخـرج إلا حجرتـين، الغرفـة السـفلية الخاصـة بالزعيـم والـتي بهـا شاشـاته المتنوعـة المبثوثـة في مختلـف الأرجـاء، أمـا العلويـة فجنـاح كامـل خـاص بالمضيـف الكريـم، كل القاعـات الواسـعة الفسـيحة الغنيـة الثريـة زاخـرة بمـا لـذ وطـاب.

تدخل السيارات بمختلف ألوانها وأنواعها، ويذوب المكان في الهرج والمرج، ضحكات ممزوجة بشتائم متبادلة متبوعة بقهقهات عالية ماجنة وهائمة تنطلق بلغات متعددة، فلا تتوقف عند حيز اللغة العربية، المخرج وتابعوه والمنتج وأعوانه، عمال ذاهبون وقادمون، أدوات ينصبونها وإضاءات يجربونها وعواكس وطرقات تمرق فوق قضبانها الكاميرا المتحركة، كلمات آمرة بالصمت والهدوء، أراء تنطلق في صورة أمر وعودة لاستكمال التصوير أو إعادته من جديد، صنوف متعددة من البشر، ثقافات متباينة من جامعات خاصة من داخل مصر أو من خارجها، عمال إضاءة ومساعدون منهم من لم يحصل على أي درجة علمية، يمترجون جميعًا، كلهم بلا استثناء يحاولون التقرب من ابن الزعيم وإرضائه، يتمنون الجلوس إليه ويتجاذبون أطراف الحديث، يضع نفسه موضع العليم بكل شيء، ينصاعون لآرائه وأفكاره ويُنَصِّبُ نفسه ناقدًا وعالمًا، يبدو مزهوًّا بنفسه متعاليًا بنظراته.

في جلسته الخاصة أو حركته التي يتفقد فيها أركان القصر وما يدور في أرجائه تلتف حوله أكثر من فاتنة، كثيرات يحاولن أن يجذبن انتباهه، عاشق للتنوع والتغيير، الفاتنات من جميلات السينما والفن والرقص، كلهنَّ نساء ناعمات، يعبثن ويلهين وهو يقارن ويتخير ويشير بمن تستحق، نعم أغلبهنَّ طوع بنانه ولكنه يبحث عمن تنام في مقلتي عينيه لتنام في مخدعه بعدها، من يتخيرها تصير كزوجة فلا يلمسها إنسان آخر ويقول:

«أنا أعشق امتصاص عصارة العذارى».

حديث يردده ضاحكًا والكل يعرفه ويحفظه.

على مصري أن يكون أكثر حذرًا وخاصة على سلاحه، يتمنى أن لا تغفل عيناه؛ ليرى كل ما يدور حوله، كلمات تدور في جوفه قسرًا عنه، مقارنات لا تنتهي وعليه بالصمت والصبر، يمارس حريته التي كان يتمناها وها هو يحققها ويعيشها عبدًا ذليلًا، كلمات وحوارات تتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية كما يراها أفقه غير المتتبع لتغيرات الحياة، مضطر أن يبتلعها ودومًا لا تهضمها المعدة أو العقل وتظل عالقة وعليه أن يلوكها من جديد، على العصارات أن تذيبها وتذهب بعسر الهضم الذي يعانيه، أفعال وعليه أن يغض بصره ويردد:

«من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه»

ويتهكم على نفسه ثانية:

«لا تظن بهم السوء فإن بعض الظن إثم»

ما يحدث حوله يدمي رأسه فتضطرب وتصاب بالصداع، ولكنه يحاول أن يكون أكثر بلادة كما اعتاد، يعرف قدراته وعليه أن لا يجهر أو يئن بالشكوى حتى إلى نفسه، لقد تحمل الإساءة من أقرب الناس إليه وابتسم، هو مجبر بحكم مولده وحياته السابقة، ترى عيناه ملامح الحياة الغريبة التي تدور رحاها من حوله، يغطس من جديد وبإرادته في جوف دنياه، يبحث عن حريته المفقودة في الأزقة والدروب بفقرها وعوزها ونتانتها في بيوت حزينة تسكنها الكآبة.

بمن يأنس؟

عليه أن يكسر شوكة تذمره التي تهم، فليس بيده حيلة، يعمل حارسًا وهو مجند ورهن إشارة قائده، يستنفر كل معالم

الجبن والخضوع التي لازمته منذ طفولته، يضحك بلا صوت ويهزأ ويسخر من ذاته قائلًا:

«عليهم أن يفعلوا ما بدا لهم، المكان ملكهم وهم راضون قانعون بفعلهم، علي أن أصفق لهم محييًا وأرجو أن لا يضنوا عليَّ».

حفيف الملابس وهمس الأحاديث وأصوات ناعمة هادئة وربما متصنعة، كلها تتنافس مع همسات الليل، وعندما يأذن ابن الزعيم تنطلق الضحكات وتكسر حاجز الهمس ويعم ضجيج الفعل ورد الفعل، سيدات وجواري، من يتقلدون أدوار البطولة ومن يرتضون بأدوار الكومبارس، تتجول عيناه وترتد في عجب وصمت، يزيغ بصره ويقبض على بندقيته بقوة وخوف يعتريه، يخاف أن يهاجمه أحد السكارى ويحاول الاستيلاء على سلاحه، ومن يحاسبه فهم لا رقيب على أفعالهم، وتحت نشوة المخدر لا يدري ما يفعله، فحرصه على سلاحه كما يقول: هو حرص على العرض والشرف.

كلهم يبايعون ابن الزعيم بالإمارة عليهم، يغدقون عليه بالألقاب، يتكسبون الكثير من ورائه، فالليلة الواحدة لاستئجار هذا الموقع للتصوير تكلفهم مئات الآلاف من الجنيهات، لا يدفعون شيئًا فهو عاشق لفن صناعة السينما ومن يشاركون وخاصة الممثلات، وقد يدفع من جيبه الخاص ويسترد ما دفعه في علاقات عاطفية سريعة وربما مبتذلة، يفرشون الأرض تحت قدميه بصفات الكرم والشهامة والمحبة، وكلٌّ يسعى لمزيد من الكسب، يتحرك بجثته الضخمة مختالًا ويوزع عليهم ابتساماته وعطاياه، يلهجون بالشكر والثناء، تصل إلى أذن مصري كلماتهم

فيتساءل:

هل ما يحدث حقيقة أم طيفَ أحلامٍ؟

في حركات لا إرادية متناغمة يخبط بذراعه أعلى فخذه، حذر بلا جذع وحرص أن لا تغفل عيناه، مزيد من الدهشة والذهول في البداية ثم أصبح الأمر معتادًا وليس فيه جديد عليه، يفحص مصري الوجوه والأشكال ويعقد مقارنة فيما بينهم وأهله وذويه هناك، لا يدوم تأمله كثيرًا، تتسرب إليه علامات بهجة لا يعرف لها سببًا.

مع ساعات الإشراق وقرب تبدد العتمة واقتراب إشراقة الشمس يمضون، تنطفئ جذوة النيران التي خلفتها تلك الليلة وما اجتاح صمت القصر وما فيه من خروج وأفعال، يحمد الله ولكن لا يقيم صلاة الصبح كالمعتاد.

نسائم الصباح الندية لم تفلح في رفع الخوف المصحوب بالدهشة الذي نام في جسد مصري، فتحت النساء شهيته، أفعالهن وضحكاتهن جلبت نقمته عليهن، رغم الإعجاب الذي تملكه للحظة إلا إنه عاد يسأل:

«أين ذهب حياؤهن؟»

أشعة الشمس القادمة بلونها البرتقالي تغمر الأرجاء، معلنة مولد يوم جديد ومصري في سريرته يحمد الله أن يومًا قضي على خير، تتحرك سيارة ابن الزعيم فيشد جسده ليرفع يده بالتحية كالمعتاد، بجواره مباشرة تقف السيارة، إشارة من إصبع ابن الزعيم كانت كفيلة بأن يسرع ناحية السيارة.

أودع في يده مظروفًا ممتلئًا بالأوراق المالية، لم يتحدث كثيرًا،

طالبه بمزيد من الاهتمام بالحراسة فحسب ومضى.

بهجته بالهدية لم تنسه ما يجيش بصدره، عندما خرج سؤاله عن الزعيم كان زجاج نافذة السيارة ارتفع وأُغلق وتحركت السيارة، لم يشبع أذنه بما يريد ويتمنى، ربما سمع ولم يشأ الإجابة، لم يعره اهتمامًا، من يكون؟ مجرد خادم حارس.

حنق وزفرات ألم وأنين وضجر وعندما تلمس أنامله الأوراق المالية الجديدة تسري في جسده روحًا جديدة، تنقشع غيوم التذمر وتتسرب معالم بهجة داخلية، ولا تطفح على معالم وجهه الخارجية، يراوغ ظاهره باطنه، فلم يشعر بغصة في جوفه أو بألم في حلقه.

عليه أن يوارب باب خير ولا يغلقه، غد قادم قد يحمل خيرًا يزيد، كلمات حامد تتردد بين جوانحه:

«الرجل الواعي يتكسب من كل المواقف».

«اخلع جلباب الصلاة على باب المسجد واتركها لحين تعود ثانية للصلاة».

«كن كرمال الصحراء تمتص كل الغيث والمطر وتنتظر المزيد».

يحاول أن ينفض الهموم عن رأسه، زحام وضوضاء كطنين نحل، شهيق عميق وزفرات بلا بكاء، يلتمس النجاة مما ألمَّ به، يتمنى للحظة الفرار لكن كيف؟ تخذله أفكاره وتَئِن تحت وطأة كينونته، هو مجرد جندي حارس، الجنود كثيرون ويُستعاض عنه بعشرة إن أرادوا، عليه أن يفرح بحريته وعبوديته في خدمة أماني السادة والكبراء.

-٦-

عندمـا جلـس أمـام صاحبـه؛ ليعلِّمـه قواعـد لعبـة الشـطرنج، يـرى أن العسـكر دائمًـا وقـود لمعركـة الملـك للبقـاء، تنتهـي اللعبـة بمـوت الملـك ولا أحـد يهتـم بمـوت العسـاكر والجنـود، فخطـى الجنـود محـدودة فهـم مجـرد حائـط صـد أمـام الغـزاة.

عليـه أن يتجـاوز بسـمعه وبـصره مـا يـدور حولـه، أحيانًـا يشـعر بضيـق وتذمـر حـتى يبـدو وكأن جسـده لا يتحمـل ثقـل ملابسـه الـتي يرتديهـا.

لحظـات تحـط النقمـة رحاهـا فـوق عقلـه وقلبـه، مشـاعر مؤقتـة تنتابـه ولا يلبـث ويعاتـب نفسـه فعليـه أن لا يـئن ويتوجـع، ليـس بـلاء ولا كربًـا وعليـه أن يستسـلم ويكتـم مـا يجيـش بصـدره وبينـه ونفسـه يـدور حـوار:

- لن أطيع.

- ستخرج من تحت رحمتهم.

- الطاعة لله.

- والله سبحانه يطالبنا بطاعته ورسوله وأولي الأمر.

- أين أولو الأمر؟

- لقد تجرأت ونسيت نفسك.

حوارات تتعاقب وأسئلة تتردد مع نفسه ومع آخرين.

حوادث تتكرر تباعًا طوال فترة غياب الزعيم، هل سيأتي؟ ومتى؟ يشعر بحنين للرجل، تداعبه الحوادث بعنف فلا ينسى يوم تقدم أحدهم صوبه، استأذنه في سجادة الصلاة، امتدت يد مصري بالسجادة إليه، لكن عينيه تتبعت خطاه، لم يصدق أن أحدهما سيقيم صلاة في تلك المعمعة وهذا الهرج، سحب رفيقته من يدها وبدت السعادة تغمرهما، فرش السجادة تحت شجرة البرتقال الكثيفة الأغصان، تهامسا في فُجر ومجون، لم يستطع الصبر وتشجع وكأنه حارس حمى الدين والشريعة، تقدم صوبهما، انتفضا واقفين.

بغضب بادٍ فوق ملامح مصري:

- حرام عليكما.

سحب السجادة وهما صامتين.

تشتعل نيران في صدره، تهتز فرائصه وترتعش يلعنهما في سره، هل سحبه لسجادة الصلاة رفع عنه الغضب وأطفأ النيران، بلا تردد امتدت يد العاشق ودفعته فدار وأصبحا متواجهين.

- ماذا فعلت؟ أنت مجنون!!!

- إنه فعل فاضح في مكان عام.

- هذا بيت خاص.

- أليس للبيت حرمة ووقار؟

- لا تنس نفسك.

سيل كلماته رغم أنه يبدو مجرد عامل فني بسيط تابع للسادة في مجال الفن والسينما خاصة، إلا أن نبرات صوته فيها تحدٍّ وبجاحة غريبة، يستخف به كإنسان، لا يستطيع المجابهة

فيبتلع الكلمات، يحاول أن يرسم على وجهه ابتسامة فيصفه بالبله والغباء، لا يجرؤ على رد كلماته الساخرة والمؤنبة له، تهتز رأسه موافقة ومؤمنة على كل الصفات التي أطلقها وألصقها به.

حميته وبراءته في ردة فعله كانت مثار سخريتهما، نظرًا إليه وضحكًا وانتشيًا وسحب بعضهما ومضيًا يجوبان في كل مساحات المكان حوله، يرمقانه بنظرات تصفعه وعلامات السخرية واضحة جلية.

ترتعش حتى رموش عينيه، يعتريه قلق مصحوب بخوف وتوجس من شر قادم تبدو بوادره في كلمات ذلك التابع، يشعر كل يوم بمدى جهله بأمور الدنيا من حوله، خيبة أمل يحسها في آماله التي يومًا رسمها، هل يتمتع اليوم بالحرية؟ لم تتوقف أفكاره فازداد بها رهقًا فأدمت فؤاده وفجرت داخله معالم إنسانيته المهدرة، عليه أن يتحمل عبق هواء الحرية الذي يبغيه، عليه أن يتحمل فوق كاهله المثقل بعذابات الفقراء البسطاء، ما أدراه هو عن المدنية والرقي، قادم بكل آفاته وأمراضه من زمن الجهل والظلام، جاهل لا يعرف شيئًا، عليه أن يتغير أو يساير الركب وأن يقدم اعتذاره، ليس عليه محاكمة الآخرين، إنه آثم ومرتكب معصية وما زالت رائحة الدنس في جسده رغم اغتساله، عليه أن يترك الملك للمالك، وألا ينس أنه في ذيل قائمة البشر.

مَن يسأل؟ وبمَن يستجير؟

قالوا له:

ما دمت تبحث عن الحرية عليك أن تغض البصر عن حرية الآخرين.

راح يقلب كل ما يحدث حوله من أفعال، يسأل ويدعي الجهل.

- ما الحكم في تلك الجريمة يا سيدنا؟

يضحك ساخرًا:

- عليك أن تستغفر ربك أوًلا.

- أستغفرُه وإليه أُنيبُ.

- حتى تكتمل معالم تلك الجريمة يلزمها شهود أربع ثقات، أن يمرر ما بين الجسدين خيط فهل من الممكن هذا الفعل، وأما الأهم هو دخول الحشفة في الرشفة فهل تعرف ما هي الحشفة والرشفة.

اهتزت رأسه معلنًا الجهل.

استطرد الشيخ:

المرود في المكحلة.

يبدو أنه سمع الكلمة من قبل لكنه لا يستوعبها في تلك اللحظة، مال الشيخ مبتسمًا وهمس في أذنه، فابتسم بدوره وقد أدرك المعنى والمقصود، اعتدل الشيخ واستطرد:

- أما أنت فراجع نفسك، أنت مجرم ومرتكب معصية وكبيرة من الكبائر، فمجرد أن يتهم إنسانًا بارتكاب الزنا فهو عاص، فالأولى كما يقولون: أن يرمي عليهما بستار ولا يفضحهما، سمع هذا الكلام أيضًا من قبل، الصمت هو الأفضل في كل الأحوال.

حيرة كبيرة وأسئلة تتردد.

- أهو جندي أم عامل أجير؟

ضباب تجمع حول رأسه فضاعت معالم الحرية التي كان

يحلـم بهـا هربًـا مـن حياتـه السـابقة، هـو مجـرد عبـدٍ مِلـك سـيده، عليـه طاعـة الأمـر ومـن حـق سـيده أن يبيـع ويشـتري فيـه، إنـه زمـن العبيـد يعـود، مجـرد أن يؤمـن بأنـه عبـد، أصبـح كافـرًا فقـد أشرك مـع الله إنسـانًا في العبوديـة، يصـف نفسـه بالكفـر ويحـاول أن يلتمـس لنفسـه الأعـذار والأسـباب الـتي دفعتـه لذلـك قائـلًا:

- من اضطر .... فلا إثم عليه.

مـا يـراه يثـيره وحالـة مـن التعصـب تعتريـه، عليـه أن يتخلـص مـن تلـك العصبيـة الكاذبـة والتقـوى المدعـاة، يتذكـر حكايـات الطفولـة، الثعلـب يـوم يبتغـي عنقـود العنـب الـذي يشـتهيه، العنقـود الماثـل أمـام عينيـه وبعيـد المنـال عـن يديـه، سـيحاول أن يحظـى بـه رغـم كل الموانـع ولـو كانـت النتيجـة تحطيـم كل الكـرم لينالـه ولكـن في ثعلبـة ودهـاء ومكـر؛ ليغـض بـصره ولا تتعقـب عينـاه الآخريـن؛ ليمتـص غضبـه وأن يتسـمر في مكانـه كصنـم بـلا روح، مجـرد أن يحـاول التفكـير فيمـا يحـدث جريمـة يعاقـب عليهـا وفـق قانونهـم الموضـوع، إنـه ابـن الزعيـم، هـو حـر يفعـل مـا شـاء ومـتى شـاء، ومـن أتـوا ففـي معيتـه يمرحـون، تحـت غطـاء عباءتـه وقانونهـا يفعلـون مـا بـدا لهـم، فـلا يجـرؤ إنسـان أن يسـألهم، أفعـال لا يقرهـا شرع متحللـة مـن كل أنـواع الحيـاء، جـوف الحديقـة يمـوج بأفعـال سَـكرى، وكأنـه لا يصـدق نفسـه ويعاتـب ذاتـه، فعليـه أن يتأكـد أن كل مـا يـراه تهيـؤات ومحـض خيـال، فهـم ممثلـون وعليهـم الإجـادة ومعايشـة الأفعـال والأحاسـيس، كل هـذا تمثيـل، عليهـم أن يتدربـوا عـلى الفعـل قبـل الوقـوف أمـام الكامـيرا والمخـرج والمصـور، سـيعيدون المشـاهد مـرات ومـرات، كل مـا يـراه تدريـب وتدريـب للوصـول لمرحلـة النضـج والاكتمـال.

***

عليه أن يأخذ من عصافير وطيور الحديقة مثالًا، كل يوم تغرد كالمعتاد، رغم أنهم كثيرًا ما يقتلون العصافير التي تغرد.

يمضي في الشارع الطويل بغير هدى، راحة تتسرب لمعاقل جسده وكيانه، يتحلل من كل التفاهات التي يفكر فيها، يحصي ما بحوزته من أموال وما تكسبه من وراء تلك العبودية التي يدعيها، آلاف من الجنيهات لم يحلم يومًا بلمسها، كل ما عليه أن يذهب ليقبل يد أمه ويسلمها ما بحوزته وليبارك زواج أخته من حامد، رغم معاناته الدائمة من ثرثراته الداخلية مع نفسه، طوال الوقت يعقد مقارنات ما بين ما يعيشه اليوم وما عاشه في زمنه الماضي كله.

هل تتساوى كل النساء؟

هل ما يراهُنَّ نساء حقيقيات؟ إنهن جديدات شكلًا وموضوعًا بالنسبة له، يقر بأنهن من كوكب آخر، مظهرهن بخصلات شعرهن اللامعة ذات الألوان المختلفة، كم تشتهي نفسه تلك السيدات الرائعات، رغم أنه يحيد بعينيه بعيدًا ولكن نظراته تكاد تفترسهن، كل النساء مليحات ناضجات وملاحتهن لم تعتدها عيناه.

يكسر ملل اللحظات الطويلة بحكاياته واستعراض مسيرة حياته الماضية، معالم الحياة تغيرت كثيرًا من حوله.

يضحك أحيانًا وهو يتذكر أنواع الطعام المقدم إليه، أكلات جديدة فلحم الدجاج المقرمش واسمه الغريب، يسأل الخادم:

- ما هذا الطعام؟

يبتسم الخادم ويقول:

- كلو سلو.

يحـاول أن ينطـق الكلمـة ثانيـة ولكـن يكون الفشـل نصيبـه، يضحك كلاهمـا ويحـاول مـن جديـد أن يكرر الكلمـة ويقولهـا بطريقته:

- آه ... حقًّا كلوا سوا.

يفسر الكلمة وفق هواه فيضحك ويكمل:

- مد إيدك وسمي... بسم الله.

يفارقه الخادم مبتسمًا ويمضي.

مشـاهد العشـق الـتي تتمثـل في مخيلتـه مـع أم حامـد، يبتسـم ويمـضي في طـرب غريـب يتسـلل إليـه، يلعـن نفسـه ولا يلبـث يتذكـر الشـيخ الغريـب يـوم كان يعـاني مـن صعوبـة النطـق لجملـة كاملـة، كيـف كان يتنبـأ لـه بأنـه أحـد أوليـاء الله يتذكـره قائـلًا:

«إذا سـجنت نفسـك – سـتصبح أكـثر شـفافية سـترى وراء ظهـرك ومـا يخبئـه الغـد ولكـن عليـك أن لا تخـبر أحـدًا بذلـك».

يـوم كامـل شـبه مـشرد في شـوارع مزدحمـة بالبـشر، يتأمـل الأعـداد الهائلـة الـتي تتصـارع في سـبيل الحصـول عـلى لقمـة العيـش، يلهثـون خلـف وسـائل المواصـلات المختلفـة، معـارك ومشـاجرات، لعنـات وضوضـاء، يفكـر في كـم البـشر والغـد ومـا يحمـل لهـم، كان أكـثر راحـة لا يفكـر سـوى في ذاتـه فحسـب، لمـاذا يـتزوج البـشر؟ ليتناسـلوا؛ ليـأت أطفـال لهـذا الهـم والكـرب والغـد غـير المعلـن عـن وجهـه، الغـد بائـس مجهـول الهويـة لا أحـد يعـرف مـاذا يخـبئ وراء تلـك الأعـداد الرهيبـة، القهـاوي ممتلئـة والشـوارع ضاقـت بالمريديـن، كلٌّ يبحـث عـن مزيـد مـن المـال والـثروة.

تجمعهمـا جلسـة المسـاء المعتـادة، يحـاول أن يقـص عـلى حامـد

مـا يعـج بـه فـؤاده وأفـكاره الـتي تتشـعب فـلا يـدرك الصـواب والخطـأ منهـا.

قال حامد بلهجة ساخرة:

- الصبر .

آهة عميقة وتنهيدة وهو يقول:

- لنصبر مثل الجِمال.

يضحك حامد بصوت مرتفع مرددًا:

- وعلى الجمل أن يبرك ... ليركب الكبراء .

هـمَّ بـأن يـرد عليـه بسـخط نائـم داخـل صـدره، اسـتأذنه وهـو يغمـز بعينيـه، كانـت هنـاك إشـارة سـابقة مـن أم وردة، ابتسـامة تمـلأ وجهـه ويشـعل سـيجارة مـن ذوات الوهـج السـاطع والضبـاب الكثيـف وإشـارة مـن يديـه تعـني الـوداع، ويميـل عليـه قائـلًا:

- الولية الليلة عشرة على عشرة ... باي.

يمتـص لعابـه، يلعـن حامـد في سريرتـه، تسـيطر عليـه أمـاني الشـهوة، يتمـنى المـرأة أيًّـا كانـت وبـأي صـورة، يشـعر بحنـين جـارف أن ينـام بـين نهـدي أم وردة أو حـتى أم حامـد نفسـها بنهديهـا اليابسـين.

-٧-

يغـرق المـكان في صمـتٍ لليـوم الثـاني عـلى التـوالي، رُغـم أنَّ وجودهـم يكسر ملـل الليـإلى، يشـعر أن الزعيـم في طريقـه للعـودة؛ لكـن أليـس غريبًـا أنَّ غالبيـة العاملـين في القـصر متغيبـون؟ أيـن ذهبـوا؟.. صمتٌ موحـشٌ، يقتـل وحدتـه بذكريـات مـن كانـوا بالأمس وأولَّ أمـس، أيديهـن مـن الملـبن، فتبـدو راحـة أياديهـن بـلا عظـام نهائيًّـا، حـتى مـا يظهـر مـن سيقانهنَّ، كان يتأملهـن ويتمـنى أن يلمـس أيديهـنَ. السـيقان والأيـدي مصقولـةٌ لتوهـا، حـتى الأظافـرُ ألوانُهـا مبهجـةٌ وتقطـر جمـالًا، أريـجٌ رائـعٌ منعـشٌ، عـلى إيقـاع خُطُواتهـن، يرقـص داخلـه، يختلـس النظـراتِ لهـذه السـاق المخروطيـة بربلتـه المعتدلـة السـمينة الرشـيقة التكويـن، رقـةٌ وروعـةٌ، و كل مايـراه كان تحريضًـا صريحًـا مبـاشرًا لـه لتفجـير رغباتـه المكبوتـة، يـا تـرى لـو لمسـت إحداهـن يـده هـل تصـاب بالمـرض؟

لا تتوقـف سـخرياته مـن نفسـه، يعـود بأسـئلة متشـابهة ولا يحظـى بإجابـة تريـح فـؤاده، تطـوف بذهنـه حكايـات عـن حمـار العمـدة المدلـل، يعقـد مقارنـة بينـه وبـين حمـار العمـدة، ليـس هنـاك فـرق كبـير. العمـدة حريـص أن يقـدم لحمـاره مـا يحـب مـن الشـعير والفـول والـذرة، أمـا الفـرس فكثـيرًا مـا يلقمـه في فمـه قطـع السـكر، والزعيـم وولـده أيضًـا لا ينسـيانه في علـف إنسـاني، أشـياء لـم تلُكهـا شـفتاه، ولـم يجـرب لسـانُه مـن قبـل مذاقَهـا؛ مـن معجنـات وفطائـر وحلويـات شرقيـة وغربيـة، هــذا قمرديـن، وهـذا مشـمش يابـس..

يتأمـل الثمـراتِ الغريبـةَ ويقلبهـا في يـده ويحفـظ مـا يرددونـه بـأن هـذا لـوز وفسـتق مسـتورد مـن الخـارج وتـين مجفـف، يتفـرج عليهـا قبـل أن يلتهمهـا، يقـول لنفسـه إن سـعادته تعـادل سـعادة حمـار أو فـرس العمـدة، يضحـك، ضحكاتـه تبـدد وحدتـه، يتذكـر صرخـات المخـرج وزعيقـه مطالبًـا الجميـع بالصمـت، تـتردد كلماتـه وهـو يقـول:

-أشـعر بـأن الحديـث مجـرد ثرثـرة وكلمـات متداولـة، أيـن حـرارة الكلمـات؟ أريـد أن يشـعر المتفـرج بالجمـر المتقـد في جسـده.

لا يبخـل المصـور برأيـه مؤيـدًا وجهـة نظـر المخـرج، يقـترح أحدهمـا أن يكـون الفعـل ورد الفعـل مـا بـين البطـل والبطلـة ملموسًـا ومحسوسًـا، يشـد القلـوب والأفـكار قبـل الأنظـار، يـردد المخـرج بعاصفـة مـن التعليقـات:

هـل أذهـب بالكامـيرا لمناطـق ملتهبـة مـن العالـم ليشـعر المتفرج بحرارتها ؟

الممثلـة الفاتنـة تومـئ برأسـها مسـتجيبة لأوامـره، تصبـح شـبهَ عاريـةٍ، وتطالبهـم بـالإسراع في الانتهـاء مـن المشـهد؛ لأنهـا تشـعر بالـبرد، مسـاعِدتُها بجوارهـا تلقـي بغطـاء فوقهـا، ولكـن الحسـناء تدفعـه بعيـدًا؛ فقـد قـررت أن تخـوض المشـهد بـكل قـوة.

مفاتنُهـا تتألـق وتجـذب كل الأنظـار، ويفيـض القائم بـدور البطولة بالقبـلات واللثمـات. يتكـرر المشـهد ويذوبان حرارةً وعشـقًا.

في النهاية يصفق الجميع مهللين بالأداء الرائع.

يتذكر كلمة أحدهم وهو يهمس في أذنه:

- المخرج زوجها.

لحظـات تهاجمـه الشـهوة، ويشـعر وكأن داخـل جسـده جمـرٌ متقـدٌ، لـم ينضـب معـين حبـه للحيـاة رغـم أنـه فقـد كثـيرًا مـن طمـوح الفقـراء المغلوبـين، عاودتـه أحـلام الليـل المحملـة بالرغبـة الجامحـة كشـلال.

***

متسـللًا ومتحـركًا في حـذر، بعـد أن أطفـأ سـيجارته، فقـد لمـح شـبحًا يحتمـي بالظـلام، يخـرج مـن سـجن حراسـته، يشـعر بـأن جسـده نـزَّ عرقًـا. تربـع الخـوف للحظـة ومـن شـدة الخـوف تأتيـه الشـجاعة؛ يتحـرك ويترقـب في حـرص شـديد.. يبـدو أن المتسـلل يعـرف المـكان جيـدًا؛ لقـد اختـار ناحيـةً مـن السـور الأقـل ارتفاعًـا، ولا تغطيـه الأسـلاك الشـائكة، يتأكـد مـن صـدق رؤيـاه، الشـبح يتحـرك متلصصًـا محـاولًا أن لا يثـير ريبـةً، أو مـا يشـير لوجـوده.. تتسـارع نبضـات قلـب مـصري، ويشـعر برعشـة أطرافـه، يحـاول أن يحتـوي مشـاعره المرتعبـة، يتماسـك وتـتردد الأسـئلة داخلـه بسرعـة، ومـن شـدة خوفـه يفكـر أن يـضرب الشـبح بقـوة بمؤخـرة البندقيـة فـوق رأسـه، يـتردد ولكـن لا يجـد سـوى ذلـك الحـل. وبسرعـة ينفـذ مـا اسـتقر عليـه، يقـع عـلى الأرض وقـد فقـد اتزانـه فحسـب ولكـن لـم يفقـد وعيـه كامـلًا، يستسـلم لآوامـره وقـد وضـع ماسـورة البندقيـة في ظهـره، دفعـه للأمـام لمقـر الحراسـة، هـل يفكـر في الاسـتجارة؟ بمـن؟ ثـم بضربـة أخـرى مفاجئـة مـن الخلـف يسـقط عـلى الأرض بـلا حـراك، ينقـض فوقـه ويجعـل وجهـه جهـة الأرض، يقيـد يديـه خلـف ظهـره وكـذا قدميـه، يجلسـه مسـندًا ظهـره للجـدار، يتأكـد أن أنفاسـه تـتردد ولـم تخمـد، يشـعر بالـدم اللـزج في رأسـه، يقـوم

بمحاولـة ربـط الجـرح؛ ليوقـف نزيـف الـدم.

ماذا أفعل؟

يقـف وسـط الحجـرة المتسـعة وينظـر لسـجينه، وارتبـاك ظاهـر يبـدو جليًّا فـوق معالـم وجهـه، لـم يحـدث هـذا مـن قبـل ويعـود ليسـأل نفسـه هـل مـا فعلتـه هـو الصـواب؟

يمسـك بندقيتـه بقـوة بكلتـا يديـه، ويسـبح في أسـئلة تـترد؛ فيـا ليته أطلـق رصاصـةً في الفضـاء، وهـرب هـذا اللـص مبتعـدًا وأراح نفسـه مـن عنـاء الفكـر فيمـا سـيفعله، لكـن ممنـوع عليـه ووفقًـا للأوامـر أن يطلـق النـيران، نعـم الذخـيرة موجـودة وملـك يديـه، لكـن الأوامـر هـي الأوامـر، وهـو حريـص كل الحـرص أن لا يخالـف الأوامـر .

يعـرف بأنهـا مجـرد بندقيـة فارغـة أو خيـال مآتـة، ممنـوع عليـه استخدام الذخـيرة، مجـرد فـرد حراسـة اسـتكمالًا للصـورة المطلوبـة. يتأمـل وجـه الفـتى الفاقـد وعيـه الـذي يقاربـه عمـرًا، يمتـص لعابـه وقلـق وخـوف يسـيطران عـلى مختلـف مناحـي جسـده، تكـسر الصمـت والفكـر الذاهـب فيـه آهـةٌ مـن الفـتى، يحمـد الله بأنـه اسـترد وعيـه ولكـن الخـوف يتملكـه، وعليـه أن لايجـازف بالاقـتراب منـه أكـثر، ربمـا آهـات الفـتى وقيـوده أشـعرته بسـكينة، تـرددت آهـات الفـتى، امتـدت يـد مـصري بزجاجـة ميـاه معدنيـة إلـه، رشـف رشـفةً طويلـةً وبنـبرات واهنـة تكلـم:

- أنت ضربتني؟

- نعم.

- لماذا؟

- أنا أقوم بالحراسة، أنا مجند.

- جندي وحارس.

- نعم.

- الحارس يمنع الجريمة.

- وهذا السبب ما دفعني لضربك.

- كل يوم جرائم تتم داخل هذا المكان.

- هذا لا يشغلني.

- أنت حارس للجريمة.

- أنا مجرد حارس ولا أعرف ما يتم بالداخل.

- فك قيودي وسأريك ما يتم بالداخل.

- سأسلمك في الصباح.

- ألم تر المتاجرين بالعرض والشرف، الفسدة والقتلة؟

يتفحصه بعينين حذرتين وكلماته ترن في أذنيه، هو محق بهذا الشأن، يواصل الفتى حديثه وهو يئن ويتوجع، أقواله تلامس ما يستشعره مصري، ولكنه لا ينسى نفسه، وأين هو منهم ودوره في تلك الحراسة، لا يجد ما يجود به من حديث أو ما يتحدث به مع الفتى الذي يهاجمه ويلعن رجولته. يصمت أمام سيل هجمات الفتى اللص، يتهمه ويصفه بأنه إنسان بلا كرامة، وأنهم يغررون به ويخدعونه تحت مسمى أنه جندي، يسأله عن ضميره وأين ذهب.

- ألم تر عيناك الفساد؟

- لا.. يرد عليه.

ينهال بالشتائم والسباب فوق رأسه، لا يجد مفرًا أمام تطاوله

سوى أن يسحب منديلًا ويكمم فاه ويشد عليه.

يعود الهدوء والصمت للحجرة..هل يفك أسره؟.. كأن بحرًا عاصفًا وأمواجه المتلاطمة تضرب خلايا عقله، يشعر بالمياه والعرق الذي يغرق جسده ويغمره ولا يفكر في شيء سوى تردده وأسئلته:

- هل هو لص؟

- مؤكد.

- لا يبدو من مظهره، ولا ملابسه توحي بذلك.

- ليست بالملابس والمظاهر.

- لكن مظهره يعكس.

تتناقض أقواله مع بعضها ويصب لعناته لكن على مَن؟

من الصواب أن يفك أسره ويطلقه؟ أم الأفضل أن يسلمه؟

لمن يسلمه؟ أللشرطة أم للكتيبة أم للسيد ابن الزعيم؟ احتمال قائم أن يكون بريئًا أو مظلومًا، لكنه كان يستعد لتخطي حاجز السور، لص بلا شك، ماذا كان في نيته؟ لم يفصح أو يقول شيئًا، كل ما استطاعه أن سبني وشتمني ولعنني وأنا لم أفعل له شيئًا، أنا أقوم بواجبي، يقول إنني أحمي الفسدة والمجرمين والمتاجرين بقوت الناس. نعم لقد رأتْ عيني من يبيعون الشرف ومن يسرفون في كل الأفعال البغيضة ويمتلكون الكثير والكثير، لا حياء في فعل يرتكبونه؛ صاحب القصر رغم أن قلبه طيب كما بدا لي في تصرفاته وحوارته القليلة معي إلا أن الجميع يقرون بسطوته ومكانته مع أصحاب القرار في البلد كلها، هو أشار بذلك وما رآه المصري وما سمعه عنه يؤكد تلك

الأقـوال، أمـا ابنـه فمجنـون واسـتعداداته قائمـة ليفعـل كل شيء ولا رادع لـه.

تتقابـل نظـرات المـصري واللـص المتسـلل، تهـتز رأسـه ويبـدو في عينيـه بريـق أثـر انعـكاس الأضـواء عليهـا وإغراقهمـا بالدمـوع، يشـعر مـصري بهـزة تأخـذ جسـده وإشـفاق عـلى حالتـه، تعاطـف خفـي لا يـدري مكنونـه. يبـدو في عينيـه سـؤال يـود أن يلقيـه فـوق رأس مـصري.

يستشـعر المـصري ذلـك، والواجـب والعـدل يقتـضي أن يسـمعه وعـليَّ ...

يتوقف عن الحديث إلى نفسه معاتبًا ذاته:

هـل أنـا قـاضٍ أم نصبـتُ نفـسي رجـل قانـون؟ مهمـتي مجـرد حـارس أمـن، إنـه لـص وعـليَّ أن أتخلـص منـه، كان مـن الممكـن أن يتخلـص مـني لـو واتتـه الفرصـة. يقلـب جيـوب الفـتى ويخـرج كل متعلقاتـه الـتي لا تتعـدى مطـواةً صغـيرةً مـن نـوع «قـرن الغـزال» يبـدو حـتى أن نصلهـا يعلـوه الصـدأ. مجنـون يـأتي لقلعـة الجميـع أو الغالبيـة يعلمـون لمـن تكـون ليـسرق مسـلحًا بتلـك المطـواة الصغـيرة، مـترددًا مـا بـين مـا يقتضيـه الواجـب ومـا ينـام في صـدره تجـاه الفـتى المتسـلل، تـدور كلمـات الفـتى عـن الكرامـة والـشرف والعـرض في ذهنـه، لا يعـرف مـا تحمـل تلـك الكلمـات في طياتهـا.

لـو واتتـني الفرصـة لأقتلـه، لا أسـتطيع فأنـا لا قلـب لي عـلى القتـل، والحراسـة أمانـة في رقبـتي، سيسـوقونه إلى السـجن وسيلاقي عذابـات وآلام.

نـدت مـن الفـتى صرخـة مكتومـة وتقلـب في موضعـه، ارتجـف

واقشعر جسد مصري بشدة، اخترقته آهة وتنهيدة الفتى وأصابت قلبه مباشرة، صوت ينبع من داخله يتردد صداه:

«أطلقه إنه صغير».

يسيطر على رعشة أطرافه التي تمتد ليفك في البداية عن فِيه.

يتقلب الفتى حتى يصير جالسًا، تمتد يد مصري مساعدةً له، يستند بظهره على الجدار، يصدر زفرة مشبعة بألم خفي، في توسل وحزن مسيطر على معاقل لسانه يتحدث عن محبوبته الهاربة تحت مغريات سيدة فاسقة ممن يخدمون صاحب هذا المكان، يتحدث عنها واصفًا إياها بكل ما تحمل الدنيا من عبق وجمال وروعة، يقسم لمصري أنها هنا، لكن مصري يرده في قسمه مؤكدًا أن الجميع منذ يومين رحلوا ولم يأتِ أي إنسان إلى هنا، حتى صاحب المكان أو ابنه، يقطع شك الفتى قسم مصري المتتالي وثقته بما يقول.

طالب في الجامعة ومحبوبته الصغيرة تجذبها المغريات، وكما وصفها فهي جميلة رائعة الجمال يرى كل فتيات الدنيا فيها، وتمثل له الحياة وبدونها لا يعرف كيف يواصل حياته، تتبَّعها هي والقوادة التي ألقت بشباكها عليها، عرف المكان، سأل عنها وعرف أنها هجرت حتى بيت أهلها سعيًا وراء شهرة وغد ثري ملوث، يصفهم بأنهم قوم يتوضأون بدم الفقراء، وبلا حياء من رب الخلق يؤدون الصلاة، كلهم كاذبون منافقون.

يبكي الفتى بصوت مسموع، يرتعش جسد مصري أكثر ويشعر بغصة في حلقه، هل يسامره ويحكي له عما يراه؟.. الصمت أفضل. يطالبه مصري بأن ينساها؛ فهي لا تستحق كل هذا الحب، حبها يدفعه لأن يلقي نفسه في النيران، في تريث وهدوء

يـشرح لـه مـصري مـاذا سـيحدث لـه، فالمطلـوب منـه أن يسـلمه. لمَـن؟ الجميـع وكلُّ الأجهـزة الأمنيـة في الدولـة سـتحاول أن تخـدم صاحـب القـصر بمزيـد مـن العقوبـات وتُهـم منسـوبة إليـك، وليـس بعيـدًا أن يصفـوك بأنـك قـادم لاغتيـال الرجـل المسـمى بالزعيـم، عليـك أن تتخيـل كـم الصفعـات والـركلات واللعنـات الـتي سـتصب فـوق رأسـك وربمـا تتعـدى حاجـزك وتصـل لأهلـك وناسـك، كلمـات مـصري نابعـة مـن قلبـه فتلقفهـا قلـب الفـتى وأدرك صحتهـا، زام ولعـن وبـكى، وطالبـه مـصري أن يكتـم صوتـه وهـو يـئن ويتوجـع ويلعـن. قلَّـب الفـتى كلماتـه فوجدهـا صحيحـةً فلـم يغلـق عقلـه واسـتمع جيـدًا، جـرده مـصري مـن سـلاحه الوحيـد وطالبـه بالمـضي بعيـدًا وبسرعـة وأعـاد قسـمه بأنـه لا يوجـد أحـد في البيـت منـذ يومـين ماضيـين.

فـك قيـوده، سـاعده في النهـوض، امتـدت يـده إليـه مصافحـةً، فشـد عليهـا وشـعر كل منهمـا بهزيمتـه.

مـضى مطأطِـئ الـرأس هائمًـا مبتعـدًا، وعينـا مـصري تتبعانـه حـتى اختفى.

***

مصبـاح السـيارة العـالى يخـترق الحاجـز، يسـقط على وجـه مصري، يخرجـه مـن سـباته اللحظـي، ينتفـض ويفيـق مـن جنـون هوسـه، بسرعـة يأخـذ سـاترًا؛ علـه يعـرف القـادم، ينطلـق نفـير السـيارة ويرتفـع ويتكـرر، يتأكـد أن سـائق تلـك السـيارة هـو ابـن الزعيـم بشـحمه ولحمـه، يرفـع يـده بالتحيـة ويـسرع بفتـح البوابـة الرئيسـية، لـم يـرَ إلا مجـرد تحيـة منـه، أسرع بالدخـول يبـدو عليـه التعجـل،

تعقبته عينا مصري حتى اختفى من مجال الرؤية ودخل القصر.

لماذا يأتي في تلك الساعة؟

أول مرة يأتي بمفرده، يلوم نفسه على ذلك السؤال؛ له الحق يفعل ما يشاء، إنه مكانه وملكه، لكن عدم وجود أحد من الخدم أو العاملين بالقصر مدعاةٌ لسؤاله، إنه لا يعرف كيف يتناول كوبًا من الماء، يجب أن يكون هناك من يقدمه إليه، ليس عليه سوى الإشارة بما يطلب فيسارعون لتلبية مطلبه، يأتي وبمفرده!!. يحاول أن يلقي بأفكاره بعيدًا، يأسره اللص بأحاديثه، يستبعد لقب اللص ويلقبه بالعاشق الفقير، المغلوب على أمره. من بين دموعه يصرخ منددًا بالحياة التي نحياها، يصف الدولة بأنها تسير في ركب الضالين المنحرفين، أفكار بعيدة عن الإسلام تحت مسمى المدنية، والحقيقة أنهم يسعون لهدم الدين، وعلينا أن نمضي في ذيلهم حتى يرضون عنَّا ويرفعون قبعاتهم تحية لنا، ولن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم، ساعتها يسأله عن معنى رفع القبعة والفتى لا يدخر كلامه ويصفه بالجهل، لا يلومه مصري، لكن يستمع إليه، لقد أدرك عمق جرحه ومدى معاناته، وهو يصدق أقواله التي باح بها العاشق. العاشق المغلوب على أمره يصف ما يدور في البلاد؛ مخدرات وخمور وجنس، فساد يضرب بجذوره في كل مناح الحياة؛ أقمار صناعية لعنة على الدنيا والدين الإسلامي خاصة، يدمرون الأخلاق ويهجرون القرآن، الأغاني الهابطة والكلمات الفاجرة المتداولة، نساء يجرون اللعنة في أذيالهن، يتحدثن عن الرذيلة بكل فجر وقبح بلا حياء. يردد الفتى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء».

رغم سخرية العاشق منه لكن يشعر بأن كلماته صدق وحق.

يتذكـر أنهـا نفـس الكلمـات المـردَّدة قديمًـا في بلـده، لكـن للفـتى عـذره؛ الـكل ناقـم وأسـباب النقمـة مختلفـة لكنهـا تصـب في مجـرًى واحــد؛ فالشــيخ في البلــد كان يــردِّد نفــس الكلمــات مــع اختــلاف بسـيط، ومنزلـه يعـج بـكل مسـتلزمات الحيـاة العصريـة، ومـتزوج مـن أربعـة دومًـا، وأجهـزة التلفـاز موجـودة، ولكنـه يقـول:

«حُصُوننـا كان يُحـكى عنهـا، حُصُوننـا هُدِّمـتْ واسـتُبِيحتْ خباياهـا، التهديـد مـن داخـل جـدران بيوتنـا مـن أجهـزة التلفـاز والسـتالايت».

يومهـا سـأله أحدهـم بـأن منزلـه فيـه... لـم يكمـل سـؤاله فـأسرع الشـيخ راسـمًا ابتسـامةً سـاخرة وقائـلًا بـلا تـردد:

«عـلى أمثـالي أن يعرفـوا ويتعرفـوا عـلى مـا يدعـون ليجيـب، فهـم يدعوننـا بأننـا إرهابيـين، فالعزيـز الحكيـم يطالبنـا بـأن نعـدَّ لهـم، ويطالبنـا بـأن نرهـب بتلـك العـدة أعـداء الله؛ زجرهـم وردعهـم، ومـن هـم أعـداء الله؟ هـل أصبـح إرهابيًّـا يـوم أن أردد بمـا جـاء بـه القـرآن الكريـم! أنـا رجـل مؤمـن بـكل حـرف وعليكـم أن تحـذوا حــذوي، كلنــا مؤمنــون. إنهــم يصفــون مــن يرتــادون المســاجد للصـلاة بعكـس مـا يحـثُّ عليـه حديـث الرسـول يقولـون:

«إذا رأيتـم الرجـل يرتـاد المسـاجد فاشـهدوا بأنـه إرهـابي» هكـذا يصـورون الديـن والمتدينـين، معرفـة طريـق الحـق جنـون وإرهـاب.

يتذكـر يومهـا كيـف بـكى الشـيخ أثنـاء خطبتـه، أجهـش يومهـا أغلـب مـن يسـتمعون إليـه بنشـيج مـن البـكاء والنهنهـات، كلنـا نصدقهـم وكلٌّ منهـم يبحـث عـن مزيـد، يطـرح سـؤالًا غريبًـا:

هل من الممكن أن يتقلد ابن الزعيم منصب الشيخ؟

يضحـك في سريرتـه ولكـن مـا المانـع؟ إنـه يملـك الكثـير ويسـتطيع بسـهولة أن يجعـل لـه منـبرًا مـن خلالـه يتحـدث ويقـول مـا شـاء مـن القـول، بسـهولة يسـتطيع أن يشـتري قنـاةً فضائيـةً، ويـأتي بجمـوع تحتشـد وتصفـق لـه مهمـا كان قولـه.

في سـخرياته المتتابعـة ممـا يـدور حولـه، نـسي تمامًـا وجـود ابـن الزعيـم بداخـل القـصر، حركـة السـيارة بقـوة وهديـر محركاتهـا يزمجـر بصـورة غـير معتـادة، يصحـو مـن غفوتـه، تعلـق بوجهـه الدهشـة، تتحـرك السـيارة بسرعـة في المسـافة القصـيرة، وتتوقـف إثـر توقـف وضغـط فراملهـا، يبتعـد خطـواتٍ للخلـف حـتى يلتصـق بجـدار السـور، يخـرج ابـن الزعيـم مـن سيارته، لا يبـدو عـلى وجهـه الخـير؛ في كلمـات كثـيرة لا يـدرك معانيهـا جيـدًا، يأتيـه أمـره وهـو يسـلمه في يـده جملـةً مـن المفاتيـح، يعرفـه بـأي منهـا خـاص بالبـاب الخارجـي، وهـذا المفتـاح خـاص بالجنـاح العلـوي الخـاص بـه ولا يدخلـه أحـد، يقـول:

- تدخل وتصعد للدور العلوي.

- تمام يا أفندم.

- يبدو على وجهه الضيق ومستكملًا ...

- عليك أن تنفذ ما أشير عليك به بكل دقة.

- تمام يا أفندم.

- يخرب بيت سنينك! اسمعني لا تقاطعني.

- تمام.

أسرعـت يـد ابـن الزعيـم وأغلقـت فاهـه بسرعـة وهـو يـردد - بأمـر فيـه حـدة وقسـوة بالغـة مـع تقلـص عضـلات وجهـه:

- في الدور العلوي هناك فتاة.

- نعم!!!

وقد بدت علامات الدهشة على وجه مصري. أمره أن يستمع فقط ولا يجيب وأن ينفذ الأمر وفقًا لما يقوله:

- تخلص منها بأي طريقة.

- بدت فوق وجهه علامات عدم الفهم فقال:

- حتى لو وصل الأمر لقتلها.

- نعم!!!

- أرجع غدًا لا أجدها.

- أطردها؟

- لا تجعل لوجودها أثرًا فوق ظهر الأرض.

- لا أفهم يا سيدي.

امتدت يده داخل السيارة وسحب مظروفًا أصفر اللون، مد يده بالمظروف لمصري الذي ظهرت عليه الدهشة، في تردد أخذ المظروف.

- عليك أن تتصرف بأي طريقة ممكنة، إنها مجنونة.

- ما هذا؟

- مبلغ بسيط ربما تحتاج لمعونة، أنا لا يهمني شيء.

كلمات متتابعة، وعبارات مبهمة وفيها صيغة الأمر بالقتل جلية. لم يستوعب أغلبها وإنما اهتزت رأسه بعلامة الموافقة المرغمة، وصعد لسيارته دون أن يلقي إليه تحية، حتى انطلق بسرعة غريبة، فتركت إطارات السيارة علامةً واضحةً فوق الأرض

وزمجـرت آلاتهـا بقـوة.

مـاذا يقـول؟! فتـاة في الـدور العلـوي! عـلي أن أتخلـص منهـا! أقتلهـا !!!! أنـا أقتـل إنسـانًا! كيـف ولمـاذا؟ يتذكـر المظـروف فيقلبـه بـين يديـه، ينظـر داخلـه مـن فتحتـه الجانبيـة؛ إنهـا أمـوال كثـيرة، هـل يدفـع المقابـل لي لأقتـل؟ أي جنـون هـذا!!! يـا رب ألهمـني!. ذهــب في مناجــاة لله.

-٨-

ظلام حالك إلا من قليل من الضوء يتسرب من خصاص شباك قلبه، ينعي حظه العاثر.

لماذا يتمسك الفقراء بالدنيا؟

يتخلص من تلك الأسئلة الباكية البائسة؛ يحاول أن يزيح أفكاره، ولكنها تسيطر عليه وتعيد سرد تاريخها، يختلط ريقه بمرارة البائسين، يتذكر الماضي وهو بين أهله وذويه، وجوده أو عدم وجوده يتساويان، أفعاله لا تثير اهتمام أحد، إنه غريب بين أهله. انحسرت أمنياته في البحث عن الحرية التي تمثلت له في الهروب من موطنه الأساسي، في لهفة وحنين ينتظر تلك الحرية/الأمل الذي يراود أحلامه، الخدمة العسكرية - التجنيد- يفتح في جدران حياته ثقبًا ينفذ منه ليتنسم عبقًا يحلم به؛ ها هو ارتدى ثياب الجندية، ينتقل من موضع لموضع حتى صار حارسًا، بل خادمًا لإنسان قدم حياته للوطن. لا يشعر بأي ضيق أو ألم ولا يقلل من شأنه؛ فحق للرجل أن يقوم الجميع بخدمته، أحداث تعصف بمسيرته وأفكاره، ابن الزعيم قادم بجحافل غزو، الغزاة القادمون يرفعون راية الجهر بالمعصية، يثور للحظات وتهدأ حدة ثائرته بعد أن يقلب في أوراق حياته وما بها من معصية، يجد نفسه عصيًّا مثلهم، لا يختلف حاله عن حالهم، كلٌّ حسب المتاح والممكن، تكفي علاقته بحامد

والانسياق في دربه، لكن مكاسبه تعمي عينيه فوهج النقود التي يتكسبها من ورائه تفتح شهيته للحياة؛ يوافق على زواج أخته من حامد، يلتمس الأعذار، طوال عمره يقدم تنازلات فما الجديد؟ المزيد من التنازلات من أجل الحياة، كلهم يقدمون ويرحبون وعلى وجوههم علامات البهجة والرضا، ها هم أمام عينيه.

مشاعر متناقضة ما بين الزهو والخوف، لم يتخلص من مخاوفه أبدًا، وما زال شعوره بـ«أنه في ذيل قائمة البشر» يعيش داخله ويتردد، تلمع عيناه أحيانًا ببريق متوحش ولكن تنزوي بسرعة، مجرد لحظات فحسب، تتملكه شراهة الحصول على شيءٍ مما يراه ولكن يكبح جماح خيالاته ويعود لصوابه؛ يتذكر بأنه مجرد جندي، حارس، خادم.

يزيح عن رأسه ستائر الأمس، لا يلقي بالًا ولا يفكر كثيرًا ويبتعد عن دوامات الفكر الساخطة. كثير من الأفعال التي تتسم بالقسوة عانى منها؛ صفاقة تعرض لها من أقرب المقربين منه، الغد يفرش أمامه آمالًا فيحاول أن ينسى كل غلظة عاملوه بها، فلا ينام في صدره غل، يتصنع التعفف في سلوكه.

زفرات متتابعة وسباحة لا تنقطع في الذكريات، يدعي العفة وزاخرة أفكاره باللهو والعبث والمجون، كم يتمنى أن تتأبط إحداهن ذراعه، تزوره في الحقيقة لا في المنام، يتوه في زحام جمال الأجساد الرائعة الملتهبة، يعود ونشوة تعتريه فيذوب بين أمانيه.

يأمره السيد أن يقتل!!!

يخاف لون الدم؛ جبان، لا لا ليس جبانًا، فمن يقتل إنسانًا مجرم بكل المقاييس الإنسانية، ماذا يفعل؟ ألقي إليه بمبلغ

طائـل في سـبيل تنفيـذ مهمتـه القـذرة، ابـن الزعيـم يمتلـك أشـياءً كثـيرة منهـا حياتـه شـخصيًّا، يرفـض مجـرد فكـرة القتـل، كيـف تأتيـه الجـرأة فيحـرم إنسـانًا مـن الحيـاة؟ الله واهـبُ الإنسـانِ الحيـاةَ؛ هـل يشـارك الله؟ مـن يفعـل ذلـك كافـر بـالله، فـالله يغفـر الذنـوب جميعًـا إلا أن يـشرك بـه، صـدر الأمـر وعليـه التنفيـذ، حـيرة وتـردد وخـوف ولعنـة يشـعرها بمجـرد التفكـير في تنفيـذ مخطـط الرجـل، يهـرب وإلى أيـن؟ إنهـم يمتلكـون البلـد ومـا فيهـا، يـتردد داخلـه حديـث الفـتى العاشـق، مـا قالـه صحيـح، لـن ينـسى كلمتـه:

«دع شمس قلبك لا تغيب».

نعـم كلنـا بـشر، داخـل صـدر كل منـا نصيـب للشـيطان، حـتى رسـول الله صلـوات الله عليـه، ألـم يُخـرج جبريـل عليـه السـلام مـن صـدره علقـة؟ وقـال عنهـا: هـذا حـظ الشـيطان منـك، يجـف ريقـه وييـس حلقـه وتشـققت شـفاهه، عليـه أن ينفـذ الأمـر.

أتتـه فكـرة، هـز رأسـه محـاولًا تذكـر المـكان والموضـع الـذي دس فيـه تلـك الحبـوب، دواء معـين وهبـه لـه حامـد، يقـول عنـه يمنحـه اليقظـة مهمـا طـال الليـل ومهما طـال السـهر، نـسي في غمـرة الأحداث الـتي تمـر بـه مكانـه، راح يقلـب حقيبتـه الجلديـة الصغـيرة، جيوبهـا المتعـددة، أخـيرًا وجـد مبتغـاه؛ العلبـة كمـا هـي لـم يسـتغل منهـا حبـة واحـدة، يشـكر حامـد في سريرتـه وهـا قـد أتى موعدهـا اليـوم، عليـه أن يتعـافى أمـام الأفـكار المترديـة السـوداء الـتي تعصف برأسـه، يشـعر وكأن عينيـه يغالبهـا النعـاس ورأسـه يصيبهـا الصـداع والرؤيـة أمامـه مشوشـة، لا يكتفـي بحبـة وإنمـا ألقـى في فمـه ثـلاث حبـات دفعـة واحـدة وأعقبهـا بالمـاء ويـردد:

«استعنا ع الشقا بالله».

يستغفر ربه، كيف يردد تلك، أيستعين بالله لقتل نفس! رغم الوهن العالق بروحه وكيانه، يشعر بأنه رهين أمر وعليه التنفيذ.

تحرك في وجل وخوف، يسمع دقات قلبه ويتمنى أن يحبس أنفاسه، يدخل للبهو الخارجي المتسع؛ ذي الأرضية الرخامية، يمشي على أطراف أصابعه رغم أنه يعلم أنه لا وجود لإنسان، الأضواء خافتة، مزيج ألوان الجدران وكأنه يراها لأول مرة، رغم الملمس والنقوش والخامات المستخدمة التي تخطف الأبصار، نقوش دقيقة وأشكال سداسية متداخلة، فتحات إضاءة مخبأة، مجسمات منتشرة بين الأروقة التي امتلأت بأكثر من مجلس، تماثيل متنوعة صلبة متكاملة وفارغة من البرونز وكأنها مطلية بماء الذهب، ستائر شفافة ذات طبقات متعددة، طاولة طعام ضخمة ومن حولها الكراسي المنقوشة والمحفورة الأطراف، مرايا مثبتة بذكاء هندسي رائع تعكس المساحات والأشكال فيبدو المكان أكثر اتساعًا، النجف الكريستالي المتعدد الأشكال والألوان في السقف المعلق والثابت، أضواء ساقطة على اللوحات المزينة للحوائط والجدران وكأنها على قيد الحياة، الأسقف المعلقة ذات النقوش الهندسية الدقيقة والبارزة مذهبة الحواف، زخارف عربية وإسلامية تخطف الأبصار، سلالم جانبية دائرية تفضي للدور العلوي، تتسم بالفخامة مفروشة بسجاد أحمر قاني اللون مثبتة بعروق صلبة ذهبية.

لا يهتم بأي من تلك المظاهر، نبض قلبه يتسارع، يمسح عن جبينه العرق النازل خوفًا ورعبًا، يتقدم في وجل، يتحسس موضع أقدامه، يتخذ وجهته صوب الدرج المغطى بالسجاد الأحمر، يحس بالوهن ويكاد يسقط يستعين بحاجز السلم

المعدني الذهبي، يقبض بيده عليه وبقوة يزيح نفسه للأعلى، يدفع نفسه للدور العلوي، يتقدم في خطى حثيثة للأمام، يتوقف وكأنه يسترد أنفاسه، يفكر في العودة ولكن يتردد.

أي ورطة وقع فيها وأي حلم هو أسيره؟ طوال عمره جبان ضعيف. ابن الزعيم أمره وعليه التنفيذ لا طريق أمامه للهروب، يجفف ما سال على وجنتيه وهو لا يعي؛ أدموع أم عرق ينز من جسده؟ عمومًا يواكب رجفته خفقات متسارعة، يصعد ببطء، تكاد تنزلق قدماه، يسند نفسه ممسكًا بقوة بحاجز السلم، يستعين بيده وبالحاجز لدفعه للأمام ثانية والصعود للأعلى، ترتعد فرائصه وترتجف أنامله وهي تقبض على المفتاح، أخيرًا وبعد جهد يعثر على موضع المفتاح، فيغرس مفتاحه ولا تفارق يداه الرعشة، يحركه في خوف وتوجس، يدور، يتقدم، هل يطرق الباب؟ لقد سلمه المفتاح، هي مسجونة إذن، طرقات خفيفة واهنة لا تُسمع، ينفرج الباب بعد دفعة من يده، ردهة مفروشة بأحدث الأثاثات الرائعة، لا يهتم بأي شيء حوله، في رعب يسيطر على كل كيانه يغلق باب الجناح خلفه بالمفتاح، يدس المفتاح في جيبه، تنقب عيناه وتبحث عن الطريق إلى ضالته المنشودة، أضواء خافتة تتسرب من باب في أحد جوانب الردهة، يتسلل إلى الباب المفضي إلى حجرة النوم؛ حجرة نوم واسعة وردية الألوان والستائر، أكثر من شمعدان فضي ثابت ومتحرك ما زالت آثار بقايا الشموع في خلاياه، كل شيء يعكس الثراء والجمال، سجاجيد يستحي وهو يدوسها بأقدامه، يمتص لعابه ويقول:

«كثيرون لا يجدون مثلها يلتفون به آوان الشتاء».

ريح عاصفة باردة قوية ثلجية تعصف بكيانه، ريح غاضبةٌ أصواتها تخترق أذنيه، عتاب حاد؛ أي فعل يرتكب؟ لماذا يوافق؟

من يقتل نفسًا بغير نفس كأنما قتل الناس جميعًا، برودة قاسية تغمر جسده والأجواء من حوله عاصفة، يلقي بكل المحاذير جانبًا، عليه أن يفكر بصورة أخرى، عليه أن يجد لها طريقًا للهروب من هذا المكان، هو لا يجرؤ على قتل إنسان. مخطئة ليتولاها الله، يغمره شيء من السكون، يشهق ويزفر زفرة طويلة ولكن يحاول أن تكون مكتومة؛ شبه عارية إلا من أقل القليل من الثياب الشفافة فوق مخدع ضخم، جمالها في لباسها الذي لم يصادفه يومًا في حياته يأخذ بلبه فتتجمد عيناه، يرج كيانه ويزلزله، كأنها إحدى فتيات الحور، لا يستطيع أن يحيد ببصره بعيدًا، يحدق بقوة، يتأمل هذا الجسد النائم السابح في سبات ملائكي، تتحرك في نومتها تتقلب وهي سابحة في النوم، خصلات شعرها السوداء الفاحمة تحتل أغلب وجهها وكأنه السحاب يحجب وجه القمر، يزداد لهيب الجمر المتقد داخل جسده وينز عرقًا أكثر، لم يدر بخلده يومًا أن يرى مثل هذا الجمال العاري، تطوف برأسه ذكرياته القديمة وجُبنُه الدائم عندما كانت تتسلل عيناه للنساء وسيقانهن. لا مجال للمقارنة؛ هذه ملاك، بنات الحور ووصفهن القابع في ذاكرته لم يشاهدهن ولم يحلم بهن.

إنهن خلقن من المسك والعنبر والكافور، شعر الرأس والحاجب عبارة عن خط من نور، إذا أقبلت الحورية منهن فإن وجهها يتلألأ والبرق يضيء من ثناياها، الرجل يعانقها سبعين عامًا بلا ملل، إذا حركت ذراعيها يتقافز من تحت إبطيها اللؤلؤ،

ورائحتها أطيب من المسك.

ما الذي حدا بأفكاره لتلك الناحية؟ خوف ممزوج بالدهشة، ملامح وجهها القمري تثير شفقته، يفسح شعرها مجال الرؤية له أكثر، ينظر يتأمل شفتيها الممتلئتين، قوامها الأخاذ، فخذيها الملفوفتين المصقولتين، ساقيها وربلتيهما تضجان ببياض وحمرة، وكأنها همت بالقيام، يفيق من هوس جمالها، تجمد في موضعه مع تسارع نبضات قلبه أكثر، بشرتها بدت أكثر ورديةً، براءة لم يرها من قبل؛ إنها ملاك، ما جزاء من يقتل الإنسان؟ قتل الناس جميعًا.

من يقتل ملاكًا ما جزاؤه؟ أظن العقوبة أضعاف.

مستحيل أن أرتكب تلك المعصية، في القتل خروج عن شريعة الله، السجن أفضل لي، ليكن ما يكن، ماذا فعلت لي لأقتلها؟ كيف يفكر إنسان في قتل آخر وما الدوافع وراء القتل؟ تتنازعه أفكار شتى، تطير بصوابه وعقله، تتهاوى أفكاره تحت حوافر الحق المهرول داخل جسده وعقله، لقد باع كرامته بما فيه الكفاية، عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، تصطدم عيناه بصورة ضخمة لابن الزعيم، ينتفض، يحدثه بلا صوت وبرعدة مصاحبة:

« لن أفعل شيئًا مما أمرتني به، لا يوجد ما أساوم عليه».

أفكار مشوشة وصفعات بلا صوت، دوار غريب ورؤى غير واضحة وأشباح تتمثل وكلمات زاعقة وظلام يغمر الأرجاء حوله، يحاول الصمود أمام تيار عاصف في بحرٍ أمواجُه متلاطمة، لم تستطع قدماه حمله، ظلال وظلام، كل الرؤى من حوله تهتز، كل الجمادات تتراقص، نعاس غريب يسيطر على جفنيه،

بصعوبـة بالغـة يحـاول أن يفتـح عينيـه، كيـف يعـود وأي الطـرق يسـلك؟ مـا الـذي أصابـه؟ ربمـا كانـت الفتـاة محروسـة بفعـل سـحري؛ فـلا يسـتطيع أحـد تأمُّـل جسـدها أو وجههـا، ينـسى نهائيًّـا تلـك الحبـوب الـتي ابتلعهـا.

تقـع بندقيتـه مـن يـده وحلقـة المفاتيـح الصغـيرة، لا يـدري بنفسـه يسـقط مغشـيًّا عليـه بـين الشـك واليقـين، تتحـرك في مخدعهـا، يبـدو أنهـا سـمعت أثـر وقوعـه، تدعـك عينيهـا، لا شيء يبـدو أمـام عينيهـا، تتراجـع للخلـف وتسـند ظهرهـا عـلى الحاجـز الخلفـي، بأناملهـا المرتعشـة تسـحب سـيجارةً وتشـعلها وتنفـث دخانهـا بعصبيـة وخـوف يعـتري وجههـا، ترتجـف شـفاهها فتتراقـص السـيجارة في فيهـا، أقدامهـا أصابهـا جمـود وتحجـر، أصبحـت عاجـزة عـن الحركـة، لـم تهتـم بالظاهـر مـن جسـدها، تؤكـد لنفسـها أنهـا سـمعت صوتًـا، شـيئًا يرتطـم، تحـاول أن توحـي لنفسـها بأنهـا ربمـا كانـت قطـة في الشرفـة الخارجيـة أو أسـئلة تطرحهـا عـلى نفسـها، تحـاول أن تبعـد عـن رأسـها هواجسـها، لكـن تسـاورها الظنـون.

هـو واقـع عـلى الأرض أسـفل الحاجـز الخشـبي للسريـر فـلا تـراه مـن مجلسـها، تـدور عيناهـا في مختلـف الجهـات، تتسـلل يدهـا في تـردد وتضغـط عـلى زر المصبـاح المجـاور للمخـدع، يشـع بـدوره إضـاءة أقـوى ويغمـر أرجـاء الحجـرة ضـوء أقـوى، لكـن لا تـرى شـيئًا محـددًا، تتوجـس الـشر، تحـاول أن تتصنـع القـوة، شـهقة موجعـة تصـل لأذنيهـا، تتراجـع وتلتصـق أكـثر بالحاجـز الخلفـي.

تسـتطيع أن تفـك أسر قدميهـا، تتحـرك متسـللة عـلى أطـراف أصابعهـا، تتأكـد أن هنـاك أنـين موجـع قـادم مـن مـكان قريـب، تحبـس أنفاسـها لتسـتطلع تلـك الأنفـاس المتقطعـة، في خـوف

ووجـل تتحـرك صـوب الصـوت، تضـع يديهـا فـوق وجههـا ولكـن تفسـح مجـالًا للرؤيـة مـن بـين أصابعهـا، تقـع عيناهـا عليـه، تمـوت الصرخـات عـلى شـفتيها، رعشـة تملكـت جسـدها، تحـاول الحركـة في وهــن واضطـراب رغـم قواهــا الخائـرة، تغمـر وجههـا صفـرة وشحوب، تستغيث بكلمـات لا تخـرج لحـيز السمع مجـرد همهمـات فـوق شـفاهها المرتعشـة، تتحسـس موضـع قدميهـا، صدرهـا يعلـو ويهبـط وزفراتهـا تشـتد وتحـاول بـكل طاقتهـا حبسـها، خطـوات مرتبكـة تتقـدم صـوب الجثـة المسجاة عـلى الأرض، تهـم بالـصراخ وتمـوت صرخاتهـا، تـرى بندقيـة بجـواره، مَـن هــذا؟ قــادم إليَّ ويحمـل بندقيـة! مَـن يكـون؟ قاتـل لا شـك في ذلـك. لـص؟ تسـتبعد فكـرة اللصوصيـة، بخطـى وئيـدة تتقـدم صوبـه، تنظـر إليـه وتقتلهـا الحـيرة، تتقـدم خطـوة وتتراجـع عنهـا، تهـم وتـتردد، أي فعـل أخرق قـد يـودي بحياتهـا، قـادم في نيتـه شر، مؤكـد ولا مجـال للشـك، لمـاذا؟ ومَـن هـو؟

تتسـحب متسـللة وهـي تمـشي عـلى يديهـا وقدميهـا، قطـة تصطـاد عصفـورًا أو فـأرًا، تشـجع نفسـها، أخـيرًا تلمـس أناملهـا البندقيـة، تسـحبها، تتريـث وتفكـر وأخـيرًا تلجـأ لصـوان الملابـس الضخـم وتحشرهـا داخلـه.

مجـرد أن سـمعت زفرتـه الطويلـة، تسـلحت بقاعـدة خشـبية للمصبـاح الكهربـائي المجـاور للمخـدع، اعتـدل وسـند ظهـره عـلى الحائـط ونظـر إليهـا.

-٩-

نعـم تتمتـع بجمـال يقلـب موازيـين عقـول الرجـال، جاذبيتهـا استـفزاز للمشـاعر، كل مـن تقـع عينـاه عليهـا لـه الحـق كل الحـق أن يتمناهـا وأيضًـا يخافهـا، يشـتهونها ولا يملكـون قـدرة الاقـتراب مـن نـيران أنوثتهـا المتوهجـة، لهـم العـذر يشـتهونها ويخافونهـا، يكتفـون بإشـباع أبصارهـم.

هـمَّ أن يتحـرك، لـم تفكـر كثـيرًا وبسرعـة رفعـت القاعدة الخشـبية وهـوت بهـا عـلى رأسـه، سـقط مغشـيًّا عليـه مـن جديـد لكـن تفجـرت الدمـاء مـن رأسـه، مـاذا تفعـل؟ عليهـا أن تدافـع عـن نفسـها، بمـن تسـتغيث فجميـع العاملـين بالقـصر في إجـازة رسـمية، هكـذا أخبرهـا عشـيقها وتركهـا ومـضى، طالبتـه أن يتزوجهـا فضحـك بقـوة ووصفهـا بالعاهـرة الصغـيرة، طلـب منهـا أن تـأتي معـه ليقلهـا حـتى حـدود المدينـة الكبـيرة، عـرض عليهـا شراء شرفها، تحـاول أن تذكـره بوعوده، يتملـص مـن كلماتهـا ويصفهـا بالبلهـاء، فمـا فعلـه معهـا كان بمحـض رغبتهـا ووفـق هواهـا، تبـكي تحـت قدميـه وتتوسـل إليـه، لا يسـوق لهـا المعاذيـر إنمـا يتهمهـا بالفجـر، كل مـا يسـتطيع أن يقدمـه لهـا نقـودًا وممكـن أن يجعـل أحدهـم يفسـح لهـا مجـالًا للعمـل، بـكل بـرود الدنيـا يصفهـا بأنهـا ممثلـة بـاردة وجميلـة المحيـا والتقاطيـع، في سـخرية لاذعـة يصـف لهـا قدراتهـا الجنسـية بالرائعـة ولكـن عليهـا أن تتعلـم المزيـد، بـكل صفاقـة يسـألها إن كانـت تعلمـت خـلال معاشراتهـا لـه الجديـد مـن الممارسـة الجنسـية! تقبـل قدميـه، يركلهـا

بقوة وبلا رحمة، يطالبها أن تأتي معه ليذهب بها، تأبى وتحاول أن تشرح له بأنها لا يمكن أن تعود لحياتها السابقة، لقد هجرت أهلها وذويها في سبيل حبها له، تطالبه أن يتزوجها لليلة واحدة، يضحك بصوت مرتفع، يصف لها طلبها بأن معناه أن يتزوج ما لا يقل عن مائة واحدة، يقص عليها كيف يعشق العذراوات أمثالها، تلطم خديها، تولول وتنتحب، تحاول أن تنشب أظافرها في وجهه، بسرعة يحيد بوجهه بعيدًا، يصفعها بكل قوته، تنهار وتسقط على الأرض، تقسم له بأنها لن تترك المكان إلا وهي جثة هامدة، ليقتلها قبل أن يمضي، تعود لرشدها وتتذكر بأنه الليلة سينهي حياتها، تنظر إلى الجثة التي أمامها وكأنها تسأله؛ هو من أرسلك لتقتلني أليس كذلك؟ كم دفع لك؟

تجلس بجواره وتنوح، ترى مجرى دماء تحت يديها، باكية تتسأل هل أنا قتلته؟ ماذا سيحدث لي؟ أي مصيبة أحاطت بي؟ تقلبه وتحاول كشف الجرح الذي تسيل منه الدماء، يبدو التوتر متجسدًا في حركاتها ونظراتها الذاهلة المجهولة، تتذكره وتلعن نفسها أولًا، تصف أمثاله بمن يسبحون في أنهار الدماء التي لا تجف، تسأل لماذا يتركهم الله يلهون بعباده؟

في جزع بادٍ تفكر في مصابها، تنساب دموعها ونهنهات متحسرة مكتومة تتابع، لحظات حرجة لا تجيد فيها إعمال فكرها، أفكارها متضاربة غير واضحة المعالم، الموت قادم لا محالة، لقد خرجت بمحض إرادتها وانطلقت عابثة مستهترة بكل قيم أهلها محاولة أن تكسر حدودها، ها هي أسيرة القهر والحزن والألم، مستعدة للمجازفة فليس هناك ما تخافه أو ما تبكي عليه، جفت من عينيها الدموع، تبدو في حديثها مع نفسها مهزومة ومقرة

بهزيمتها فتهذي بكلمات لا تدرك معانيها، تنظر إليه، تربت على صدره في خوف وتوجس وكأنها تستطلع نبضات قلبه، بعد تردد، اتخذت قرارها، عليها أن توقف نزيفه المتتابع، لا تفقه شيئًا في هذا المجال، بخوف وبحذر بالغ وتوجس من غدر، بأناملها المرتعشة تغسل وتطهر موضع الجرح بالماء، شيء واحد فقط تعرفه أن تكبس الجرح بالبن، تفعل ذلك وبسرعة، تحاول أن تربط رأسه بالشاش رعشتها وترددها يتسببان في إخفاقها، يتوقف نزيف الدماء، تسحبه مبتعدةً بجسده عن آثار الدماء وتقوم بتنظيف موضعه منها، ارتباك في خطواتها وانزعاج بادٍ في حركتها، تمسح جبهتها بيدها وتنظر إليه؛ أنت لا تختلف كثيرًا عنه.

في كلماتها المتحشرجة الناقمة تلعن كل رجال الدنيا، تصب لعناتها على الذئب القذر، تلعن اللحظة التي ألقت بها بين براثنه وأنيابه.

تعود بنظراتها إلى جسد مصري المستسلم لغفوته الماثل بين يديها فاقدًا للوعي تمامًا، تتمنى أن تبصق عليه، لا تهتم بملابسه ولا تفهم شيئا من ملابسه المدنية التي يرتديها، فحراستهم بدون ملابس عسكرية، تعيد النظر إليه، في نظرها مجرد قاتل أجير استقدمه واشتراه الملعون ليتخلص منها، لقد أقسمت أمامه رغم كل الصفعات والضربات والركلات بأنها لن تترك هذا المكان إلا جثة هامدة أو متزوجة به شرعًا، نالها من الضرب الكثير لكن لم تلن عزيمتها ولم تتنازل عن مطلبها، تركها ومضى وأرسل هذا القذر.

تجلس فوق مقعد صغير قريب منه، في متناول يدها تلك القاعدة الخشبية الثقيلة، تخفي بين طيات ملابسها سكينًا

ربطته فوق ركبتها تحسبًا وخوفًا، بلاء واقع لا مفر منه، عليها أن تواجهه، آثار صفعاته وركلاته فوق قلبها فينقبض حزنًا وكآبة ترتسم فوق محياها، تلوم نفسها وتلقي باللائمة عليها وحدها، ينفك عقد دموعها فتهرول على وجنتيها وتحاول أن تمسحها بسرعة، زفرات متتابعة وغصة في حلقها وتحاول بكل طاقتها أن لا تستسلم، تعود للبكاء في هدوء، سكون يشوبه القلق لا يقطعه سوى زفراتها وصوت أنفاسه.

تفتح زجاج نافذة الشرفة، تهل نسائم طرية رطبة، تتسلل معها إشعاعات الفجر القادم عبر خواص النافذة الخشبي، تستنشق عبق الرائحة القادمة في توجس وخوف، لا تغفل عيناها عن أسيرها.

تغرق في بئر الكراهية الذي حفره داخلها سيدها الذي اشتراها بحرِّ ماله كما يقول، نسمات الصباح الندية تسكرها قسرًا فيأخذها النعاس للحظة وتعود.

***

- من أنت؟

- أنا الحارس.

- استأجرك لتقتلني؟

- نعم.

- لماذا؟

- أنا لا أعرف شيئًا، أنا عبد المأمور.

- عليك أن تنفذ ما أمرك به؟

- نعم.

- ألَا يُحتمل أن تقتل بريئًا؟

- لم أفكر في قتلك.

- آتٍ تلقي عليَّ تحية المساء؟! قالتها في سخرية لاذعة.

- أنـا إنسـان ومسـتحيل أن أفكـر في قتـل إنسـان، نعـم أنـا مجـرد جنـدي حراسـة لهـذا القـصر، هـذه مهمـتي وهـو صاحـب المـكان وابـن الرجـل...

تقاطعه في حدة وباكية:

- ملعون وملعون أبوه.

- وما ذنبي أنا؟

- أنت مأجور، كم دفع لك؟

- أنا ما يهمني الآن بندقيتي، سلاحي الميري.

- لماذا أتيت؟ ولماذا أعطاك المفتاح؟

- لـم أنكـر يـا سـيدتي، أقسـم لـك بـالله العـلي العظيـم، كل مـا كان في نيـتي أن أهربـك مـن هـذا المـكان قبـل أن يـأتي الصبـاح.

- تأتي بسلاحك.

- سلاحي لا أفارقه.

ينظـر إليهـا وبكلمـات تقطـر ثقـة يمهرهـا بقسـم بـالله، أنـه مجـرد أن نظـر إليهـا تخيلهـا أختــه، أو أي إنسـانة قريبــة منــه، إنسـانة وهبهـا الله الحيـاة فكيـف يزهـق روحهـا! نعـم نحـن فقـراء لكننـا نخـاف الله، نفعـل الخطيئـة ولكـن لا نعيـش فيهـا، نلتمـس مـن الله المغفـرة، لسـت نبيًّـا ولا مـلاكًا ولا وليًّـا مـن أوليـاء الله، يقـص عليهـا

كيـف رآهـا بـين جمـوع القادمـين يسـتظلون بظـل هـذا الرجـل، يصـف الأفعـال الـتي كان يراهـا ويصفهـا بالمذمومـة ولكـن هـو كمـا قـال لهـا: عبـد للمأمـور، عليـه تنفيـذ الأمـر ولـو خطـأ، إنـه ينتمـي لأولئـك الفقـراء التعسـاء الذيـن أمرهـم في يـد مذليهـم، يتحـدث وحديثـه يجـد إصغـاءً واستحسـانًا، تبادلـه الحديـث، تبـكي وتصـف له مـا حـاق بهـا، يلقـي باللـوم عليهـا، يحدثهـا عـن الفـتى الـذي أتى مـن يومـين، يصفـه لهـا، تتأكـد بأنـه جارهـا المستسـلم، يحفزهـا أن تـأتي ببندقيتـه وعليهمـا أن يفكـرا في طريقـة يفـران بهـا مـن هـذا المـكان، لا تسـتجيب لكلماتـه ومطالبـه، يسـتحثها مـن جديـد...

- أنت مجنون؟

- لتعتبريـني كذلـك، المهـم أن تهـربي مـن هـذا المـكان قبـل أن يعـود ثانيـةً.

- أَلَا تسمع؟

- ماذا؟ يصيخ السمع؟

- لقد عاد كل عمال القصر اليوم.

- مصيبة سوداء وما العمل؟

لـم يصـدق أن السـاعة قاربـت عـلى الواحـدة ظهـرًا، يرجـع إليهـا السـبب في تأخـيره عـن تهريبهـا خـارج هـذا المـكان، عليهمـا أن يفكـرَا في وسـيلة للهـروب، هـي تسـبح في أفكارهـا، فمـاذا سـيحدث لـو صرخـت واسـتغاثت؟ هـل يـأتي العمـال والخـدم لنجدتهـا، ومـاذا ستقول؟ ستفضح نفسـها ولا محالـة مـن هـذا، هـو يحسـب النتائـج المترتبـة في اللحظـات القادمـة، يشـعر بتعاطـف معهـا، لا يلبـث تعاطفـه كثـيرًا؛ يلعنهـا ويلعـن أمثالهـا ولا يلقـي بـأي تهمـة فـوق رأس

ابـن الزعيـم، إنهـا تسـتحق الـضرب بالنـيران في ميـدان عـام ليشـهد كل النـاس فعلهـا الآثـم.

يغمرهمـا صمـت، يفكـر مـصري في الخـروج مـن هـذا المـكان، أصبـح هـذا أكـبر همـه. كيـف والعمـال موجـودون؟ يسـتطيع أن يختلـق أي كذبـة ويلجـأ لمقـر إقامتـه وحراسـته، وسـاعة أن يـأتي الرجـل يحـاول أن يدعـي بأنـه لـم يسـتطع الدخـول أو أن المفاتيـح تاهـت منـه ولـم يعـثر عليهـا وأن الليلـة سـينفذ وعـده، المهـم هـو الهـروب في تلـك اللحظـة، تغلـق عليـه كل أبـواب الهـروب، ترفـض أن تأتيــه ببندقيتــه وتعلــن في إصرار وتحــدٍّ بأنهــا ســتلجأ للــصراخ والاسـتغاثة وسـتكون الفضيحـة.

يحـاول ويتوسـل إليهـا ولكنهـا لا تتنـازل عمـا في رأسـها، تـدور في رأسـه حلـول ولكنهـا كلهـا لـن تحـل المشـكلة بـل سـتزيدها صعوبـة وتعقيـدًا، آخـر مـا توصـلَا إليـه أن ينتظَـرا حـتى حلـول الظـلام ويهربا معًـا مـن أي موضـع يعرفـه.

- والبندقية سلاحي الميري.

- سأعطيها لك بعد أن نخرج من هنا.

الجنـاح شـبه معـزول عـن القـصر كليـة، بـه كل احتياجـات مـن يعيـش فيـه مـن مـأكل ومـشرب وخلافـه، كان طعـام الأمـس الـذي أتى بـه موجـودًا، تقاسـمَا الطعـام، تبـادلَا أحاديـث عـن حياتهمـا، عقـدَا العـزم واتفقَـا عـلى موعـد الهـروب، هـو يعلـم مـن أي منطقـة في سـور الحديقـة يسـتطيعان أن يتسـللَا للطريـق الخارجـي بعـد دوران لـن يسـتغرق الكثـير مـن الوقـت.

***

عـم الزِّيـاط وتداخلـت الأصـوات وألقـت الضوضـاء وضجيجهـا المتبايـن وكسرت الصمـت، لـم يسـتطع أي منهمـا أن يتبـين الكلمـات أو الأسـباب وراء هــذه الأحــداث، ارتبــكَا وعــلَا وجهيهمــا الخــوف والانزعـاج، عيناهمـا مفتوحـة وآذانهمـا صاغيـة وجسـداهما متسـمران في مكانهمـا. كـسر الصمـت:

- أتدرين السبب؟

- لا أعرف.

- هل نخرج؛ نستجلي الأمر؟

- في الخروج مصيبة أكبر.

- نهرب الآن.

- ما زالت الشمس...

لـم تكمـل عبارتهـا، لطمـت خديهـا، تحركـت بسرعـة تجـاه صـوان الملابـس وأخرجـت البندقيـة، لا تـدري مـا تتفـوه بـه.

- علمني كيف أستخدمها وأنا سأقتله.

في سريرتـه يحمـد الله أنـه اسـترجع سـلاحه أو كمـا يقـول دومًـا شرفه العسـكري، تواصـل هـي حديثهـا باكية:

- سأستريح أنا وستتخلص الدنيا والبشر من إنسان قذر.

يسحب أجزاء البندقية، يفك خزينتها، يبتسم قائلًا:

- فارغة يا سيدتي وليس هناك أي طلقات.

***

اليـوم تصويـر مشـاهد قبيـل الغـروب مـا بـين حديقـة القـصر والمبـنى نفسـه، حـضر العاملـون مبكـرًا لينصبـوا كاميراتهـم وبعـض ديكوراتهـم، تأكـدَا مـن ذلـك مـن نظراتهمـا مـن خلـف خصـاص النافـذة الخشـبي الـذي يظهـر جـزءً يسـيرًا مـن الحديقـة، هـو لـم يعتـد الحضـور أبـدًا مبكـرًا، عليهمـا أن يسـتعدَا للهـروب. تأكـدت مـن صـدق أقوالـه بعـد أن نـزع أجـزاء بندقيتـه وأثبـت لهـا أنهـا فارغـة وليـس فيهـا أي طلقـات، اعتـذرت باكيـة لمـا فعلتـه بـه، راحت تقـص عليـه بعضًـا مـن أسرار حياتهـا والدوافـع الـتي دفعتهـا أن تلتمـس طريقًـا للـرزق السريـع، كيـف ضربـت بـكل المبـادئ والقيـم الـتي يرددهـا الجميـع كذبًـا وبهتانًـا؛ أرادت أن تجـد لنفسـها مكانًـا تحـت الشـمس، تضحـك سـاخرة مـن أفكارهـا الجنونيـة، هـي تـدرك أنهـا جميلـة، وأن أسـاس النقمـة الـتي حلـت بهـا جمالهـا، لقـد لهـث خلفهـا كثـيرون، تصمـت وتمسـح دموعهـا فيتأملهـا أكـثر.

ثغرهـا الـوردي وشـفتاها المتوردتـان المكتنزتـان الحمـراوان كحبـتي الفراولـة، ترتعشـان فـيزدادَا تألقًـا وحمـرةً وجمـالًا، يختلـس النظـر لمفـرق نهديهـا العامريـن، فتنـة وجمـال، عندمـا يحيـد بنظـره بعيـدًا صـوب الأرض تطالعـه معالـم سـاقيها ومـا فـوق الكعبـين، ملفوفـان يشـعان بياضًـا. يزفـر زفـرةً طويلـة، يـأسى لحالهـا وتعـود إليـه ملامـح شـخصيته.

***

ينفـرج البـاب، يشـبان واقفـين، يضحـك بقـوة غريبـة وبملامـح وجـه جـادة وحـادة وبنظـرات مفرطـة في الثقـة والقـوة، يغلـق البـاب خلفـه، يحـاول المـصري أن يتكلـم؛ تضيـع الكلمـات ويُحبـس صوتـه

ويختنـق، مـع ابتسـامته المسـتهزئة السـاخرة تمتـد يـده ويخـرج مسدسًـا مـن بـين طيـات ملابسـه، يقبـض مـصري عـلى بندقيتـه بـكل قـوة، يطلـق رصاصـةً مـن مسدسـه وهـو متعمـد أن لا تصيـب أحدهمـا، تـصرخ هـي، ينكمـش مـصري، بكلمـات قويـة آمـرة يخـبره بأنـه يعـرف أن بندقيتـه بـلا ذخـيرة، تأتيـه أوامـره أن يلقـي بندقيتـه جانبًـا، ينصـاع للأمـر، يأمـره ومسدسـه في يـده مسـتعدًّا ومصوبًـا فوهتـه ناحيتـه أن يخلـع ملابسـه، يـتردد، يقسـم بأنـه سـيفعلها، يـنزع ملابسـه في خـوف يمتلـك جسـده كليـة، يأتيـه الأمـر أن يصعـد فـوق المخـدع وأن يتخلـص مـن ملابسـه الداخليـة أيضًـا... يحـاول الـكلام، تشـق الطلقـة الثانيـة وبالمثـل يأمرهـا، تبـكي، تنتحـب، لا يهـتز؛ وهـو مصمـم عـلى أمـره وتنفيـذه، أصبحَـا تحـت غطـاء واحـد وهمـا عاريـين تمامًـا، ويرتعشـان بقـوة.

كانـت الطلقتـان كفيليـان بإثـارة انتبـاه الجميـع، بـدت الدهشـة فـوق الوجـوه وطرحـت الأسـئلة بـلا صـوت وبسرعـة غريبـة، لـم يجـد المقربـون بـدًّا مـن التوجـه إلى مصـدر الطلقـات، إنـه الجنـاح الملـكي كمـا يسـمونه ويطلقـون عليـه، طرقـات متسرعـة قويـة فـوق البـاب، يفتـح البـاب وفي يـده المسـدس، يتراجعـون للخلـف لكنـه يفسـح لهـم مجـالًا للدخـول؛ لغـرض اسـتقر رأيـه عليـه، ابتسـامته فـوق وجهـه تضـج بالثعلبـة والـذكاء ويمتـدح ذاتـه، المقربـون يتزاحمـون، مهمومـون بحياتـه هـو، يتأكـدون أنـه بخـير، يختلسـون النظـرات لمـا فـوق المخـدع؛ بلهجـة آمـرة:

- ارفعَا الغطاء من فوق وجهيكما.

بدت حركة تحت الغطاء وصوبت إليهما الأنظار.

أتى تهديـده مـع إطـلاق رصاصـة أثـارت فـزع مـن تجمعـوا وصـدرت

مـن بعضهـن صرخـات تواكـب صـوت الرصاص.

كشفا عن وجهيهما وقد ذهبت عنهما حمرة الحياء.

وبلهجة تنم عن الاحتقار وهو يشير إلى السرير:

- حـارس القـصر المجنـد وعاهـرة كانـت تبـخ كلمـات هواهـا في أذني مـن أيـام، يحـاول أحـد مريديـه أن يخفـف عنـه.

- لا تتسرع معالي الباشا.

- سأقتلهما؛ هذا جزاء عادل لمن يكذب علي.

تتابعت ردود الأفعال المختلفة فيقول أحدهم:

- لا تلوث يديك الكريمتين.

- ثمن الرصاصتين خسارة في جثتيهما.

- وماذا تنتظر من الكلاب والرعاع؟

- هل أتت به إلى مخدع سيد القوم؟!

- حقًّا إنها عاهرة.

- تجلب الرجال لمخدع الباشا!

همهمـات وادعـاءات الطهـر والـبراءة والضيـق والتذمـر تتناقلهـا شـفاههم بضيـق وغضـب غريـب، يرشـفون كـؤوس خمـر دومًـا ويحرمونهـا عـلى الآخريـن. ينظـر إلى الجميـع ويـضرب كفًّـا بكـف قائـلًا:

- هذا جزاء من يعمل الخير في غير أهله.

يرد أحدهم:

- لا يستحقان الرحمة أو الشفقة...

يرفـع يديـه فيصمـت الجميـع، يحـاولان أن يتحدثَـا إليـه، رصاصـة

قريبـة مـن حاجـز المخـدع العلـوي تخرسـهما، يقـول أحـد الحضـور بثقـة غريبـة:

- قـال سـبحانه: «ولا تقربـوا الزنـا إنـه كان فاحشـة وسـاء سـبيلا» صـدق الله العظيـم.

وآخر يصيح:

- وليشهد عذابهما طائفة من ...

وآخر:

- نقيم عليهما حدَّ الله.

- الجلد ... ليجلدَا.

يتفـرس الوجـوه وهـو شـاهر مسدسـه يقـول أدهـم بصـوت مبحـوح ورائحـة فمـه تفـوح برائحـة خمـر:

- ولنشهد عذابهما.

لا يسـتطيع إكمـال عبارتـه، لكنهـم جميعًـا يسـلمون بمـا قـال، اجتمـع رأيهـم أن لا يلـوث يديـه الشريفتـين بدمائهمـا، اتفقـوا عـلى حـد الله.

***

يرشفان رشفات متتابعة، صوتها مسموع من كأسي الشاي.

- الجميع يشيد به.

- يفرشون له الأرض وردًا.

- يقدمون إليه كل شهر سيارة لم يركبها أحد من قبل.

- لو أعجبته

- يظللهم برعايته لأطول مدى.

- حتى يلفظها.

- يبحث ويبحثون له عن غيرها، سيارة جديدة حديثة.

- بكر عذراء لم يركبها أحد من قبل.

- يوم يستمتع بأدائها يفيض عليهم.

- سوق نخاسة.

- ونحن؟

- علينا أن نعمل وفق قانون السوق.

يتذكـران تلـك الفتـاة الـتي أتـت بهـا السـيدة الـتي غربـت عنهـا الأضــواء.

- كانت غضة رائعة التقاطيع جميلة المحيا.

- حسبك، توقف يا رجل، ربما يسمعنا أحد.

- نُطرد من جنته.

- إنسان مستبد بأفعاله وأقواله.

- نحن عبيد عبيده.

- المخـرج والمنتـج والكبـار ونحـن في ذيـل القائمـة، أتـت وقتهـا الملعونـة، بـدت يومهـا هاربـة بـلا مـأوى، كانـت متوحشـة، خافـوا منهـا، كـسروا أنفهـا وقدموهـا عـلى طبـق مـن ذهـب إليـه، نالهـا وفق قانونـه.

- وشرع الله!

- لا تتغابى؛ كلنا آثمون ومجرمون ونفعل المنكر.

الفصل الرابع

-١-

أنـين مكتـوم متواصـل كفحيـح ثعبـان، يحـاول التقلـب ولا يسـتطيع، لفظتـه الجنديـة رغـم عشـقه لهـا وولهـه بهـا، كانـت طريقـه للحريـة وظنَّهـا كذلـك، يضجـع في سجنه ولا يأتيـه النـوم، نـيران متقـدة عـلى ظهـره مـن آثـار السـياط الـتي أدمتـه، رغـم مـا يزيـد عـن شـهر مـضى، لا يطيـق أن يلمـس أحـد ظهـره، شـبه عـارٍ ينـام في سجنه، لـو تسـلل الذبـاب أو البعـوض وحـط فـوق ظهـره، لسـعات ونـيران تتقـد، يتحمـل، خـوف وتوجـس وترقـب مـن غـد قـادم مـاذا سيكون مـن أمـره؟ لـم يتصـل سـوى بأهلـه فأخبرهـم بأنـه في مـشروع خـاص وسـيتأخر، وحـتى الاتصـالات ممنوعـة.

عـبر النافـذة العلويـة ذات القضبـان الحديديـة تهـرب عينـاه، تتأمـل تلـك الجواهـر والـلآلئ الربانيـة الـتي تنتـشر في السـماء المحـدودة الـتي يسـتطيع رؤياهـا، يشـكو إليهـا في صمـت معتـاد، يدعــو الله أن يفــك كربــه.

كان رهـن التحقيـق وهـو في المستشـفى، قـرأ عليـه التهم المنسـوبة إليـه، اسـتمع المحقـق إليـه وكتـب مـا كتـب، قـرأ عليـه مـا نسخه، أقــوال غــير أقوالــه، مجــرد أن أبــدى اعتراضــه بكلمــة لكــن، ظهــر الضيـق عـلى وجـه المحقـق، أسـبل جفنيـه علامـة الموافقـة عـلى مـا كتبـه ومـا فيـه جـرم ارتكبـه، عندمـا طلـب منـه التوقيـع أنكـر أنـه

يعـرف القـراءة والكتابـة، لـم يسـتحِ وسـحب يـده وبإبهامـه بصـم.

مجـرد أن انتهـت أيـام حجـزه بالمستشـفى رهـن العـلاج، أعـادوه لسـجن الكتيبـة الملحـق بسريتـه في السـجن الكبـير، ظـل رهين سـجن الكتيبـة، متعلقاتـه الشـخصية وكل حاجياتـه موجـودة بالكتيبـة، مـا زال اسـمه مسـجلًا عـلى قـوة السريـة الملحقـة بحراسـة السـجون، ولكـن تبـدل الوضـع فأصبـح سـجينًا.

سـكون وظـلام داخـل وخـارج قلبـه، يـئن ويتوجـع ويذكـر كيـف ألقـوه في حجـرة الحراسـة بعـد أن نفـذوا فيـه شرع الله كمـا يهـوون ووفـق رغباتهـم الملعونـة، يقـول أحدهـم:

- توخـوا الحـذر فللجلـد أصـول وقواعـد؛ أهـم القواعـد الـتي تؤخذ في الاعتبـار، السـوط ذو اللسـان الواحـد، فالجلـدة الواحـدة تحسـب واحـدة، أمـا إذا كان ذا لسـانين فالجلـدة الواحـدة منـه تحسـب اثنـين وهكذا.

كانوا حريصين على شرع الله!!!

سـجلوا اللحظـة الرائعـة في حياتهـم، صوروهـا عـبر هواتفهـم المحمولـة أو آلات التصويـر الموجـودة في المـكان، قـال مديـر التصويـر: إنهـا مشـاهد حيـة يمكـن اسـتغلالها في أي عمـل قـادم.

ينقبـض قلبـه همًّـا وغمًّـا كلمـا عادتـه الذكـرى؛ جرجـروه حـتى حجـرة الحراسـة، ألقـوه شـبه جثـة هامـدة، شيء وحيـد ماتـت عليـه يـده ولـم يفارقهـا؛ سـلاحه المـيري، أتـوا في الصبـاح ورغـم كل الآثـار الظاهـرة الجليـة فـوق جسـده لا يفكـرون سـوى في محاكمتـه، ينقلونه مـن حجـرة حراسـة القـصر إلى سريتـه شـبه جثـة هامـدة، يسـمع أوامر السـادة:

- إنـه مجـرد رقـم في سـجلات الجنديـة وقـوات الأمـن، إنهـم آلاف مؤلفـة جاهلـة لا تعـي مـا تفعـل ولا تقـدر المسـئولية، لنعتـبره أخـذ أجازتـه المعتـادة وذهـب إلى أهلـه، ربمـا كان بـلا أهـل أو أصدقـاء أو معـارف، إن عـثر عـلى جثتـه ليكـن مجـرد جثـة منسـية في أحـد ثلاجـات المستشـفى الحكومـي، يـوم يعـثرون عـلى أهلـه تكـون فـئران المشرحـة قـد أكلتـه، وعندهـا يـرد الآخـر بقولـه:

- الفئران لا تأكل جثث البشر.

- القطط.

لا قلق ولا انزعاج بادٍ فوق الوجوه.

مـصري مكـوم، هـم يناقشـون في الكيفيـة الـتي يصنفونـه تحتهـا؛ فليـس هنـاك بنـود أو قوانـين لحراسـة خاصـة مـن جنـود قـوات الأمـن، ومـا يفعلونـه خدمـات خاصـة جـدًّا وكأنهـم خـدم للسـادة، الجميـع ينفـذون الأوامـر العلويـة.

خبـت نظراتـه وراح بريقهـا وتعلقـت بمجهـول، زفراتـه المخنوقـة المتقطعـة، يتنفـس بجهـد ظاهـر، اكتـسى وجهـه بصفـرة تقـترب لصفـرة وجـوه المـوتى، شـحب الوجـه واستسـلم الذراعـان لـلأرض بجـوار جسـده، استسـلم تمامًـا. ينظـرون إليـه في شـك وارتيـاب

- هل يدعي الموت؟

تمتد يد أحدهم ويتحسس موضع قلبه ويفتح عيني مصري.

- هناك نبض وأظنه ضعيف.

- عليكم بنقله فورًا للسجن أو لكتيبته أو لأي مصيبة أخرى.

قال كلماته ودفع لهم عربونَ موافقتهم ومجيئهم السريع.

***

لا يتـذوق للراحـة طعمًـا، يـأس وقنـوط ويلتمـس الرحمـة مـن الله، يصيـخ السـمع يسـمع شـهقات وصرخـات وعقوبـات ينزلونهـا عـلى السـجناء المحبوسـين، ليـس الوحيـد في السـجن؛ هنـاك مـن يشـاركه ولكـن هـل ارتكبـوا ذنبًـا أم أبريـاء؟ الجميـع يدعـون الـبراءة، يجـب أن يكـون هنـاك ردعًـا؛ ولكـن بعـدل.

يتأمـل مـا يـدور حولـه رغـم الخـوف والرعـب والضجـر، تهمـد النـيران الـتي اتقـدت حقـدًا وكراهيـة، ليـس بيـده شيء يسـتطيع أن يفعلـه سـوى الاستسـلام، يرضـخ ويصمـت ومـا زالـت قضيتـه لـم تنظـر بعـد، ربمـا أضافـوا إلى اتهاماتـه جديـدًا، ربمـا يحاكمونـه بتهـم لـم يرتكبهـا ولـم يسـمع عنهـا، مؤكـد سـيكون السـجن نصيبـه، كـم مـن السـنوات سـيكون رهـين السـجن؟ أن لا يشـفع لـه أنهـم أقامـوا عليـه الحـد وجلـدوه؟ نعـم هـو ارتكـب جريمـة الزنـا مـن قبـل، ربمـا هـذا جـزاء مـن قِبـل الله سـبحانه، لمـن يلجـأ؟ ولمـن يشـكو؟ عليـه أن يسـلم أمـره لله، تلـك نهايـة مسـاعيه وآمالـه المرتقبـة في الحريـة، أحلامـه ذهبـت، يسـخر ممـا يحـدث لـه، حـتى وهـو يشـغل منصـب عبـد حاكمـوه وصلبـوه وجلـدوه آآآآه، رغـم كل مـا حـاق بـه في حياتـه قبـل الجنديـة لـم تنـم الكراهيـة في صـدره، نعـم كان بـين أهلـه وذويـه وعشـيرته في ذيـل قائمـة البـشر، أُهِـين بكلمـة أو فعـل لكـن وجـد مـن يدافـع عنـه، مـن يـرد عنـه ويرفـع عنـه ويأخـذ بيـده، يومهـا تعـود الابتسـامة إلى وجهـه ويخلـع أي نبـت للحقـد والكراهيـة داخلـه.

اليـوم اختلـف عـن الأمـس، مظلـوم بفعـل البـشر حولـه، أمـا اللحظـة فـإن بـذور الكراهيـة نبتـت ونمـت وطالـت وتفرعـت وتجـذرت داخـل خلايـا جسـده، يلعـن الحريـة الـتي كان يتمناهـا،

حرية العبيد التي عاشها، حرية الفوضى والتسول وانحناء الرأس والركوع أمام بشر غرباء عن معالم الإنسانية؛ من يتوضئون بدم ضحاياهم ويؤمون البشر، رشوة ووساطة ومحسوبية. أين حقه في الحياة؟ الموت أفضل من تلك الحياة ولكنه ضعيف ولا يستطيع قتل نفسه، قتل النفس جرم يرتكبه الإنسان وعدم رضى بحكم الله. هل هو الوحيد المظلوم في تلك الدنيا؟ ما أعظم مصاب الأنبياء والرسل والأولياء، بشر اليوم تستفزهم الحياة، يتكالبون ويسقط البسطاء تحت أقدامهم، صفقات معقودة يتبادلونها وليسقط من يسقط وليعش من يعش؛ المهم مكاسبهم وتطلعاتهم، سماسرة يتاجرون في كل شيء.

نفسه راضية ولكن قسرًا عنها، تأتيه خواطر للانتقام للقتل، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، سجن ضخم كان يعرف كل أجزائه؛ حارس من حراسه، اليوم سجين حجرة ضيقة عفنة، استسلام وخضوع وخنوع انتظارًا للموت. هدوء كاذب ورضى بلا قناعة، كم كانت الضربات قاسية، لسعات السياط مجرد ذكرها تتسارع نبضات قلبه ويحسها داخله، تكوي معالم إنسانيته، صامت ساكن لا يأبه بأي شيء يحدث حوله، يسترخي ويشعر وكأن جسده شاخ، مجرد فأر أسير سرداب طويل شديد الظلمة بلا نهاية.

تنتابه أحاسيس ومشاعر عنه غريبة يحدث نفسه:

نعم أنا ساذج عبيط مسالم، لهم الحق أن يترفعوا وينعتوني بأسوأ صفات البشر. الطيبة والحب والتسامح للسفاحين والقتلة واللصوص أكبر خطيئة يرتكبها الإنسان، وما العمل؟ وماذا بيدي لأفعله؟ أنا إنسان طوال عمري أخاف أن ألحق أذية بإنسان أو

حيوان، منظر الدم ومجرد مشاهدته يرعبني، يقصيني عن الدنيا فأكاد أقع من طولي فاقدًا وعي، لا أملك شيئًا.

يلعنهم في سريرته فيخاف مجرد الإعلان عما يجيش بصدره من مشاعر، قلوب ينام فيها العفن الأخلاقي كارهة لكل البشر، رغم مسحة الجمال الظاهرة فوق وجوههم، ربما حقيقية ومؤكد مصنعة، زيف ونفاق وخداع، يستحقون الحرق، ليس بيدي فأنا لا أستطيع ولكنهم سيُحرقون حتمًا في نار جهنم.

غيظ يتملكه يكاد يصرخ ويعلن على الملأ آهاته، كراهيته، أمنيته في قتلهم، يبتلع أنَّاته الموجعة ويصمت.

هل أنا الوحيد المظلوم في تلك الدنيا؟

يجيب على ذاته، احتمال... إنه بلاء من الخالق سبحانه، يطالب نفسه بالصبر والاحتساب، ربما في ابتلائه نقاء وتصفية حساب على ظهر الأرض حتى يأتي يوم الحساب مبرءًا وهالات الطهر والنقاء تلفه يوم الحساب.

يهدأ لحين، لا يلبث كثيرًا على هذا الحال، تتأجج نيران وتطفئها دموع الحسرة والضعف، كآبته تدعوه أن يكره نفسه، عواصف السخط تعتري بدنه فلا يملك إلا البكاء، يحاول دومًا أن يكون مكبوتًا.

لم يأنس بإنسان، يشعر وكأن كل العيون تراقبه، يتحدثون عما ناله من عقاب أدمى ظهره، مؤكد يعرفون فجلدوه كونه زانيًّا، هو الوحيد في بر مصر الذي فرضوا عليه حد الزنا.

عليه أن يمتص إهانته فطوال عمره مهان فما الجديد؟ يقلب صفحات حياته وما مر به؛ هل يلتمس الأعذار لمعذبيه؟ حسن

الظـن آفـة تصيـب البسـطاء، يتصنعهـا الضعفـاء إرضـاءً للسـادة والأقويـاء.

اشـتياق يعصـف بفـؤاده لأهلـه، أي فضيحـة سـتعلق بهـم وأي مصـاب سيستشـعرونه يـوم يعرفـون بأنـه نزيـل سـجن، مـا يحيـق بهـم وبـه مـن إهانـات.

يشـعر وكأن جسـده تيبـس وقـارب جسـمه العجـز، أطرافـه تتحـرك في رعشـة عليـه جديـدة، انتقـام كيـف وممـن؟

صـدى الكلمـات البذئيـة الـتي نعتـوه بهـا وهـم يقيمـون الحـد عليـه تـوازي لسـعات السـياط الـتي تكـوي جسـده، هوسـهم وجنونهـم وصخبهـم وهـم يوسـعونه ضربًـا وسـخرية ولعنـة، هـل كانـت مجاملـة مطلوبـة لسـيدهم أم هـي مشـاعرهم الحقيقيـة؟ تنبـع كل تلـك الكراهيـة مـن داخلهـم، إنسـان يضحـك ويسـتهزئ بصرخـات آخـر! لا تجـف دمـوع البـشر ولا تخـرس ضحكاتهـم.

هل ينسى العبد الله؟

هل البذخ الشديد يؤدي إلى الكفر؟

هل نبع سعادتهم أنهم ينفذون شرع الله وهم سكارى؟

يقام شرع الله بأيدي كفرة فجرة!

قاطـرة الأحـزان تتحـرك تخفـت أنـات مـصري، يعـود لوجهـه شيء مـن نضارتـه بعـد شـحوب دام مـا يزيـد عـن شـهرين متواصلـين، تخفَّـف وجهـه مـن عبوسـه الدائـم، شـارك بعـض السـجناء حديثـه في حـدود.

شـبه كسـيح، يحـاول الحركـة لا تسـعفه قدمـاه، يـبرك مسـتعينًا بيديـه وقدميـه للحركـة، تـراوده خيـالات وتعيـش داخلـه ذكريـات

بكل مرارتها أفضل من وضعه الحالي.

ينهار وتسقط ملامح إنسانيته المهدرة، يتماسك، لا يفقد الإيمان برحمة الله، يتوضأ، يصلي، يستغفر.

امتدت يده في تردد وبلهجة تقترب من التسول لزميله في إمكانية إجراء مكالمة عبر هاتفه المحمول، قبل أن يوافق ويسلمه الهاتف نوه له عن سعر المكالمة التي تفوق عشرات المرات ما يعادلها خارج السجن، يمتص رحيق سخريته التي تكاد تخرج من بين شفتيه، الجميع يتاجرون!!!

وافق ووهبه المبلغ قبل الاتصال. تماسك وهو يتحدث لأمه وإخوته، ضحك ضحكة مفتعلة وأسرع بإنهاء المكالمة.

كان في أمس الحاجة للبكاء ولكن ليس عبر الهاتف، كان يتمنى أن يلقي بنفسه بين ذراعي أمه ويبكي وتربت على ظهره، تشاركه أنينه، تمسح على رأسه وتردد أدعيتها المعتادة، أن ترقيه من حسد ومن عين حسود، أن تلقي في النيران حبيبات الملح لتتفجر وتفجر عيون أعدائه.

-٢-

نـبي الله يوسـف عليـه السـلام سُـجن بتهمـة كاذبـة، يحـاول امتصـاص عصـارة الالآم الـتي تـنز مـن جسـده، يشـعر بـأن نفسـه أصبحـت كبحـيرة آسـنة سـطحها أسـود فـلا ثمـة نجـوم تتراقـص أو تثبـت فـوق مياههـا الراكـدة. رؤى سـوداوية تسـتأثر بأفـكاره، آهـات قاسـية يبتلعهـا، عـلى الضعيـف أن ينـام ويستسـلم تحـت سـنابك خيـول مُذلِّيـه وقاتليـه، قوتهـم تمنحهـم الجـبروت، أن لا يفكـرون في أن الآخريـن بـشر مثلهـم، يفعلـون مـا يـتراءى لهم. لـو كان الله داخل قلوبهـم لردعهـم وعـاد بهـم لحظـيرة الإنسـانية الغافلـين عنهـا، تتواصـل الـرؤى مبعـثرة فـلا تفـرق بـين مـاضٍ وحـاضر. حـتى الأماكـن تتداخـل كمـا في الأحـلام، هـو مجـرد إنسـان عالـق بـين المـوت والحيـاة، صـدى ضحكاتهـم وهـم يقيمـون الحـد عليـه تطـارده، تلاحقـه سـخرياتهم ومدعاباتهـم الفجـة، عاجـز عـن الهـروب، ينعتـه بناكـر الجميـل، يوافقونـه ويـكادون يبصقـون عليـه، يعـدد أفضالـه عليـه وهـم يسـتغربون كيـف يتنكـر لصاحـب الفضـل، ظلالهـم أشـباح تتراقـص وتتلـوى كثعابـين تتوعـده بالـشر.

يـوم لا يضيـع مـن ذاكرتـه (الثلاثـاء ٢٥ ينايـر ٢٠١١) والمناسـبة عيـد الشرطـة المصريـة، قبلهـا بيـوم واحـد يضحـك أحـد السـجناء في سـاحة السـجن وسـاعة الراحـة، بثقـة غريبـة يقـول لأحـد القائمـين عـلى الحراسـة وهـو يضحـك:

«غدًا ستتبدل الأماكن، ستكونون رهن السجن ونحن بالخارج»

مجـرد كلمـات مـرددة يتمناهـا كل السـجناء، لا تعلـق الكلمـات برأسـه، أمـا الثقـة الـتي يتحـدث بهـا فتعيـش في ذاكرتـه، لا يسـتمر الحديـث كثـيرًا والسـجان يأخـذ كلمتـه وحديثـه بسـخرية وترتسـم عـلى شـفتيه ابتسـامة هازئـة، اليـوم الثلاثـاء، همهمـات وأحاديـث دائـرة تتسـم بـشيء مـن الحـذر يقولـون في همـس متـداول:

النـاس ثائـرة ودعـوات مـن قـوى سياسـية لـنزول كل البشر للشـارع، يحتجـون عـلى الأوضـاع المعيشـية، بـدأت مـن مدينـة المحلـة الكـبرى.

الجميـع يتبادلـون الأفـكار مـن خـلال شـبكات التواصـل الاجتماعـي، مـصري يسـتمع ويسـأل ويعـرف، كل مـن حولـه يـرددون نفـس مـا يجيـش بصـدره، الأقليـة تملـك كل شيء، شـباب لا يجـد مـلاذًا أو مـأوًى أو عمـل، يتسـلط رجـال الأمـن بجـبروت ولا يوجـد مـن يردعهـم، تزوجـت السـلطة بالـثروة، الحـزب الوطـني ورجالـه الأثريـاء الطغـاة، الانتخابـات وتزويرهـا، جمـوع مـن البلطجيـة والخارجـين عـن القانـون يأتمـرون بأوامـر رجـال الحـزب، يسـتعرضون مـا حـدث في تونـس، مواطـن أضرم النـيران في نفسـه احتجاجًـا عـلى الأوضـاع المعيشـية السـيئة، نشـوة غريبـة تتسـلل لداخـل مـصري، لا يشـارك كثـيرًا في الأحاديـث الدائـرة؛ يتمـنى أن يشـعل نيرانًـا، خوفـه أم إيمانـه يجعـل جسـمه يرتجـف. تتواصـل الكلمـات، أغلـب محافظـات مـصر ثائـرة؛ صـدرت أوامـر بفـض المظاهـرات والاعتصامـات، الجميـع يؤكـدون أن الغـد أكـثر شراسـة مـن اليـوم، لا يأتيـه النـوم ينتظـر قـدوم الصبـاح، يدعـو أن تعـم الحرائـق ولكنـه يـتردد في الدعـاء فكثـير جـدًّا مسـالمون ضعفـاء سـتأكلهم النـيران، قبيـل الظهـر يـردد

أحدهـم ويقـول - والآخـرون ينصتـون باهتمـام بالـغ: قـوات الأمـن ألقـت القنابـل المسـيلة للدمـوع وطـاردوا المحتجـين.

كلمـات ثائـرة ودعـوات ناقمـة وتصريـح شـبه مؤكـد يقـول إن النهايـة قـد دَنَـت؛ لكـن عـلى الجميـع الحـذر والترقـب؛ هنـاك فئـات معينـة تـدرك وتعـرف أشـياء لا يعرفهـا الغالبيـة مـن السـجناء، رغـم أنهـم رهنـاء بالسـجن تأتيهـم الأخبـار أو ربمـا لهـم يـد في صناعـة الأفعـال ودفعهـا، هنـاك شيء يـدور بـين البعـض ولكنـه محجـوب عــن الكثيريــن، وجــوه مترقبــة متفائلــة ووجــوه عابســة، الحــراس والضبــاط التوتــر ينعكــس في كلماتهــم ونظراتهــم ولعناتهــم الــتي يصبونهــا بــداعٍ أو بــدون داعٍ.

يـوم الجمعـة ٢٨ ينايـر، جمعـة الغضـب، السـجن لـم يسـلم مـن تظاهـرات ولكنهـا صامتـة، تـأتي الأخبـار أن كل محافظـات مصر تعمهـا الثـورة، الاعتقـالات قائمـة وإحـراق مراكـز الشرطـة دليـل واضـح عـلى سـيطرة الجماهـير الثائـرة الغاضبـة، أخبـار عـن حـرق وتدمـير المقـر الرئيـس للحـزب الحاكـم بالقاهـرة الكـبرى، دمـرت كذلـك العديـد من المقـرات الخاصـة بالحـزب، أُعلـن حظـر التجـوال، نـزل الجيـش إلى شـوارع المـدن لحمايـة الممتلـكات العامـة ومحاولـة السـيطرة عـلى الأوضـاع القائمـة، أعلنـوا أن الجيـش محايـد وهـو جيـش مـصر لا يميـل لهـذا أو لـذاك، يقـول بعضهـم هـي ألعـاب سياسـية والجميـع يدخـل معتركهـا.

السـجن مشـيد عـلى مسـاحة تقـترب مـن مائـة فـدان؛ في الأراضي الكائنـة حـول السـجن اشـتعلت النـيران في أكـوام قـش الأرز والإطـارات وحـتى الأكشـاك الخشـبية، ضبـاب ودخـان كثيـف وطلقـات رصـاص بصـورة عشـوائية، جنـود الحراسـة فرغـوا محتويـات ذخيرتهـم الـتي لا

تتعدى ٦٠ طلقة للحارس الواحد، قائد السجن ومعاونوه يطالبون الإدارة العامة بإرسال إمدادات وذخيرة؛ لا استجابة للمطالب.

خارج السجن سيارات جيب ذات دفع رباعي وأسلحة آلية متعددة، ومنهم من يستقلون درجات نارية، منهم بدوٌ يبدو هذا واضحًا في ملابسهم ولهجتهم، منهم من يضعون الشال الفلسطيني على أكتافهم، ظهرت أسلحة ثقيلة من آر بي جي وجرينوف، تم هدم بوابة السجن الرئيسة باستخدام لوادر. في البداية هدد الجنود بأنهم سيقتلون أي سجين سيحاول الهرب، لكن مع نفاذ ذخيرتهم لزموا الصمت، في الداخل كانت عبارات التكبير «الله أكبر ...الله أكبر» تلهب المشاعر وتقوي النفوس، استطاع السجناء كسر الأبواب والخروج للساحة الرئيسة للسجن، وهناك زنازين فتحها الحراس، من جاء وهدفه الأساسي تحرير السجناء والمعتقلين وآخرون قادمون للسرقة، فسرقوا وساقوا أمامهم المواشي التي كانت تربى في المزرعة داخل السجن. انطلق الجميع في سبيل الخروج والهروب من السجن، تدافعوا عبر البوابات الرئيسية، من لم يتيسر لهم الوصول للبوابة ألقوا بالبطاطين فوق الأسلاك الشائكة واعتلوها وقفزوا من فوقها، حتى مَن لم يفكر في الهروب خاف، فقد وصل لمسمعهم أن الداخلية نفسها ستفجر السجن، هروب المساجين سيخلط الحابل بالنابل، الثائر وصاحب القضية بالمهرب والقاتل والأجير السفاح، ستعم الفوضى، فهل هذا هو المطلوب؟

ما يزيد عن ٥٠٠ سجين هربوا، قيادات من الجناح العسكري لحركة حماس، بعض أعضاء جماعات الإخوان والجماعة الإسلامية وبعض من خلايا حزب الله، هو لا يعرف ماذا يفعل!

عليه اتخاذ قرار سريع، الجميع يفرون، أوامر صادرة بالخروج فورًا، ليس أمامه خيار لينفذ التعليمات، تخلى عن الحذر الذي يلازمه طوال حياته، قرر ونوى.

قبل أن يفر عليه أن يرجع لمقر سريته في الجانب الآخر من السجن، لم يتردد، داخل مخلاته حقيبته الجلدية الصغيرة، عليه أن يساير الركب وفي الحقيبة زي مدني وآخر عسكري، ضباب يخنق ويتحمل وينسى كل آلامه ويأخذ طريقه المحفوف بالمخاطر حتى يصل لمبتغاه، يسرع في سحب مخلاته العسكرية وبها حقيبته الجلدية يتأكد من وجود الملابس، وابل من طلقات الرصاص حوله، لا يتملكه الخوف كالمعتاد، أسوار تهدم وأبواب تفتح وصرخات ألم وأنين جرحى وأوامر صادرة، يتأكد أيضًا أن الحقيبة بداخلها المبلغ الذي وهبه له ابن الزعيم مقابل التخلص من فتاته.

يعرف الطريق جيدًا، يلتمس الأكثر أمنًا ويسرع.

ماذا يحدث؟ ومن فعل ذلك؟

الداخلية؛ لتعم الفوضى وليتقاتل كل أبناء البلد!!!

البدو العربان، لهم داخل السجن كثير من أبنائهم.

حزب الله وأعضاء حماس.

للجميع غرض وكل يسعى لمآرب خاصة.

***

اعتـاد هـذا الطريـق حـتى في الظـلام، كـم مـن مـرة أتى متأخـرًا، مـضى عـبر التخـوم والأراضي المجـاورة للسـجن، إنـه خريـج مدرسـة القهـر، تعيـش في ذاكرتـه دروس الخـوف والحـذر، اللحظـة لا يستسـلم لهـا، يقـرر، يفـض أسر أحلامـه.

أمامـه خيـاران لا ثالـث لهمـا، العـودة مبـاشرة لبلـده أو يأخـذ طريقـه لحجـرة حامـد بجـوار أم وردة، كلا الطريقـين سـيؤدي بـه حتمًـا للسـجن مـن جديـد، ففـي أيهمـا مـن السـهل القبـض عليـه بـكل يـسر.

في الطريـق المظلـم غـير المطـروق يمـضي ولـم يحـدد هويتـه بعـد، مـا زال يترنـح عـلى حافـة هاويـة المجهـول، أدار وجهـه ناحيـة السـجن، كـم يتمـنى أن يبصـق، يبتلـع لعابـه فمـا جـدوى أن يبصـق عـلى جـدار أو جمـاد، لا مبـالاة غريبـة تـسري في حنايـا جسـده، مـتردد في أي الاتجاهـات يمـضي، وأي الطـرق يسـلك، كل السـجناء الهاربـين مضـوا في طريقهـم، لـم يقتـف أثـر أي سجين هـارب فقـد اتخـذ طريقًـا غـير ممهـد وغـير مطـروق، تتعـدد الـرؤى أمـام عينيـه، القاهـرة ذات الزخـم والمتشـعبة المزدحمـة هـي أفضـل الطـرق للاختبـاء، يتحـرك في يـأس صامـت، عينـاه تلـج كل الـدروب الممكنـة، يلتمـس طريقـه لا يشـعر بوهـن أو ضعـف، سـاعة الغـروب وقـد اكتسـت السـماء بلـون الـدم، يشـعر بأنـه فـأل سيء، ينحـرف لاتجـاه جانـبي، مبـنى صغـير متهـدم أو بقايـا لحظـيرة بهائـم، لا يهتـم.

يخلـع عـن جسـده ملابـس السـجن ويرتـدي ملابسـه المدنيـة، يشـعل نيرانـا ويلقـي في أتونهـا بملابـس السـجن، تسـيطر عـلى رأسـه حسـابات متعـددة ويحـاول أن يكـون حـذرًا وأن يتخـذ قـراره في ضـوء المتغـيرات الممكنـة، صـار أكـثر حوطًـا، فعليـه أن يحتفـظ

أيضًا بملابسه العسكرية ربما أتت رياح التغيير بهؤلاء فيعلن انضمامه تحت لوائهم، وأما إذا كانت غير ذلك فيتخلص من ملابسه العسكرية لحظتها.

يتبقى في الحقيبة زيه العسكري ويدس بينها أوراقه الشخصية وهويته العسكرية، يسحب أيضًا القليل من الأوراق النقدية ويترك الباقي، أفكاره تتأرجح بين مؤيد ومعارض، لمن؟ يلعن نفسه ويصمم أن يكون معرضًا بكل المقاييس، عليه أن لا يعلن رأيه على الملأ، عليه أن ينظر حوله بتأن وروية، فإن كانت الغلبة لقوات الأمن فهو ابنها، أما إذا دارت الدائرة بالعكس فعليه أن يلعن الأمن وكل ما يتقرب منه، احتمالات قائمة لكل شيء.

عليه أن يبتعد، ما زال الخوف قائمًا ونائمًا في صدره، يشعر بوغز جراحه فيئن للحظة ويحاول النسيان، آثار عذابه ما زالت تنتفض في بحر أفكاره المتلاطمة وكأنه سقط في بئر بلا قرار، متاهة مظلمة، همسه ونبضات قلبه تتردد في جنبات صدره كصدى حائر لا ينقطع، يتنفس ورائحة الموت تطارد أنفاسه، رغم هبوط الليل وهوائه المحمل بعبق المساء الشتائي البارد وملابسه الخفيفة لا يشعر ببرودة الجو ويواصل الهروب.

نبض حياة جديدة يسري في عروقه، بدت عيناه متعبتان وفي أمس الحاجة للنوم ورأسه شعر بثقله، تغلب على النعاس، ليس أمامه سوى طريق واحد لا عودة ولا مفر منه، فليمض.

قد تضيع معالم الطريق منَّا رغم أننا في وضح النهار ونتخبط في ظلام نلتمس النجاة، أفكاره مشوشة رغم أنه اتخذ القرار.

***

أخـيرًا وصـل للمبتغـى، يتملكـه الذعـر للحظـة، يعيـد النظـر مـن جديـد، آلاف مؤلفـة مـن البـشر تمـلأ الميـدان وشـوارعه الجانبيـة، يتسـاءل:

هل كل هؤلاء حاق بهم الظلم؟

هل كل هؤلاء يشعرون بنفس الألم؟

هل أُقيمَ عليهم الحدُّ مثله؟

تتـلألأ عـلى شـفاههم كلمـة الحريـة والعدالـة الاجتماعيـة وتسـبقها كلمـة عيـش، نعـم هـي نفـس مطالبـه وأمنياتـه، تطـرق كلماتهـم طبلـتي أذنيـه فتجيـش الأمـاني داخلـه وتسـتنفر هوسـه النائـم الحالم دومًـا، دعـوات بالحيـاة لمـن أهـدرت ملامحهـم الإنسـانية مـن قبـل جيرانهـم وأهلهـم، مظلمـون تنوعـت أشـكال الظلـم الواقـع عليهم، يتفاعـل ينـسى كل آلامـه السـابقة، ليكـن هنـا موطنـه.

تخلـص مـن الخـوف الـذي اسـتبد بـه سـنوات، لقـد أشـعلوا نـيران الثـورة المحبوسـة داخلـه فهتـف معهـم وبهـم، اسـتمد مـن المظلومـين قـوة، اسـتهان بالحيـاة، المـوت والحيـاة لا فـرق يذكـر بينهمـا فإمـا حيـاة بكرامـة وإمـا مـوت، لـو مـات مـاذا سـيحدث؟ ولـو ظـل عـلى قيـد الحيـاة لـن يتغـير في الدنيـا شيء، أصبـح المـوت هـو الأفضـل إن ظـل عـلى قيـد الحيـاة بنفـس الصـورة السـابقة، هـو مجـرد إنسـان عـلى قيـد الحيـاة شـكلًا في الحقيقـة ميـت وفاقـد للحيـاة.

لا رجعـة عـن قـراره فـلا عـودة لبلـده وموطنـه، حـتى مجـرد لقـاء حامـد أو الذهـاب لمسـكنه مرفـوع نهائيًّـا مـن فكـره، يفكـر في كل الاحتمـالات الممكنـة، يشـعر وكأن هنـاك شـيئًا جديـدًا سـكن جسـده

وعقلـه غـير معهـود مـن قبـل.

تتغـير معالـم اللوحـة القاتمـة في صـدره وأمـام عينيـه، فقتامـة الألـوان الموحيـة بالرعـب والبـؤس وكآبـة الغـد، يتفاعـل مـع كل البـشر وتتغـير الألـوان إلى ورديـة زاهيـة مبـشرة ويتمـنى أن لا يكـون أسـير حلـم.

الآلاف المؤلفـة تنـادي جميعًـا بنـداء الحريـة والعدالـة وحـق الحيـاة، يتـوه وسـط الزحـام ويشـارك وينـادي ويتسـاءل كثـيرًا، يجـد أن تعـداد المظلومـين كثـير جـدًّا، كلهـم وقـع عليهـم ظلـم، يبحثون عـن ولادة جديـدة وعالـم يعيـد إليهـم إنسـانيتهم المهـدرة.

ما أكثر المظلومين في بلادنا!!!

تناغـم وتلاحـم غريـب، أيـوم الحـشر؟ سـبحان الله، هـذا مـا تسـتطيع عيـني رؤيتـه، مسـتحيل أن أحـصر وأختـصر الدنيـا في مجال رؤيـتي المحـدودة.

يحـدق في كل الوجـوه يجـد نشـوة وفرحًـا ومرحًـا، أمـاني لغـد، لوحـات متباينـة يصنعهـا ويرسـم خطوطهـا البـشر مـن حولـه، لا ينقطـع حبـل أفـكاره فيسترسـل شـاردًا مفكـرًا متطلعًـا في تلـك العيـون الـتي تشـع ببريـق مثـير مدهـش، الشـباب هـم الغالبيـة العظمـى، ملابـس متباينـة مختلفـة، فصائـل متعـددة مجتمعـة عـلى هـدف يصرحـون بـه عـلى المـلأ بـلا خـوف أو توجـس، لا مـكان لقـدم، زحـام، كل الأرجـاء مكتظـة بالبـشر، الغريـب أن بائـع الشـاي يدفـع بكـؤوس الشـاي لمـن يريـد ومـن لا يريـد ولا ينتظـر المقابـل، ليدفـع مـن معـه، غربـاء يقتسـمون اللقمـة في مـودة وحـب غريـب، يضحكـون ويتبادلـون سـجائرهم وينفثـون دخانهـا في وهـج ثـوري، هـذا يعطـي وهـذا يأخـذ، هـذا يتمنـع وهـذا يـصر عـلى مشـاركته،

فتيـات وسـيدات تختلـف مشـارب ملابسـهم، منتقبـة، محجبـة، سـافرة، رغـم كل هـذا فـلا تحـرش بكلمـة أو لفـظ بـل إن العيـون تسـتحي أن يكتشـف الآخـرون إلى أيـن تصـوب نظراتهـم.

جرفتـه أمـاني الحريـة القابعـة في صـدره، ذهـب الخـوف نهائيًّـا عنـه لكـن أحيانًـا يتحـاشى النظـر في عيـون الآخريـن وكأن أحدهـم سيشـير عليـه بأنـه هـارب مـن السـجن، ألقـى بـكل تلـك الأوهـام جانبًـا وعـاش اللحظـة بـكل مـا فيهـا، ردد معهـم وتفاعـل بـكل كيانـه وقوتـه.

-٣-

يستهويه حديث أحدهم وهو يقول:

أشـعر وكأننـا في شـعائر الحـج ولـم يتبـق مـن الشـعائر سـوى رجـم إبليس.

يرد أحدهم:

قل واكتب «ارحل» ستكون هي أداة الرجم لإبليس وحاشيته.

بجرأة غير معتادة يقولون:

الشعب يريد إسقاط النظام.

يلتفـون حـول علـم واحـد وأمـاني واحـدة، يبحثـون عـن وطـن مفقـود وكرامـة ضائعـة، يتأمـل ويسـتمع ويـردد معهـم ويسـتمتع، يتذكـر أنـه يـوم كان تلميـذًا في المدرسـة لـم يهتـم بترديـد النشـيد الوطـني أو تحيـة العلـم، هنـاك مدرسـون شـككوا في العَلَـم فقالـوا: إنـه صنـم ومجـرد تحيتـه كفـر والعيـاذ بـالله، اللحظـة الآنيـة يـردد بـولاء غريـب.

شاركهم وأقام الصلاة.

لا يشـعر مـصري بـأي تعـب جسـماني، لا يحـب الركـون والجلـوس في مـكان واحـد، يتحـرك، يحـس بمتعـة غريبـة تتسـلل داخل جسـده، يتحـدث أحدهم:

أشعر وكأننا في المدينة الفاضلة.

مـصري يـدرك المعـنى ولكـن اسـتمع بشـغف مقـولات المتحـدث صاحـب الشـعر الأشـعث المتفائـل بالغـد وكلماتـه المثـيرة للحمـاس بـلا زعيـق ولا هتافـات أو شـعارات رنانـة، لاقـت في نفسـه مرتعًـا.

يعتلي أحدهم المنصة ويقول:

إنــه شَــاهَد الرســول صــلى الله عليــه وســلم يطــوف في أرجــاء الميــدان.

تهليل و صرخات ودعوات تهز الأرجاء «الله أكبر ... الله أكبر»

يشـارك مـصري في التكبـير، لـو طلبـوا منـه في تلـك اللحظـة أن يلقـي بنفسـه في أتـون النـيران لألقـى بـلا أدنى فكـر.

يواصل من اعتلى المنصة.

هــل تــرون أسراب الحمــام الــتي كادت أن تغطــي الميــدان، إنــه قــادم ليلقــي الســكينة والطمأنينــة عــلى قلــوب الثــوار، الله معنــا.

يهللون ويكبرون، ينسحب مصري ولكن يتساءل:

«إنها مجرد بضع حمامات فحسب»!!!

ينظـر إليهـم، أغلبهـم مـن الشـباب لا تفـارق الابتسـامة وجوههم، رغـم الشـهداء والمصابـين تنسـج ضحكاتهـم أمـلًا للغـد، يتسـامرون أوان الليـل ويقتلـون اليـأس والملـل، عليهـم أن يدفئـوا أجسـادهم وعقولهـم، يشـعلون نيرانًـا تذهـب بالـبرد مـن الجسـد، يسـتدفئون بالفكـر الإنسـاني الـراقي، يرسـم أحدهـم لوحـة ويعرضهـا وحولهـا تـدور أسـئلة ونقاشـات، يغنـون ويـرددون الأغـاني ويتباهـون بحـب مـصر.

تتـوالى المعونـات مـن مختلـف فئـات الشـعب، تتـولى لجنـة خاصة أطلقـوا عليهـا لجنـة الإعاشـة والأمـن اسـتلامها وتوزيعهـا، ليـس

هناك شخصٌ محددٌ أو كيان خاص، فالمعونات تأتي من أبسط الناس لأكبرهم، فهذا المطعم والمقهى المجاور له يفتحان أبوابهما طوال الليل والنهار أمام الرواد للمأكل والمشرب ويقسم أصحابهما بأن ما يفعلانه ويقومان به بلا مقابل مادي.

تعقد المفاجأة لسان المصري، بعد أن أكل ما يسد به حاجته واحتسى كأسا من الشاي، كان رفيقه ومشاركه الطعام ضحوكًا خفيف الظل، فطلب مزيدًا من الطعام وحاول أن يحذو مصري حذوه فابتسم وشكره قائلًا:

- شكرًا لهم أكلنا وشربنا بلا مقابل.

- كله بثوابه.

- جزاهم الله عنا خيرًا!

ضحك صاحبه كثيرًا وأقسم بكل الأديان والرسل أن صاحبي القهوة والمطعم كاذبان، فالمقابل مدفوع مقدمًا وأنهما يوميًّا يتكسبان الآلاف، وراح يعدد من أصحاب المكاسب وكيف يستفيدون، لم يهتم مصري بأقواله كثيرًا، فقد بدا من حديثه أنه غير مؤمن بالثورة ولا بتلك الأفعال العظيمة التي يفعلها الثوار، وفي أقرب فرصة استطاع التخلص منه مستأذنًا بأدب وافترقَا.

في خيمة شبه متداعية مصممة ببقايا من القماش والورق المقوى وأعمدة أو ما شابهها، كلهم نائمون، وضع رأسه فوق حقيبته الجلدية وذهب في نوم عميق، لم يفق من نومه إلا على أصوات تدعو لصلاة الفجر، قام من فوره وجد الجميع على أهبة الاستعداد، شاركهم مبهورًا.

***

إنها أوامر صادرة

ممن تلك الأوامر؟ سأل المصري.

كانت الإجابة جاهزة.

- هنـاك أوامـر مـن قياداتنـا بمنـع إعلاميـين ونشـطاء مـن الحديـث بـل بطردهـم مـن الميـدان نهائيًّـا فهـم عمـلاء للنظـام وجواسـيس.

- أظن أنه مطرب محبوب من الشباب.

- ولد مخنث.

- لقد أتى بإرادته.

- لتحقيق مشهد إعلامي يخدمه في الوقت الحاضر والمستقبل.

- قال: إنه يؤازر الثورة.

- كذاب أَشِرٌ.

كانـت الأوامـر صريحـة، انطلـق الشـباب تنفيـذًا لمشـورة الكـبراء، اتجهـوا مبـاشرة صـوب المنصـة الـتي اعتلاهـا، هـم بـأن يتكلـم، هتفـوا ضـده، «انـزل ...انـزل» بـل إنهـم كالـوا لـه الضربـات وكلَّ مرافقيـه.

- هل الثورة مقصورة على أشخاص معينين؟

- من يؤمنوا بها.

- لكـن هنـاك فئـات مختلفـة، فتيـات وسـيدات، مسـلمون ومسـيحيون، متعلمـون وجهـلاء وأغنيـاء وفقـراء.

- وهناك أصحاب مطامع.

- كيف نصنفهم؟

- معروفون، يبدو أنك غريب.

- صح.

- عليك أن تنظر وتدقق جيدًا فيمن حولك، انظر شبابًا تزخر وجوههم بنعومة وعيشة مرفهة لا يمتون لواقعنا بصلة، كثير منهم من أبناء الجامعات الخاصة، هل تعرف ماذا تعني كلمتي؟

- للأسف لا أعرف.

- ليس هذا موعد مناسب للشرح.

ضحك وحاول المضي وهو يقول:

- علينا أن لا نتجه لصراعات جانبية في الوقت الحالي، إنهم شباب «سيس».

- سيس !!!

- ستعرف كل شيء في حينه.

- ممثلات وفنانات وسيدات.

- إنهنَّ بلا ملة ولا دين، إنهن فاجرات، أن لا تسمع وترى بعينيك، أغاني مرددة ومعازف ملعونة يرددونها، إنهم جميعًا من رجال ونساء شواذ يستحقون اللعنة، الغد قادم وسيدفنون أو يحرقون داخل جحورهم.

تركه ومضى وصار نهبًا للشكوك والقلق.

تداهمه خواطر مزعجة، يستمع ويقلب الأمور في رأسه ولا يدرك المنتهى والمراد من ورائها، زلزال يهز كيانه، أسئلة كثيرة تتردد في صدره، يبتلعها، يرتشف جرعات متتابعة من الماء ليدفعها لداخله، مياه لا تروي ظمأ فؤاده ولا تخفف حدة اضطرابه، صراع ديكة يرتفع حتي يصل إلى أين؟ لهجات قاسية حادة، عبارات خارجة عن مألوف اعتاده في الأيام المعدودة

السابقة، إنهم يدعون للمدينة الفاضلة، كما يقولون مقطوع من شجرة فلا رفيق ولا صديق ولا قريب فلمن يبوح بخلجات صدره، عليه بالصمت ولينتظر ما تسفر عنه الأيام والأحداث القادمة، هل هناك صفقات معقودة مقابل الولاء لآخرين خارج حدود الوطن؟

نسي كل أوجاع جسده، يستبعد أن يكون وراء تلك الثورة مخططات أو صراع من أجل منصب أو قيادة.

يتسلل ويجلس على باب خيمة وحوار دائر:

- إنه لا يرتقي لمرتبة الزعيم.

- يكفي أن رئاسة الجمهورية تعمل له ألف حساب.

- لأنه عميل.

- هو الوحيد الذي تكلم والجميع صامتون.

- هو أساس خراب بلد عربي شقيق.

- لكن كان مدفوعًا.

يقاطعه بحدة:

- إنه لا يعيش في مصر، مقيم وأسرته في أوروبا.

انتفض واحد من بينهم وبصورة تمثيلية واقفًا في وسط تجمعهم، راح يردد أشعارًا بلهجة صعيدية ذات مخارج جميلة، استطاع أن يوقف سيل الحوار، طالبوه أن ينشيهم جوابات حراجي لزوجته فاطمة في ملحمة بناء السد العالي، لم يبخل عليهم واستهوت الحكايات الشاعرة المنغمة أذن مصري فاستمع واستمتع، دارت حوارات وتمنوا أن يكون لهم مشروع قومي حقيقي، وغيره قام مغنيًا ومؤديًا لكلمات شاعر رائع تحت اسم

«بقـرة حاحـا» طـاف بكلمـات أغنيته فاهـتزت رؤوس الجميـع، واكبـت أغانيـه إيقاعـات وتصفيـق الجلـوس جميعًـا، يسـمع مـصري ويعـرف الشـاعر والمطـرب الكفيـف الثائـر الـذي يـردد تلـك الأغـاني.

-٤-

- أنتم هربتم وحذرتم شبابكم.

- كذب وافتراء.

- خالـف الشـباب أوامركـم وانضمـوا للثـورة في جمعـة الغضـب، خفتـم سـاعة شـعرتم أن الثـورة قامـت وسـتنجح وبـدت بوادرهـا، أسرعتـم وحضرتـم بحشـودكم وجموعكـم كالعـادة لتركبـوا الموجـة.

- نحن من ندفع الثمن دومًا، نحن وقود الثورة.

- أنتـم تنـاصرون مَـن؟ ومـع مَـن ضـد مَـن؟ مـع السـلطة أو مـع الثـورة؟ أم تلعبـون عـلى الحبـل وتنتظـرون مـا تسـفر عنـه الأيـام، ليتكـم ترفعـون عـن وجوهكـم الأقنعـة وتفصحـون عمـا في نيتكـم وأهدافكـم ومآربكـم.

- نحـن صحـوة الضمـير الإسـلامي، نحـن مـن تلقينـا الضربـات تِبَاعًـا منـذ أكـثر مـن ثمانـين عامًـا، دفعنـا في سـاحة الحـق شـهداء، ويكفـي إمامنـا الشـهيد وغـيره كثـيرون لا تعرفونهـم.

- دومًـا تسـخِّرون كل الأشـياء والمواقـف لمصلحتكـم ومصالحكـم وخاصـة أنكـم شـعرتم أن الثـورة ناجحـة، أنتـم مـن تمـدون أيديكـم وتقبِّلـون أيـدي السـادة تحـت مسـميات عديـدة ولا يعلـم سـوى الله مـا يـدور في عقولكـم.

- نحـن مـن نقبِّـل، نحـن مـن نتقبَّـل الأمـوال تحـت دعـوى الاقتـداء بالسـلف الصالـح، حـرام عليكـم، أنتـم دومًـا مروجـو الشـائعات

والأكاذيب، لنتريث فنجاح الثورة مرهون بكل الناس، آلاف مؤلفة من البشر نزلوا وشاركوا في الثورة، شعروا بأن ما يحدث حقيقة وصدق.

- نحن من أشعلناها.

- كل من ثار ومن شعر بالظلم وهتف منددًا ثائر.

- طوال عمرهم عاشقون للقهر، دائمًا في سبات ونوم، من يدفع الثمن نحن فقط، يكتفون بالتصفيق وعيونهم تتطلع للغنائم.

- الثورة لكل البشر.

- نحن ونحن فقط.

- ولو كنت فظًّا.

- تلبسون ثيابَ السلف، أنتم أهل البدع والجهل.

- يكفينا أننا لا نحاسب ولا نصنف البشر وفقا للعقيدة، الرب موجود، ميزان الآخرة منصوب، من يحاسب البشر من أعطى ومنح سبحانه جلَّ شأنُه، من خلقَ وصورَ ومن يقول للشيء كن فيكون.

- طوال عمركم تمشون تحت راية السلطان، كما النمل تنخرون الجدار، تقولون لا خروج عن طاعة أولي الأمر ولا خروج على الحاكم، أنتم أساس البلاء، عودتم البشر على المذلة والخنوع.

- اتق الله، لنوحد الصفوف، الفرصة مواتية، فالجهاد أن نرفع ظلمًا وأول مراحل الجهاد جهاد نفس، تخلوا عن أنانية مفرطة تجتاح أفكاركم السوداء، تغيرت الدنيا من حولنا، الجهاد دعوة حب وليس تكشيرة وجه.

- الله أكبر، آخر فتاواكم، يا أخي اتق الله، الجهاد شرع، أتغير شرع الله؟ ليس الجهاد تمايل على دقات دف كما تفعلون.

- نحن لا ننازع أصحاب الدنيا، لا ننكر عقيدة، للناس الحرية أن يختاروا وفق ما تؤمن به قلوبهم وأفئدتهم، لا إكراه في الدين.

- كلمات غريبة تنثرونها لا تعكس حقيقتكم، ألستم ممن يقولون:

حتى تصبح شيخًا وصاحب كرامات عليك أن تشرب الماء ساخنًا في عز الصيف، هل هذا مفهوم الجهاد عند شيخوكم، يقولون: إن الجهاد هو عذاب النفس وهو بداية الطريق للوصول!!! أي جنون هذا؟!!!

- كلامك دخانه يعمي العيون، ناس بلدنا طيبون، كلام لا أساس له من الصحة، لو شربت الماء ساخنًا في يوم حر، تتألم أجزاء الجسد وتعذيب الجسد حرام، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، لكن الماء يُشرب باردًا؛ فتبتل العروق ويستريح الجسم وتردد الشفاه الحمد لله، فعندما تتنسم عبير زهرة لا إراديًّا تقول الله.

- وستر الحال يا أبا الكرامات.

- المدار على القلب، ليس باللهاث وراء الدنيا والسعي لنيل مآرب خاصة، ليس بِلَيِّ ذراع الدين لغرض في نفوسنا أو من أجل السلطة والمال، لا تنس هناك شيوخ وأولياء وأقطاب حاربوا ولم يبخلوا بأرواحهم أو دمائهم في سبيل الحرية والدفاع عن الأوطان.

- كم عددهم؟

- كثيرون.

- أغلبهـم شـجعهم السـلطان والاسـتعمار، كلٌّ منهـم اسـتغل الفرصـة وصنـع لنفسـه ولايـة وأصبـح شـيخًا ولـه مريـدون وأتبـاع، وتحـت مسـمى تركنـا الدنيـا، صنـع لهـم الأتبـاع أصنامًـا عبدوهـا، موالـد وذكـر ومسـخرة.

- سامحك الله!

- تستحقون الحرق والرجم.

- سـامحك الله، عليـك أن تتعلـم وأن تقـرأ دون النظـر للغايـة، فـأول عبـادة الله عـز وجـل معرفتـه وأصـل معرفتـه توحيـده ونظـام توحيـده نفـي الصفـات عنـه بالكيـف والحيـث والأيـن وطريـق الوصـول إليـه تصفيـة القلـب.

- خزعبلات.

- جزاك الله خيرًا!

- أرددهـا ثانيـة خزعبـلات مـا أنـزل الله بهـا مـن سـلطان، تراهـات حشـوتم بهـا عقـول الخلـق، تقولونهـا للعامـة والبسـطاء فيـكادون يتعبـدون في محاريبهـا، أكاذيـب ترددونهـا فتقولـون وتدعـون: شـيخنا يمـد يـده فتعـود وترتـد إليـه بفاكهـة ليـس أوانهـا، إنهـا فاكهـة مـن الجنـة، كرامـات ومعجـزات وأفعـال تلبسـونها ثيـاب الحـق وكلهـا مرذولـة ومكروهـة، آخـر يُنَصِّـبُ شـيخه مـكان الله فيصفـه قائـلًا:

عندما وصل سنه السادسة عشر جاوز سدرة المنتهى ...جنون.

- ما تتفوه به كذب وأدعاء.

- أنتم تنقلونه.

- مـن نقلـه منافـق، أنتـم مـن تـرددون حكايـات مزيفـة وتركبـون بهـا عقـول النـاس.

- لماذا تشارك في الثورة؟

- خائف منكم، لو ملكتم.

- سنمتلكها ومنذ ما يقارب من ثمانين عامًا ننتظر اللحظة.

- أفعالكم ستكون كلها جور وظلم باسم الدين.

- سنحكم ونتحكم ونعيد صياغة الدنيا.

- الله مالكها وليس بظالم.

- مكانك ليس هنا.

- أين؟

- هنـاك، بجـوار ضريـح ومقـام شـيخ صنعتـم منـه أسـطورة وقاربتـم عبادتـه.

- أستغفرُ ربك.

- أنـت مجـرد درويـش مـن الدراويـش الـتي تكتـظ بهـم سـاحات الأوليـاء والمشـايخ ومـن تدعونهـم بالأقطـاب، أنـت مجـذوب مـن المجاذيـب.

- عليكم أن تُصفُّوا قلوبكم.

- لا وقت للكلام، أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

- أدعو لكم.

- لا تدعـو، كلامـك مـن شـفاه كاذبـة، يـوم تنتهـي معركتنـا هـا هنا، سـتكون معركتنـا القادمـة معكـم، ضدكم.

سـكن مـصري في نومتـه، لـم يتحـرك رغـم يقظتـه، رآهمـا مجـرد شـبحين فائقَـا الطـول أكـثر مـا يميزهمـا لحيتهمـا الكثيفـة، أضـواء باهتـة سـقطت عـلى وجهيهمـا، ألقـى البطانيـة فـوق جسـده كلـه

فأضحـى مجـرد قطعـة أثـاث باليـة مهملـة كالأشـياء المحيطـة بـه، أغلـق عينيـه، حبـس أنفاسـه، أصـاخ السـمع، كل مـا جـادت بـه قريحتهمـا اسـتمع إليـه جيـدًا، ابتعـد الصـوت وتناهـت إلى أذنيـه خطواتهمـا حـتى ضاعـت وتلاشـت، رويـدًا رفـع الغطـاء عـن رأسـه، دارت عينـاه تسـتطلع المـكان مـن حولـه جيـدًا، مجـرد مـكان اتخـذه مكمنًـا بعيـدًا عـن العيـون ودس نفسـه بـين بقايـا مـن خشـب وأوارق كرتونيـة، كان أذان الفجـر، انكمـش مـن جديـد وأراد أن يعـود للنـوم، اسـتحى أن يـراه أحدهـم ربمـا يوبخـه فالجميـع يقيمـون الصـلاة، فكيـف يتخلـف عـن صـلاة الفجـر في الجماعـة، اسـتعاذ بـالله مـن الشـيطان الرجيـم، انتفـض واقفًـا، ومبـاشرة ذهـب للجماعـة.

عندمـا سـلم وهـمَّ بالخـروج مـن موقعـه، وجدهمـا يتصافحـان بعـد أن سـلمَا وخرجَـا مـن الصـلاة، جمـد في مكانـه لبعـض الوقـت، وأسـئلة كثـيرة تتابعـت عـلى رأسـه، فكيـف يفـسر ومـاذا يقـول ولتوهمـا خارجـين مـن الصـلاة، حـددَا موعـد قتالهمـا بعـد انتهـاء الثـورة، هـذا مـا أفصحَـا عنـه في الحديـث الدائـر الـذي التقطتـه أذنـاه بوضـوح تـام.

مـع نسـمات الصبـاح النديـة يلفـه أسىً لا يـدري أسـبابه، عـاد وقبـع في نفـس المـكان وراح في سـبات ينتظـره.

***

يتحـرك وسـط الجمـوع هاتفًـا ولكـن في حمـاس فاتـر، في جلسـة يتناوبـون فيهـا احتسـاء الشـاي والمشروبـات السـاخنة يقـول أحدهـم:

قـادة القـوات المسـلحة يلعبـون لصالحهـم ولهـم مآربهـم، لقـد ضاقـوا ذرعًـا بالرئيـس الـذي سـلم مهـام منصبـه لولـده وزوجتـه، أمـا مـا يثـير ضجرهـم حقيقـة فهـي فكـرة التوريـث الـتي ينـادون بهـا اليـوم ولهـا دعـاة وأبـواق، كيـف وهـذا الابـن مـن خـارج المؤسسـة العسـكرية، يقولـون: إنهـم عـلى الحيـاد وإنهـم جيـش مـصر كلهـا، ليـس حبًّـا في الثـورة بقـدر مـا هـو خـوف أن يفلـت الزمـام مـن أيديهـم، علينـا أن نلاعبهـم بنفـس أفكارهـم، سـاعة أن نملـك زمـام الأمـور سـيكون لنـا رأي آخـر، المهـم أن نـرضى وليـس في الإفصـاح خـير.

كلهم ثوار يبدو أنني أنا الوحيد الخائن بين كل تلك الجموع.

هكـذا يـردد بينـه وبـين نفسـه، ترتفـع عقيرتـه بالهتـاف ولكـن يمـوج داخلـه بأسـئلة متتابعـة.

مـع مـن هـو؟ يحـشر نفسـه في الحشـود الثائـرة، يتأمـل سـيارات الشرطـة المحترقـة ومبـنى الحـزب الوطـني وآثـار الدمـار الباديـة وبقايـا الهبـاب الأسـود الـذي يظهـر جليًّـا في نوافـذه المطلـة عـلى الميـدان.

رزاز مـن مطـر خفيـف كان لـه مفعـول السـحر، هـدأت أفـكاره المشوشـة، تغـير الوضـع، أعلنـوا عـن هجـوم عـن طريـق الـدق عـلى أعمـدة الإنـارة، اسـتخدموها بـدلًا مـن أبـواق الحـروب، طلقـات تـأتي مـن فـوق البنايـات، أو مـن بينهـا، لكـن الإصابـة مبـاشرة ممـا يدلـل أن مطلقيهـا قناصـة محترفـون، كثـير مـن الإصابـات قاتلـة،

أصبح الميدان ساحة حرب حقيقية، دماء وصرخات واستغاثات، علق مصري حقيبته في رقبته كالمعتاد حتى لا تعوق حركته، أسرع يساعد ويشارك ويلعن، أكثر من مستشفى ميداني تمت إقامته في مختلف أنحاء الميدان، ينقلون المصابين إليها تِبَاعًا ولا انتظار، فُتِح طريق لسيارات الإسعاف لتنقل الجرحى أو القتلى للمستشفيات بأوامر من القوات المسلحة؛ ولأن الأعداد صارت كبيرة.

في المساء أعداد كبيرة من محافظات مختلفة بدأت في التوافد والمشاركة، أقيمت سرادقات بكل ما هو متاح، القادمون يدفعهم الشوق للمساندة والمساعدة رغبة في زلزلة النظام القائم، جماعات متعددة، لم يفكر مصري في الاستقرار في مكان واحد، يطير من مكان لآخر، يشارك في كل الفعاليات، لكن أصابه ملل وفتور ويحاول أن يكسره بمزيد من الهتاف، يشعر أن هذه الثورة قائمة لأجل رفع الظلم عنه هو بالذات، يتمنى لها النجاح ولكل من ذلُّوه واهدروا إنسانيته الموتَ، يخاف أن تخفت حدة الثورة، يخاف أن تصبح النيران المتقدة رمادًا وتعصف به ريح فتنثره، يجابه مخاوفه الدفينة بصوت عالٍ، يبعث في نفسه الدفء الثوري ويبعده عن دائرة التردي في الفكر.

في المساء انتظر الجميع كلمة الرئيس، كل التوقعات والاحتمالات أشارت لتنازله عن السلطة والرحيل عنها، أقاويل تسري وحكايات تتردد ليس لها أي أساس من الصحة، ليس أمامهم سوى الانتظار، حسابات مصري تختلف تمامًا، ماذا سيحدث؟ هل يعود كل شيء لحالته؟ أيعود ثانية للسجن؟ أم يظل هاربًا؟ يتمنى للحظة أن تشتعل النيران أكثر في كل أرجاء البلد، يستغفر

الله ويسحب دعواته المشبعة بالحقد والكراهية، هناك كثيرون لا يستحقون سوى الدعاء لهم والإشادة بهم، دعواته أن يرفع الله الكرب عن الجميع.

وتأتي كلمات الرئيس مخيبة للآمال، فلا يتنازل عن السلطة، بل يطلق دعوة متوسلة تموج بدعوى إنسانية بأن كل آماله أن يعيش وأن يدفن في تراب مصر، كلمة قالها وأطلقها بصورة غريبة فتسللت لقلوب الكثيرين، ترقرقت الدموع في العيون والجميع حاول مداراتها، خبت الابتسامة ووهن الهتاف والصمت خيَّم على الجميع، أمام ذكر الموت الجميع يستحيي، مصري بكل ما ذاقه من مرار وحرمان شعر بأن الرجل من حقه أن يدفن في موطنه، من يحرمه من هذا الحق جبان ولا يمت للإنسانية بصلة، هذا وفق رؤيته، بعد وقت ليس بالطويل تعالت الهتافات برحيله، تفنن الرسامون برسم صور متعددة وتبارى الشعراء في كلمات هذا وذاك كلها دعوات بالرحيل، تخوف الجمع مما اعترى الوجوه بعد الخطاب فأشعلوا نيران سخطهم، ليلة طالت واختلافات وجدال بين الجموع.

في الصباح التالي، الثلاثاء اليوم الأول من شهر فبراير ٢٠١١ م.

هناك تغيرات حدثت لكن بلا إفصاح عما يداخل الصدور، لقد استرخت عزائمٌ وتخوف كثيرون، ظهرت على الجانب الآخر وخارج الميدان عناصر رفعت صور الرئيس مطالبة ببقائه ولافتاتهم تقول «نعم لمبارك»، مشاجرات وتراشق بالطوب والحجارة وتكاثرت المنشورات الداعية للرحيل في قلب الميدان، وحدث ما لم يكن في الحسبان، قافلة من الخيل والجمال ومن يقودنها يرفعون السيوف والسنج ويهتفون لمبارك، استعدادًا

لمعركـة فدقـوا فـوق أعمـدة الإنـارة وطالبـت الإذاعـات الداخليـة بغلـق المداخـل للميـدان ومنـع تسـلل المؤيديـن، طالبـوا بمزيـد مـن اليقظـة والحـرص، كانـت القافلـة المهاجمـة قـد دخلـت الميـدان، أثـارت الذعـر والخـوف بـين جمهـور الميـدان، يضربـون بطـون الخيـل فتسرع ويلوحـون بسـيوفهم وسـنجهم بصورة تلقي الخوف في قلـوب المتجمهريـن، أسرع مـصري في اتجـاه المهاجمـين عكـس اتجـاه سير الفاريـن، حقيبتـه معلقـة في رقبتـه، حـاول أن يكـون بينـه والمهاجمـين سـاترًا، لا وجـود لأي سـاتر، تقمصتـه حالـة غريبـة لـم يفكـر فيهـا كثيرًا ولكـن شـجاعة غـير عاديـة نـادرًا مـا تسـيطر عليـه، فتـاة حـاسرة الشـعر، صرخاتهـا أثارتـه، فسـحبت نظـره إليهـا، تجـري لاهثـة بـكل قوتهـا وخلفهـا أحـد المطارديـن بسـيفه الـذي يلـوح بـه وراءهـا مبـاشرة، صرخاتهـا تطالـب بالنجـدة السريعـة، لـم يـدر مـصري بنفسـه، لا إراديًّـا أسرع في اتجـاه الفـرس قاطعًـا الطريـق مـا بـين الفـرس والفتـاة، قفـزة غـير منتظـرة وغـير محسـوبة عواقبهـا ناجحـة بـكل المقاييـس، ألقـت بالفـارس إلى الأرض الـذي بـدوره سـحب عنـان جـواده بقـوة فوقـع الفـرس بـدوره عـلى جانبـه، هـم الفـرس بالنهـوض ولكـن يـدي مـصري تعلقـت بقـوة برقبـة المطـارد فلـم يسـتطع حفـظ توازنـه مـع قيـام الفـرس، فوقعَـا كلاهمـا عـلى الأرض وأسرع المحتجـون يـؤازرون البطـل الـذي أنقـذ الفتـاة، حالـوا بـين مـصري والغريـب، لكنهـم لـم يتركـوا المهاجـم لحـال سـبيله، أوسـعوه ضربًـا وركلًا وتعالـت صرخاتـه واسـتسـلم لهـم، سـاقوه أسـيرًا إلى مقـر القيـادة.

الفتـاة تقـف مشـدوهة بـين الجمـوع وهـي تضـع يديهـا فـوق وجههـا، تتـسرب الدمـوع مـن بـين أصابعهـا، تنظـر إليـه وتتقابـل

عيونهمـا، يتأكـد بأنهـا بخـير، ينتصـب مـصري واقفًـا عـلى قدميـه، هنـاك آثـار دمـاء عـلى ذراعـه الأيـسر، يمزقـون كـم قميصـه مـن الكتـف، يحمـدون الله أن الجـرح سـطحيٌّ.

انطلقـت الأغـاني وتعالـت الهتافـات بإعـلان النـصر عـلى جيـوش الغـزاة.

لماذا لزم الجيش الصمت؟

أخذ موقفًا محايدًا فلم يمنع المهاجمين؟

أسئلة تتردد كانت إجابتها:

مـاذا نفعـل؟ مظاهرتـان إحداهمـا مؤيـدة وأخـرى معارضـة، فريقـان متصارعـان ونحـن جيـش مـصر كلهـا، ففـي أي جانـب نقـف؟

يـوم مثـير بأحداثـه المتلاحقـة، في نهايـة اليـوم، امتطـى أحدهـم جـوادًا مـن تلـك الـتي تـم أسرهـا مـن المهاجمـين، في زهـو بالـغ وبلحيتـه الكثـة وكأنـه قـادم مـن زمـان مـضى، يرفـع في يـده سـيفًا ويـصرخ قائـلًا:

«من يبايعني على الموت»

لحظـات وتجمـع حولـه كثـيرون، يهتفـون ويكـبرون، شيء لا يـدري كنهـه يشـعر بضيـق في صـدره، راكـب الجـواد مـن أحـد اثنـين تحدثـا واسـتمع لحوارهمـا وكل منهمـا يناهـض الآخر.

المعـارك في المسـاء اشـتعلت، مـن فـوق البنايـات، عنـاصر تـضرب بـكل مـا يقـع تحـت أيديهـم، اسـتخدم الفريقـان حـتى قنابـل المولوتـوف المصنعـة بأيديهـم.

***

أمـام إحـدى الخيـام توقـف، رآهـا، لا أثـر لمسـاحيق تجميـل فـوق وجههـا الـبريء الأبيـض المشـوب بالحمـرة، تمـشي بخطـى رياضيـة كلهـا ثقـة، قامتهـا الطويلـة وبشرتهـا الناعمـة وشـعرها الأسـود المسترسـل مـن تحـت غطـاء رأس خفيـف أحمـر اللـون، عندمـا اقتربـت منـه نظـر إليهـا جيـدًا، عيناهـا عسـليتان تومضـان ببريـق يتسـم بالحمـاس والنشـوة والشـباب.

لم يشعر إلا وهي تكاد تأخذه بين ذراعيها صارخةً:

- أنت أنقذت حياتي.

- العفو يا...

- أنا زيز.

- ست زيزي.

بلغة كلها طرب ومرح:

- إيه ست دي! بقولك أنا زينب والدلع زيزي.

-٥-

سحبته من يده فاستجاب؛ في خيمتهم، لا فرق بين فتىً وفتاة، يجلسون في وداعة وغالبًا في مرح.

على باب الخيمة صاحت قائلة:

- ها هو منقذي اليوم.

يصفقون ويرحبون ويطلقون صفارات من أفواههم تعبيرًا عن إعجابهم، يهم أكثر من واحد وواحدة بالسلام عليه والشد على يديه.

ذو الوجه الأحمر المزين بنمش وشعره البني وعيناه الضيقتان، يقف في صدارة المشهد وهو يردد:

- من تلك اللحظة أنتِ عبدة له، أقصد جارية له.

بدت أمارات الدهشة على وجهها وانتظر الجميع فعاد قائلًا:

- وفق قانون الفروسية وقانون النبلاء، من ينقذ حياة إنسان فهو مدين له بحياته إلى أن يطلق سراحه وفق رغبته. في حركة تمثيلية أثارت انتباههم، ركعت أمام مصري:

- وهبتك نفسي سيدي الفارس النبيل.

مصري مشدوهًا، أصابه الخرس وهو لا يدري ماذا يقول، هم غارقون في الضحك والتعليقات المتتالية، تداخلت أحاديثهم فلم يسمع ماذا يدور، لم يهتم وإنما غرق بعينيه في النظر

إلى تلك الجاثية أسفل قدميه متأملًا جمالها الأخاذ، امتدت يده إليها، فتعلقت أناملها وسحبها حتى وقفت بجواره.

دفعته وسحبته أن يتجاورا في مجلسهما في أحد الجوانب وما زالت أيديهما متشابكتان، شبه مسحور بالموقف، وقف صاحب الصوت الأجش.

- لنشعل نارًا ابتهاجًا.

في سؤال مطروح من واحدة من الفتيات:

- أليست وثنية؟

يعود صاحب الصوت الأجش مفصحًا قائلًا:

- يا سيدتي النار تدفئ وتضيء وتعالج أمراضًا، عبدَها بعضٌ من البشر، وهي أحد عناصر الطبيعة الأربعة كما وصفها أرسطو، فالنار مقدسة في الهندوسية، والنار كانت بردًا وسلامًا على سيدنا إبراهيم عليه السلام (أبو الأنبياء)، في الكنيسة وفي المذبح تحديدًا نشعل الشموع وندعو الرب، في اليهودية كانت الأعمال المحرمة تسعة وثلاثين نوعًا في يوم السبت، كان أهمها لا توقدوا نارًا في بيوتكم يوم السبت.

صوت صادر لم يدرِ المتحدث من أين جاء قائلًا:

- ظلام في ظلام يوم السبت.

همهمات وأحاديث متباينة، يطالبهم بالهدوء مستطردًا:

- فسيدة البيت عليها إشعال شموع السبت، تُسمى نور السبت أو أضواء السبت، إن كلمة سبت معناها الراحة أيها الجهلاء، افهموا وعوا؛ نسمع في كثير من بلداننا حتى الآن كلمة سبت النور.

يقاطعه أحدهم طالبًا الكلمة فيتنحى ويترك له المجال فيقول بدوره:

- هناك تداخل في المعلومات، ربما تعلمون أو تسمعون كلمة «كيريالايسون» هي كلمة يونانية معناها «يا رب ارحم»، نرددها غالبًا يوم السبت المقدس وهو اليوم السابق لعيد الفصح، ففي كنيسة القيامة وبعد الطواف ثلاث مرات حولها، مع ترديد أناشيد بعينها، يقوم كبير القساوسة أو الأساقفة الأرثوذكس بخلع ملابسه كلها والدخول بمفرده إلى قبر السيد المسيح ويردد الواقفون بالخارج «كيريالايسون» وتأتي المعجزة فتخرج النار من الحجر وعادة تكون في البداية بلون أزرق ثم تتعدد ألوانها، يستطيع الواقفون بالخارج أن يروا تلك المعجزة بوضوح تام، يشعلون منها النيران وتلك النيران مقدسة لا تحرق ولا تؤذي.

صاحب الملابس الغريبة والقبعة الحمراء المزينة بنجمة وعلى جانب صدره الأيمن صورة جيفارا، يطلق ضراطًا طويلًا من فمه، يثير الضحك والاستهجان في وقت واحد، المتحدث عن النيران المقدسة يبدو على وجهه التذمر والضيق مما فعله صاحبه، فيهم بالحديث فيقاطعه صاحب القبعة ويطبع قبلة صدغه.

- إننا في معية الثورة، والثورة تهدف للتغيير فاسمحوا لي.

يتحرك من مكانه وهو يصف بسخرية:

إنها طلقات، فطلقات المدفعية والأسلحة للزائر الكبير هي تعبير عن الفرح والبهجة بقدوم الزائر الكريم، فمدفع رمضان بهجة وفرح للإفطار، وطلقات تقتل إنسان يطلقها إنسان، وهناك طلقات ولادة، ألَا تسمعون كلمة:

«جاءها الطلق»

تنهيدة عميقة ويواصل،

طلقات تقتل وطلقات تحبب وتُفرح، وأخيرًا طلقات من ضراط من إنسان مثلي نتاج بطن منتفخة تعقبها ريح نتنة أجاركم الله.

يسدون أنوفهم ويصبون لعناتهم وضحكاته فيقول:

ليس الآن يا سادة، الجهل عنوان حياتنا، هل نعدُّ القتلى بالجهل شهداءً يا سادة؟

جرم نرتكبه إن أطلقنا عليهم هذا المسمى.

هل تعلمون أن القتلى بالجهل أضعاف أضعاف شهداء الواجب والشرف؟

على الجانب الآخر يضحكون عليه، ويقولون لهم عليكم أن تعيشوا في بؤسكم ويوم تموتون ستظفرون بالجنة ونعيمها وبالحور العين أيضًا.

يصمت ويعود رافعًا يديه صارخًا: انتظروا الموت والجنة.

يتأمل مصري كل وجوههم وتدور أحاديثهم في مخيلته، لا يستطيع أن يرفضها، إنها تلامس واقعًا جاهلًا يعيشه ويعرفه.

يزيح الأسمر النحيف المتحدث ويحل محله ويردد في أسًى، وفي مشهد مسرحي:

- وتصبح القضية ذاتٌ والنهاية أنا، والمطلوب لي في حلمي أراها، كنت أظن أن الحلم لا يشاركني فيه أحد.

يضرب كفًّا بكف وفي سخرية يستكمل:

كان حلمي يذاع على كل القنوات الفضائية، صار مشاعًا

للجميـع، حـتى حلقـات التواصـل الاجتماعـي، فلـم يرحمـني الكبـير ولا الصغـير.

رغـم شـعرها النـاري الـذي يشـوي جسـدي ويرهـق منامـي وصحـوي، كنـت أظنـه شـعرًا مسـتعارًا، ابتسـمت ومنهـا اقتربـت، هممت أن أخلعـه عنهـا، صرخـت وصفعتـني صفعـةً أدارت لي عقـلي وردتـني لصـوابي.

غـبي وليـس هـذا بالجديـد عـليَّ، عيشـوا حلمكـم مهمـا كانـت الصفعـات، محبوبـتي تشـعر بالقـرف مـن مجـرد أن ألمـس يدهـا، تتأفـف، يبصـق جانبًـا ويواصـل، حبيبـتي تهـب نفسـها كل ليلـة لأي رجـل يدفـع لهـا مزيـدًا مـن العمـلات وخاصـة الأجنبيـة.

صوت قادم لا يعرف من أين:

- عاهرة.

- اخرس، إنها من شرفاء هذا الزمان وأثريائه وفراعنته.

«متباكيًا»

تتسـمر عينـاي عـلى وجههـا، أركـع في محـراب المنكـر وأتوسـل فتمنحـني صفعـة ثانيـة، دومًـا أبـرر لنفـسي سـبب الصفعـات.

يقاطع أحدهم،

- حبيبك يبلع لك الزلط.

يصفقون، ينحني محيِّيًا.

مـصري جالـس بجوارهـا مبهـورًا مشـدودًا، نظراتـه تنتقـل بينهـم ومـا زالـت يـده قابضـة عـلى أنامـل زيـزي جاريتـه كمـا قالـت، تسـحب يدهـا وتتوسـطهم:

- علينا أن نغني.

تسرع فتاة أخرى تناظرها جمالًا وفتنة وتقول:

- هل أغاريد الطيور نواح أم أفراح أو أحزان؟ لنترجمها وفق رؤيانا، لتكن سعادةً أو حزنًا؛ ولكن بحرية، جميعنا يبغي الحرية.

زيزي تقول:

- لنغني معًا.

يسبحون مرددين كلمات أغنية محفوظة، يغنون يدندنون أغنية جماعية تسمو بقيمة الإنسان وقيمة الحرية. توقفهم السمراء بإشارة قائلة:

- يكره الأغبياء البلهاء غناء الحرية، تكره السلطة شدو البلابل بالحياة وبالحرية،

تسرع زيزي بالرد:

-الأحبال الصوتية للمغني مقصلة أو مشنقة للطغاة، الغناء حرية، صوت الغناء دعوة تقتل الصمت والخوف.

ينقر بأنامله على نافذة الذكريات المغلقة بإحكام، يسبل جفنيه، بتردد بالغ وفي صمت يسمع دقات قلبه ترقص مع أحاديثهم طلبًا للحرية والحياة.

عندما جلست بجواره وقد التصقت به، حاول أن يبتعد، نظرت إليه وابتسمت.

- أنسيت؟

- ماذا؟

- أنا جاريتك أو ملك يمينك.

- أستغفر الله العظيم سيدتي.

كادت تضحــك، نظــرت إليــه، واكتفــت بابتســامة اخترقــت قلبــه، حــاد بعينيــه بعيدًا،مــن علبــة ســجائرها أشــعلت ســيجارتين ومــدت يدهــا بإحداهــا إليــه.

- شكرًا ... تدخنين!!!

اكتفت بهز رأسها وابتسمت.

حــوارات تفيــض بأســئلة عاشــقة للحيــاة والحريــة، يتفاعــل ولكــن لا يتجاســر، يشــعر بأنهــم ينتمــون لدنيــا غيــر دنيــاه، يتحــدث أحدهــم:

- لا تشــعل كل شــموعك في عشــق محبوبتــك دفعــة واحــدة، تريــث، أشــعل شــمعة تلــو أخــرى، توقــف وأعــد الكــرة مــن جديــد.

يسأله أحدهم:

- أيهــا تفضل؛حبًّــا عــبر رســائل العشــاق بالبريــد، أم عــبر الهاتــف والمحمــول، أم فــوق شاشــة الحاســوب؟

يضحك وهو يقول:

- أنا أفضل لقاء عيون، واهتزاز شفاه ورعشة أنامل.

يهللــون ويصفقــون وزيــزي تشــبك أناملهــا بأنامــل مــصري، وتنظــر إليــه في نظــرة يرتجــف لهــا كيانــه.

تقــول الجميلــة صاحبــة العينــين الخضراويــن - بعــد أن تدفــع نظارتهــا للداخــل:

لــكل زمــان ولــكل عــصر معتَقَــدٌ وإيمــان وكفــرةٌ بــه وســحرةٌ وكهنــةٌ وعبــدةٌ شــياطين، لــم يجتمــع الســحرة عــلى معتقــد واحــد، لــم يؤمــن البــشر بديــن واحــد؛ المحفــل الماســوني يلعــب بأفــكار غريبــة،

يتسلل وينخرط تحت عباءته فنانون وأدباء ومفكرون وعلماء وفلاسفة يجيدون صياغة أفكارهم، اختطوا طريقًا خاصًّا بهم، لعبوا بفكرة الإنسان الكوزموبوليتاني، وفكرة التسامح الذي اختلف عن التسامح الليبرالى ذي الأهداف المستقبلية. إنهم يبحثون ويصوغون ويقربون بين كل المعتقدات والأديان، في قرارة نفوسهم محاولة إسقاط كل الأديان والمعتقدات تحت مسمى الإنسانية، أن يحيى الإنسان، أن لا يتقاتل البشر، أن تظلل الجميع فكرة واحدة.

بعد أن ارتشفت من زجاجة المياه المعدنية رشفة صغيرة تواصل، لنبحث معًا في بعض الأفكار والأطروحات الماسونية. على نفس الدرجة نضع منظومةً أخرى من خلال الأفكار القديمة وما قبل الأديان؛ الفرعونيات على سبيل المثال هل توحدت؟ هل آمنوا بفكرة واحدة وهل عاشوا في سلام ولم يتقاتلوا؟ هل اجتمعت اليونان بحضارتها على فكرة واحدة؟ هل توحدت الآلهة فكرًا أم رمزًا؟ هل اقتربوا من فكرة واحدة؟ اجتمعوا أم تقاتلوا؟ لا بابلية أو آشورية، في عصور الأديان تقاتل اليهود وانقسموا، بل إنهم قتلوا الأنبياء حتى بعد أن آمنوا بهم، رفضوا عواطفهم وتمسكوا بالرؤية العقلية فحسب، لم يفلح السحر حتى في توحدهم؛ ثم أتت المسيحية التي انقسمت منذ البداية وتفسخت. فلماذا يترك الله ابنه ليعذب؟ وكيف يوجد الشيطان بالقرب من الابن المقدس حتى في لحظة الصلب؟ هل يستطيع أن يغرر به؟ هل يستطيع إسقاطه من فوق الصليب؟ هل يستطيع أن يعمي العيون من حوله؟ هل ... هل ... مئات بل آلاف الأسئلة يطرحها العقل الإنساني المفكر، وفي العصر

الحديـث وكيـف كان ظهـور البروسـتانت؟ ومـتى وكيـف ناهضـت الكنيسـة يومهـا التجديـد؟ تشريعـات كنسـية تصـل لدرجـة تكفـير بعضهـا بعضًـا بصـورة كانـت دمويـة في كثـير مـن الأحيـان.

تواصل بعـد أن تلقـي في فيهـا الـذي جـف بقليـل مـن المـاء؛ كانـت آخـر الرسـالات رسـالة الإسـلام، كانـت دعوتـه موجهـة لـكل البـشر، موجهـة بـأن يلتئـم الجـرح الإنسـاني ويتوحـد الجميـع تحـت مسمًّى واحـد وإلـه واحـد، وللأسـف لا يختلط سـائل العقـل الإنسـاني ببعضه جيـدًا، مزيـج مـن زيـت ومـاء، خليـط بـلا مـزج حقيقـي. واختلفـوا أيضًـا حـول الإسـلام وتشـعبت الطـرق وتقاتـل الصحابـة أيضًـا ولـم يتبـقَّ إلا الحـروب والقتـال، الحقيقـة الـتي يجـب أن نعيهـا جيـدًا؛ أن الاختـلاف حقيقـة الكـون ومـراد رب الكـون. هـل يسـتطيع الإنسـان تحمـل الاختلافـات؟ حكمـة المـولى سـبحانه وأطلـق الله إبليـس.

أحاديـث تتفـرع وتتشـتت معهـا رؤى البسطاء،أشـياء كثـيرة لا يعيهـا مصري جيـدًا؛

لكـن هـو مجـبر أن يسـمع أو يتصنـع الإنصـات، تتبـادل الأماكـن ويتـولى الحديـث آخـر، النحيـف الملتحـي الـذي تتـدلى مـن عنقـه قلائـد شـبه فرعونيـة، تلتـف حـول رسـغيه أكـثر مـن سـبحة بألـوان مختلفـة، لهجتـه مـا بـين العربيـة والأجنبيـة، يحـاول أن يكـون هادئًـا حـتى يسـتطيع أن يصـل برؤيتـه لمسـتمعيه فيقـول:

الثورة حق للجميع...

يصمـت وينتظـر أن يقاطعـه أحـد يسـتطرد، العـدل مطلـب إنسـاني، كلنـا شركاء في الوطـن، إذن فلنعـش الحيـاة بـلا دعـاوى للتوحـد تحـت الرايـة الواحـدة، لنؤمـن، لا يُكفِّـر أيٌّ منـا الآخـر، لينطلـق كل منـا يتعبـد في محرابـه في خلوتـه، حـتى مقيـم طقـوس

العشق الشيطاني هو حر فيما يبغي، أقام طقوسه في المحاريب المهجورة في القلاع القديمة التي تسكنها الخفافيش، له الحق أن يطلق بخوره ولكن تحت شرط أن لا يزكم أنوف الآخرين بأبخرته وعطرها النفاذ، ربما يشعر هو أنها ذكية! هو حر.

ويطرح سؤالًا:

أليس هذا هو الصواب؟

لا تأتيه إجابة وفي الصمت دعوة للمزيد؛ الله موجود؛ هكذا يقول أحدنا أو مجموعة منا، تكمن عظمته الأسمى في قدرته على خلق هذا الكم من الاختلافات والتميز، البشر يتناحرون وهو وهبهم العقل، آخرون يتاجرون في حياة البشر ومقدراتهم، وكثير عاشقون وكارهون ومؤمنون، لا تستل سلاحك لتقتل فكر الآخر؛ انطلقوا جميعًا.

علينا أن نستوعب ما يحدث، لنعش وفق منظومة الخالق؛ إن كنا مؤمنين بوجود الخالق، علينا أن نؤمن بأن كل الخلق خلقه، هناك آخرة وحساب، آآمنتم؟!

هناك مظلوم وظالم، مؤمن وكافر، وكل الألوان تنبثق من لون واحد هو الأصل لكل الألوان، والألوان مذاهب وكل عاشق للونه وفكره ويموت في سبيله والأصل واحد، علينا أن نسعى للحرية والحياة.

تتقاذف مصري الكلمات والعبارات والأفكار، لا يستوعب منها الكثير، فلا يهتم، يكفيه ما ناله في تلك الدنيا، هو العاشق للحياة، هو الإنسان الأقل؛ كل مبتغاه في الدنيا أن ينام تحت ظل شجرة، أن ينعم بحرية الحلم والواقع، أن يشارك الناس

مطعمهم ومشربهم ولو بكسرة عيش جافة، لم تستهوِهِ الحياة الرغدة ولا الحياة الباذخة بمغرياتها ومباهجها، وهو بطبيعته لم يعشها. طوفان من الأحاديث الثورية الملتهبة، يتبادلها ثوار الدعوة للتحرير، فلا مسار واحد ولا فكر يسير الجميع تحت لوائه، يقول أحدهم:

- كيف يأكل القط صغاره؟

ويكمل بعد صمت لا يطول، تأكل الثورة أولادها كما القطة، علينا أن نفكر، فالأسماك يوم لعنت البحر وأعلنت العصيان عليه وتعالى صوتها، غار البحر وجف ماؤه فماذا حدث للأسماك؟

تدور رحى الكلمات في رأس مصري ولهيب جسده ما زال قائمًا، يتأمل الثوريين بمختلف مذاهبهم وألوانهم ودرجاتهم، ينظر حوله ويتأمل كل الأشياء يحاول أن لا يغفل شيئًا في مجال رؤيته؛ هو أكثر هؤلاء حاجة للثورة، ليثور، ليقتل، ليشعل النيران؛ لينتقم فالفرصة ها هي مواتية، يحدث نفسه:

«أتمنى أن تظل النيران متوهجة، وماذا بعد أن تخمد النيران والجمرات؟ رماد في النهاية! لن تستمر النيران كثيرًا؛ كفيل بالمطر أن ينهيها، تدوس الأقدام الرماد وفي النهاية تنثره أي ريح قادمة وفي أي اتجاه».

ما زال الخوف نائمًا داخلي، أخاف أن أفكر في الانتقام، يسأل مجاوره:

- ضقتُ بالدنيا، أتمنى أن أقتل نفسي؟

- لماذا؟

- لا أستطيع أن أقتل من عذبني.

- لا تستسلم، حقك وعليك أن تأخذه ولو عنوة.

- لم أقتل يومًا، أنا جبان!

- أعـرف أن تجلـد نفسـك، تعذبهـا تمزقهـا، تحـرق أجـزاء جسـدك لتـصرخ لتجـرب الألـم، بعـض البـشر اعتـبر هـذا الفعـل وسـيلة للنـدم؛ ديانـات اعتبرتهـا ضريبـة للإيمـان، أمـا في حالتـك، أن يصبـح القاتـل والمقتـول واحــدًا فهــذا مرفــوض، هــل يــداوي الإنســان أخطـاءه بقتـل نفسـه؟ يخـاف أن يزهـق روح إنسـان آخـر فيزهـق روحـه هـو، إنـه إنسـان غريـب وهـروب لا يقـره عقـل ولا منطـق.

-٦-

هل تغيرت معالم الحياة من حوله؟

في الظاهـر أفعـال معتـادة تختفـي فـلا تبـدو آثـار عنـف أو بطـش، لغـة سـائدة في الميـدان فيهـا بسـاطة وتسـامح ورقي، في جـوف الأحـداث تـدور أحـداث أخـرى، فالهتافـات كانـت ومـا زالـت تهـز معاقـل الأمـن وتلقـي الرعـب في قلـوب القائمـين عـلى شـئون البـلاد، أصبحـت أيديهـم مصابـة بالرعشـة وضرباتهـم حانيـة خفيفـة وقياداتهـم تلـوذ بالفـرار ولا تبـدي رأيًـا؛ إنهـم يضربـون كمـا اعتـادوا ولكـن الخـوف يتملكهـم مـن الملايـين الـتي تـزأر، شـجاعة الموقـف الباديـة رائعـة، في صـدر مـصري خـوف أن تتبـدل الأحـوال ويطـول انقسـام ثـوار الميـدان، لقـد سـمع بأذنيـه حـوارات متبادلـة تعكـس انقـلاب الثـوار عـلى بعضهـم، جلسـته ووجـوده بـين هـؤلاء الشـباب وأثنـاء حوارهـم المتعـدد الـرؤى أعـاد إليـه الثقـة مـن جديـد، حـاول أن ينـسى ويغـض الطـرف عمـا سـمعه ورآه، رغـم معالـم الـثراء الباديـة عـلى ملابسـهم وأحاديثهـم إلا أنهـم يشـعرون بمشـاعر غالبيـة الشـعب.

في جولتـه وقبـل أن تسـحبه زيـزي لداخـل خيمتهـم، أثـار اسـتيائه أنـه رأى إحداهـن ترتـدي النقـاب، تطلعـت إليـه بعينـين تفيضـان برغبـة لـم يـدرك مغزاهـا وغمـزت لـه بعينيهـا، لـم يسـتطع فـك شـفرة الإشـارة، تلـك العيـون رآهـا سـابقًا... أيـن؟ تلتفـت للخلـف

بعـد أن مضت مـن أمامـه وهـو واقـف مصلـوب جامـد في مكانـه كتمثـال، يؤكـد لنفسـه أنهـا عيـون أم وردة جـارة حامـد في السـطوح وصاحبـة الـنزوات المتعـددة معـه أيضًـا، ارتجـف جسـده لحظتهـا، اسـتطاع أن يتغلـب عـلى جمـوده وكـسر أغـلال سـكونه وكأنـه هـمَّ بالجـري مـن هـذا المـكان، يـصرخ داخلـه بـلا صـوت:

«لا مكان هنا لأمثالها»

لعنهـا، ولكـن عاودتـه صورتهـا في لحظـات الإثـم والرذيلـة وآهاتهـا الملعونـة الممزوجـة باللـذة، غـيَّر اتجاهـه وابتعـد، يصفهـا بأنهـا عـار أن تنضـم للثـوار في الميـدان، يصفهـا بأقـذع الصفـات ويرميهـا باللعنـات. عـاد يوبـخ نفسـه؛ هـل هـي الوحيـدة الـتي ترتكـب الجـرم والفاحشـة؟ ألـم يشـاركها هـو وأكـثر مـن مـرة صاحبـه وزوج أختـه القـادم! أليسـت إنسـانة! فتـح الله بـاب مغفرتـه ورحمتـه لـكل عبـاده. أيصمهـا بالنجاسـة، ومَـن مـن البـشر بـريء؟ أليسـت إنسـانة مظلومـة ومقهـورة في تلـك الدنيـا؟ أليـس مـن حقهـا أن تثـور؟ أم أن الثـورة مقصـورة عـلى بـشر مـن طينـة أخـرى! راح يعنـف نفسـه؛ نعـم الجميـع ينتقـدون ويسـخرون ويتكلمـون بمـلء أفواههـم ضـد مذليهـم وقاهريهـم. كل مـن حولـه يكـسرون حصـار الصمـت ويهدمـون أسـوار وحصـون الهزيمـة النائمـة داخلهـم؛ تخلصـوا مـن أغـلال الخـوف والرهبـة، فلمـاذا هـي الوحيـدة الـتي يسـتحي مـن وجودهـا بينهـم؟ دائمًـا يلتمـس الأعـذار والمـبررات لـكل مـن أسـاء إليـه، أغلـب النـاس الخـير داخلهـم، لا تنبـت كل البـذور الـتي يلقيهـا الإنسـان في باطـن الأرض رغـم أن التربـة واحـدة والـري بميـاه واحـدة. يوبـخ نفسـه ويلعنهـا، ظـن لوهلـة أنـه هـو الأحـق وأم وردة ليسـت مثـل سـائر البـشر مـن حولـه، نـسي نفسـه وميراثـه مـن

القهر، كان دومًا ينتظر الحكم وتنفيذه وهو رهين سجن ضخم بلا أسوار بدءًا من قريته الصغيرة لأكبر مدن الدنيا كثافةً وزحامًا وضوضاءً، كانت حياته بلا أمل، دوامة كان أسيرها طوال حياته، كان ينتظر الوصول لواحة الحرية، والحرية لأمثاله سراب خادع، ليل مشحون بالهموم وصباح حزين، يمضي في الحياة مجبرًا، يمشي فوق شوك أو فوق نيران متقدة. يترك جسمه لتيار الحياة فيتلاعب به كيفما يشاء، أسير بحر هائج ولا يمتلك زمام تغيير دفة حياته، يعاتب نفسه ويلتمس لأم وردة المعاذير؛ ربما قاست من الدنيا أضعاف معاناتي، تعوده بساطته المألوفة وحبه للناس، يشعر بالحب للحظة فيذوب في لذة لا تعادلها نشوة أخرى، مجرد لحظة فحسب، يعود إليه الصمت والسكون، يحاول النسيان، لا يوجد فرق كبير بين الصمت ورائحة الموت. يختلس النظرات لزينب أو زيزي، بجوارها يجلس، تتسم كلماتها بالرقة وفيض من حنان فيه دفء إنساني يفتقده، يسأل ربما ما مرَّ به تكفير عن فعل، هو مبتلى ويقولون إن البلاء والعذاب في الدنيا أهون بكثير من عذاب الآخرة.

- قلت لك اسمي فما اسمك؟

- مصري.

تضحك وهي تقول في همس جميل:

- اسم على مسمًى.

يكاد ينحني لها شاكرًا ، تنظر إليه فيحيد بنظره بعيدًا، مبتسمة وبكلمات تخترق كيانه هامسة خافتة:

- فك قيودك، أنت سجين لا إراديًّا.

- نعم.

- تحلل من سجنك هنا ساحة الحرية.

- أي نوع منها، قيود المخلوق أم الخالق؟

- كلاهما.

- المخلوق نستطيع الهروب منه، أما الخالق!

- يغفر الذنوب.

- مواثيق وقوانين الخالق التحلل منها كفر والعياذ بالله.

- باب الرحمة مفتوح.

- علينا أن نموت حتى نتمتع بمباهج الآخرة، ربما... تنهيدة عميقة تستشعرها زيزي وبعد صمت لا يطول وعقب زفراته الحزينة يستطرد قائلًا:

- الخوف أن لا يكون لنا نصيب في الجنة!

تتجمد ملامح وجهها، وتذهب ابتسامتها وتغلب على تضاريس وجهها الحدة والاضطراب وتلقي برأسها للخلف قائلة:

- في وضح الشمس ووحشية الإنسان نتحسس طريقنا في عصر ظلمته حالكة، نحاول الهروب من تلك المشاعر البليدة، علينا أن نفر من عذاب النفس ولا نجد الطمأنينة؛ مشاعرنا صارت جامدة ولا تأخذنا الدهشة رغم ما نراه من أهوال، أظنها نقمة من الله.

يشعر وكأن كلماتها يتردد صداها في تجاويف صدره، يعمهما الصمت، تتقابل عيونهما. في أسًى بالغ يردد كلماته في صوت خافت وعيناه تنظران بعيدًا:

-عليهم أن يتصدقوا علينا بالشفقة، وللشفقة حساب يُدفع،

نتسول منهم الحياة، نبحث عن ظل شجرة نستظل به في بلادنا، وكل الأشجار تحذرنا وتخافنا ونبقى في الشمس تكوينا بلهيبها، علينا أن نبحث عن وطن يضم رفاتنا.

تنظر إليه وهو شاخص ببصره بعيدًا، تعجبها كلماته التلقائية الحزينة ولهجته التي تبدو غريبة؛ لهجة مصرية ريفية وتطرح سؤالها:

- من أنت؟

- مقتول.

- تمشي على قدمين!

- وكم من موتى أحياء.

- مظلوم.

- والظلم قد يزول مع شمس صباح قادم.

زفرات بائسة تتابعت وتابع سرده؛ يا سيدتي نحن موتى قبل موعد موتنا، شهادة الميلاد والموت لأمثالي لا فرق يذكر بينهما، إنها إرادة المولى سبحانه، طالب ولاة أمورنا حقهم في الطاعة وفق العرف الديني، والله طالبنا بطاعته وعدم الخروج عليهم، علينا أن نعبد الله ونسير على درب رسوله الكريم، وولاة أمورنا نسوا الله؛ طالبوا أن نعبدهم وأن نقيم طقوس القمع لأنفسنا بأيدينا، قانون صاغوه وفق الأهواء، وأول تشريعاتهم أن تأكل لحم أخيك وهو على قيد الحياة، على شفاهنا أن تبتسم وأن نصفق لآرائهم الرائعة، نعلن الرضا، قلوبنا تلعن وتنتظر الخلاص، غصبًا عنا نذهب إليهم ونستمع لأفكارهم ونوافق بلا تعقيب، نرفع علامات الموافقة بأيدينا أو بأفواهنا؛ يستعرضون

كيـف يرسـمون ملامـح غدنـا، القـادم أفضـل ومـا علينـا سـوى أن نسـبح بالحمـد والشـكر لهـم، كبـير بلدنـا يجلـس خلـف طاولـة كبـيرة عليهـا غطـاء أخـضر، فوقهـا مسدسـه العامـر بالطلقـات وبجـواره رزم مـن أوراق نقديـة، يمنـح أو يقتـل، لـه مطلـق الحريـة لا يجـرؤ أحـد عـلى سـؤاله.

- هل هناك أمل؟

ينظـر إلى عينيهـا الجميلتـين الـتي تـأسره ببريقهـا، بصوتهـا المتسـلل لحنايـا قلبـه، يلجـم لسـانه عـن الحديـث؛ ليـترك لهـا السـاحة لتتحـدث، نغمـات ملائكيـة عذبـة تطـرب القلـب، تخترقـه رغـم مـا ينـوء بـه مـن همـوم، تبتسـم فيشـع وجههـا ضيـاءً، يـرى أن مصابيـح السـماء تنطلـق مـن بؤبـؤ عينيهـا.

تسـأله مـن جديـد عـن الأمـل؛ يصمـت ولا يجيـب، هـي الأمـل، أمـل بعيـد المنـال، الزهـور وهـي تضـم أوراقهـا أثنـاء الليـل؛ هـل مـن خـوف ورعـب أم تنتظـر أمـل الـشروق؟ عندمـا تسـطع شـمس الصبـاح بنـور ربهـا وتغـرد العصافـير والطيـور وتنتـشي الحيـاة وتتفتـح الزهـور وتفـرش أوراقهـا وتبهـج النفـس وتطـرح البهجـة والجمـال في الربـوع يكـون الأمـل، أيـن هـو منهـا؟ لسـت قويًّـا فأجابـه ولسـت ممـن يخوضـون المخاطـر، هـل نسـيت؛ أنـا في ذيـل قائمـة البـشر ومـا زلـت.

تسأله عن الأمل:

- متى تبدو بوادر الأمل؟ يوم تحقق طموحك...

يضحك بصوت خافت وتهتز رأسه طربًا ممزوج بسخرية.

- يـوم يعتـذر الظلـم ويقبـل رأس العـدل ويعتـذر، سـأرقص

ويبـدو الأمـل في الأفـق.

- لا أعتقـد، الظالـم تدفعـه القـوة للمزيـد مـن الظلـم فكيـف يعتـذر؟

- وأنا لن أقبل سوى الاعتذار، وإن لم يعتذر!

- ماذا ستفعل؟

- سأنتظر الموت.

- ليس من الحكمة.

- نعم الحكمة ضالة المؤمن وأنا بعيد كل البعد عن الإيمان.

يصمتـان، يتـوه بـين حكاياتهـم، في خيمتهـم يتكلمـون في كل شيء وعـن أي شيء، لا يشـعرون بـأي حـرج، تمـضي إحداهـن مـن وسـطهم، مـن يرتـدي قبعـة جيفـارا ينظـر بولـه ظاهـر لمؤخرتهـا، يعنفـه أحدهـم فيقـول:

«إن مؤخرتها أفضل من مقدمة ابن خلدون».

يضجـون في الضحـك، يضحـك مـصري وزيـزي، بعـد الضحـك تسـأل زيـزي صاحـب القبعـة:

- سـأكون ممتنـة جـدًا لـو شرحـت مـا تفيـض بـه مقدمـة ابـن خلـدون؛ وكأنـه يسـخر مـن نفسـه ومعتـذرًا.

- أنا لا أحد يأخذ عليَّ.

- مجنون.

- زيـزي الرائعـة، سـيدة منتدياتنـا، تعلمـين أني جاهـل أتخبـط وأنـثر أقـوالًا لا أدرك معانيهـا، الرحمـة، عليـك أن تتأمـلي.

ردد مـا قالـه ولكـن بصـورة شـبه هامسـة، نظـرت إليـه صاحبـة المؤخـرة الموصوفـة بأنهـا الأفضـل، بـكل جـراءة قالـت:

- ولو لن أعيرك اهتمامًا.

تتكلـم بصـورة طبيعيـة غريبـة، لا تشـعر بـأي حساسـية تجـاه كلماتـه، تضحـك وتـرد لـه الصـاع صاعـين وتثيرهـم جميعًـا كلماتهـا وردودها.

على مرأى ومسمع من الكل يقول أحدهم لزميلته:

- والنبي بوسه!

تنظر إليه نظرات نارية مستهجنة وترد:

- انت اتجنيت!

- أقسم بالله فهمتيني غلط.

- تقصد إيه؟

- تذكـرت ولـدًا صغـيرًا يراجـع دروسـه مـع أمـه، سـألته عـن أسـماء الأنبيـاء، فقـال الفتـى: محمـد وعيـسى والنـبي بوسـه، تغـير وجـه الأم وهمـت أن تصفعـه عـلى وجهـه، فقالـت لـه: إن مـا تقولـه حـرام، أقسـم الفـتى لأمـه بأنـه سـمع أبـاه أكـثر مـن مـرة يقـول لجارتهـم والنـبي بوسـه؛ تتعـالى ضحكاتهـم وصاحبهـم يـردد:

- مظلوم يا خلق.

يطلبـون منـه مزيـدًا مـن التفاصيـل والوقائـع والمعـارك الـتي أعقبـت ذلـك، ينظـر لصاحبتـه المبتسـمة؛

- والنبي بوسه.

- مصمم!

- أنـا صعبـان علـي الـواد، بعـد أبـوه وأمـه مـا اتطلقـوا انضـم لفريـق أولاد الشـوارع وبقـى مـن أعـز أصحـابي واسـم الشـهره «بوسـه».

-٧-

يتحدثـون في كل شيء ببسـاطة متناهيـة وجـرأة يحسـدهم عليهـا، ينطلقـون في آفـاق رحبـة، يتأملهـم وكأنهـم مـن كوكـب آخـر قادمـون يغـزون كوكـب الأرض، مسـاحة شاسـعة بـين عالمهـم وعالمـه النائـم في حـدود الغفلـة.

ينظـر المـصري لـكل فعـل ورد فعـل مفتونًـا، تتعقـب عينـاه أفعالهـم، أمـا زيـزي فقـد خلبـت عقلـه، يشـعر بأنهـا ذات وضـع خـاص بـين جماعتهـم، ليسـت فتـاةً عاديـةً؛ فأمرهـا يبـدو في يدهـا، بـل أمرهـم في كثـير مـن الأمـور مرجعيتـه إليهـا، تتقلـد منصبًـا غـير معلـن عنـه، تتحـدث عـن الحـب والطـرب والغنـاء والموسـيقى، تتحـدث بعلـم فينصتـون لهـا، تتحـدث عـن الإنسـان وحقـه في الحيـاة؛ يطـرب سـامعوها وتحفزهـم عـن الإفصـاح عمـا يخالجهـم مـن مشـاعر. صانعـة للبهجـة والسـعادة، نسـمة ربيعيـة محملـة بأريـج الزهـور، تسـكب عطـرًا فواحًـا تنـثره مـن بـين شـفاهها، في ابتسـامتها تزهـر الزهـور وتتألـق. في وجههـا فيـض خـير ومحبـة، تتكلـم في رقـة حقيقيـة بـلا تكلـف، تتحـرك كفراشـة تدفـع الزهـور لتتفتـح. همـس كلماتهـا عبـق رائـع، ذات ابتسـامة لا تمـت بصلـة لأهـل الأرض؛ للملائكـة غالبًـا تنتمـي. عينـان سـوداوان فيهـا أشـعة تخـترق حصـون القلـوب، جميـع مـن حولهـا يتمنـون أن تحنـو وتتحـدث إليهـم أو تتوجـه إليهـم بـكلام. هـل تسـعى لتحـوز إعجـاب الجميـع؟ ابتسـامتها لا تفارقهـا!

يتتبع مصري خطواتها ولكن لا تغفل عيناه عنها للحظة...

زلـزال ذهـب بثوابتـه الهشـة عـن المـرأة، زلـزال لا يعـرف لـه موعـد؛ وإن حـدث لا يسـتطيع إنسـان أن يعـرف مـتى موعـد توابعـه؛ إنهـا تهاجـم كطيـف حلـم جميـل دون إنـذار، يشـعر بأنـه مستسـلم تمامًـا لزلزالهـا، نـسي أنـه في ذيـل قائمـة البـشر، نـسي كل مـا حـاق بـه مـن ألـم ومصائـب، نـسي نفسـه وكيانـه وكينونتـه. يحـاول أن يتجنـب شـعاع عينيهـا، مئـات الأسـئلة تتعاقـب فـوق رأسـه، رمـز للعطـاء والحـب، في لمسـة أناملهـا لأناملـه أشـعلت آلاف الشـموع داخـل حنايـا قلبـه المظلـم، رائعـة وروعتهـا تنسـاب في كلمـات أو أفعـال تأتيهـا، كلهـم يقولـون عنهـا:

مستقلة في أفكارهـا، لا تـتردد في فعـل تـرى فيـه خـير، ينبـض قلبهـا بالخـير لـكل من تعرفـه، يسـألونها:

- أين الرحمة؟

لا تتردد وتجيب.

- نعـم ضاعـت الرحمـة؛ نتنافـس عـلى السـلطة والـثروة ويضيـع الإيمـان وننـسى اللهَ وينسـانا، نتباهـى وندعـي أنهـا مواريـث أب عـن جـدٍّ باشـا. الحقيقـة غـير هـذا تمامًـا فأكـثر ممـن ضاعـت مـن قلوبهـم الرحمـة محدثـو النعمـة، فـلا تصدقـون.

نظراتها متعلقة بمصري وهي تقول:

- إن مـن يقلـل مـن شـأن إنسـان ليـس إنسـانًا، مـن يمتهـن البـشر ويضعهـم دون منزلتـه في الفهـم والعقـل والـذكاء، هـو الغـبي الحقيقـي.

يستسـلم في جلسـته ويسـتمع ويسـافر عـبر كلمـات زيزي، يسـبح في

أحلام شبق وهوى تموج بإنسانية يفتقدها؛ عندما سألته بدلال:

- سيدي هل تأذن لي بالانصراف؟

بتلقائية وبسرعة:

- مستحيل.

- لقد تأخرت كثيرًا.

- الساعة تقترب من العاشرة و...

- أخاف، ولكن ماذا أفعل؟

- ما دمتِ قررتِ فسأذهب لأوصلك.

طبعت فوق خده قبلة وهي تقول:

- كنت أنتظر أن أطلب منك ذلك.

تاه وتاهت كل أفكاره، لم يعرف كيف يجمع شتات فكره ليواصل الحديث معها، جذبته بقوة غريبة من كهف شديد الظلمة لشمس ساطعة، غريق مستسلم للغرق بعد أن خارت قواه ويد تدفعه لسطح الماء والحياة من جديد فيستسلم، تاهت حروف الكلمات ورجع إليه زمن صمته القديم؛ تلجلج وتعثرت مخارج الحروف فارتضى بالصمت، مالت عليه تستأذنه، تطوف على زملاء الخيمة وتسأل كل منهم ماذا يريد. اجتمعوا على رأي واحد: غداء معين وبوصفات معينة، سجائر وأحدهم يلمح بشيء من المخدر وتقابل طلبه بابتسامة. لا يدرك مصري أهي بالموافقة أو بالرفض، تسجل وتكتب طلباتهم، تبادلهم الحديث في مودة مفرطة وتدون في مفكرتها الصغيرة، يتأملها بشغف بالغ، يتحسس حقيبته الجلدية، تتسلل يده في حذر بالغ بحيث لا يشعر به أحد، يسحب من مظروفه الأصفر المتخم

بـالأوراق النقديـة بعـض أوراق، يدسـها في جيبـه وعينـه تجـوب الأرجـاء والجميـع مشـغولون عنـه بالنظـر والحديـث إلى زيـزي وهـي تـدون طلباتهـم. أغلـق حقيبتـه، عليـه أن يـترك الحقيبـة بـكل مـا تحتويـه هنـا، فالرجـوع والدخـول يسـتلزم التفتيـش الدقيـق؛ فقـد أقامـوا نقـاط تفتيـش عـلى كل ناصيـة وشـارع يـؤدي إلى الميـدان.

***

إلى أين هي ذاهبة؟

يرد على نفسه: حتى وإن كانت إلى جهنم فمعها سأذهب.

تتأملـه وهـو يمـضي أمامهـا، طولـه الفـارع وجسـمه المتناسـق لا يبـدو عليـه الترهـل، خطواتـه شـبه عسـكرية منتظمـة، أنفـه شـامخ لا يعكـس عجرفـةً وعنفًـا، ملامـح وجهـه هادئـة واثقـة، تهـم أن تضحـك مـن نفسـها فقـد ذهبـت في تأملاتهـا وكادت تصفـه بمـا ليـس فيـه ولكنهـا تـردد «عـين الرضـا عـن كل عيـب كليلـة» تضحـك لآفاقهـا وخيلاتهـا، تقـترب أكـثر منـه، تعلـق ذراعهـا في ذراعـه وتمـضي بجـواره، يتماسـك ولا يصـدق، أمـام كل هـذه الجمـوع تتعلـق هـذه الرائعـة الجميلـة بذراعـه! مـاذا يقولـون عنـه؟ كل أفـكاره بدائيـة، لـم يجـرب القـرب مـن سـيدة أو فتـاة تقاربـه سـنًّا، لـم يقـترب مـن جمـال يزلـزل الكيـان، يشـعر بزهـو تعقبـه رجفـة؛ غـير مـدرب وتلـك هـي المـرة الأولى الـتي يستشـعر وهـج جسـد سـيدة تمـشي وتحتـك بـه وأمـام كل البـشر. يجـف ريقـه في البدايـة ولكـن يسـتحلبه ويشـعر بحـلاوة غريبـة، كان ريقـه ينضـح بمـرارة البائسـين غالبًـا. أمـا اللحظـة فيـكاد يطـير فرحًـا وولهًـا، تعـود إليـه ثقتـه في ذاتـه، لا يهتـم بالنظـرات الـتي يرميـه بهـا كل مـن يرونـه، يـزداد تشـبثًا بذراعهـا، يـضرب مرفقـه نهدهـا

المجـاور فيهـم بالاعتـذار ولا يعتـذر، يتمـنى أن يطـول الطريـق، ينحرفـان في اتجـاه سـيرهما ويخرجـان مـن شـارع طلعـت حـرب فـلا تعترضهمـا نقـاط التفتيـش، يواصـلان طريقهمـا إلى شـارع شـمبليون، جـراج قديـم، تسـحب يدهـا مـن يدهـا تتجـه صـوب سـيارة حديثـة جـدًّا، تضغـط مفتاحهـا الإلكـتروني فتشـع أضوائهـا الخفيفـة الأماميـة والخلفيـة، تدخـل للسـيارة وتفتـح بابهـا مـن الناحيـة الثانيـة، حـاول أن لا يبـدي دهشـته، أسرع وجلـس في مقعـده الأمامـي بجوارهـا، صامـت لا يـدري بـأي الكلمـات يكسر هـذا الصمـت، لا يعـرف كيـف يتجـاوز الأسـئلة المتتابعـة الـتي تعـج بهـا رأسـه.

تخرجه من الصمت:

- إلى أين ذهبت؟

- إليكِ.

- ها أنا بجواركَ.

- أخاف عليكِ.

- تحبني؟

- مجنون ولكن لا يصل جنوني لتلك الدرجة.

- أن تحبني جنون؟!

- قمة الجنون سيدتي.

- هل نسيت أنني جاريتكَ حتى تطلق سراحي؟

- مستحيل.

- ماذا؟

- أن أطلق سراحكِ.

- ألَا تمنحني الحرية؟

وما لبثت أن أكملت

- ممَ تخاف عليَّ؟

- ما لكِ أنت والثورة؟

من منظوره هو ومن سيارتها ما يعكس رفاهيةً وغنىً وجاهًا؛ فالثورة مرتبطة في وجهة نظره بالحاجة والحرية، أليست الكلمة الأولى التي يرددونها جميعًا كلمة العيش! أي عيش تبحث هي عنه؟

تقطع حبال صمته الظاهرية قائلة:

- أنا إنسانة.

تصمت وتسترد أنفاسها وتقول:

- في حارة ما بين السيدة زينب وجامع عمرو منزل جدي لأمي، أما أبي فقد أتى من الصعيد طفلًا صغيرًا يبحث عن الرزق، واستأجر والده حجرةً صغيرة في بدروم بيت جدي، استطاع أن يحقق الكثير والكثير.

يتمنى أن تطول المسافة، يتمنى أن لا يفارقها، لا يعلم أي الطرق تسلك بسيارتها، مبهور بكلماتها، تنظر أمامها وتقود وهو ينظر إليها ويعيد اكتشاف معالم وجهها الرائع من الجانب. تتحدث بشفافية إنسان، تحكي عن مدى الألم الذي تحسه وهي تقود سيارتها وعلى جانب الطريق إنسان ملفوف في أثمال بالية ينام، ومن برودة الجو لا تستطيع مجرد فتح نافذة سيارتها، بل إنها تلجأ للتكييف لتغير درجة حرارة سيارتها لإحساسها بالبرد. تصف المشهد، تتسلل دموعها وهي تقص، تسحب منديلًا

ورقيًّا لتجفف به آثار الدموع من فوق وجنتيها. لا يقاطعها ولكن يشعر بأنه يود مشاركتها، ولو بكلمة فلا يجد. أطفال الشوارع وما نصيبهم من الدنيا، عندما تقف بسيارتها في إشارة مرور ويتصارعون من يفوز فيمسح لها زجاج سيارتها الأمامي أو الخلفي، تتمنى أن تهبهم كلهم كل ما تملك ولكن لن تستطيع أن تعطي وتهب الجميع، تتحدث عن حق كل هؤلاء في الحياة الكريمة.

السيارة تبدو خارج حدود القاهرة، فإلى أين تذهب وأين تسكن؟ تنطلق وتتكلم وهو ينصت ويريد المزيد، تصمت وكأنها تدعوه للمشاركة في الحديث، لم ينبس بكلمة فتسأله:

- أحببت؟

يضحك وهو يقول:

- لا.

- كيف تعيش؟

- أعتقد أن الحب رفاهية.

تضحك بقوة وترد عليه مستهجنة:

- قمة الخطئية.

- ربما أفكار الفقراء يا سيدتي، الحب محرم.

- تخلف ... آراء متخلفة.

تتحدث عن الحب وكيف يستطيع أن يغير الإنسان، فيقول:

- حب الشاطر حسن وست الحسن والجمال.

هل يصرح بما يجيش في صدره! مدى الآلام والقهر الذي

تعرض له في حياته؛ إنها دقائق وستذهب لحالها، ربما ظنته يستجديها فعل خير ولو بكلمة، يرفض أن يتحدث عن ذاته، ليكن الحديث عابرًا وعامًا، إنها أطلقت أسر لسانه فبادلها الحديث، هو من كان لا يجيد رص العبارات والكلام مثل سائر الناس، أيحدثها عن الخوف النائم في صدره؟ كيف كان يحب كل البشر؟ من يسيئ إليه ولا يفكر يومًا في رد الإساءة، بل إنه كثيرًا ما يجد نفسه يساعده بإمكانياته المتواضعة، حتى أهله وأقربائه يعاملونه باستعلاء وهو يسعى تلبيةً لأي نداء ويسرع واضعًا نفسه تحت أمرهم وخدمتهم. الحرية؛ يوم استدعائه للتجنيد لحظة بزوغ فجر الحرية بالنسبة له، يهم بالحديث تختنق العبارات وترقرق عيناه بالدموع قسرًا عنه، يلعن نفسه، تلتفت إليه، تشعر أن هناك جرحًا ما، تحاول أن تسحبه لحديث بعيدًا عن توتره الظاهر، يداري وجهه فتقول:

- كون الإنسان مؤمنًا...

يقاطعها ولم تكمل عبارتها وبسخرية يكمل عبارتها...

- عليه أن يتحمل عذاب البشر.

لا تهتم كثيرًا بكلمته ولكن تتحدث إليه:

- كل أصحاب دين يرفعون من شأنهم.

- كيف؟

- في بلدكم هل يتعالى المسلمون على النصارى؟

- أحيانًا بل غالبًا.

- هذا وضعنا الطبيعي؛ وفق آفاقنا الضحلة.

- أغلبنا يعيش وفق هذا المنظور.

- قمة الخطأ يا سيدي؛ أصحاب كل دين يظنون أنهم الوحيدون المؤمنون والآخرون كفرة ومأواهم جهنم ... أليس كذلك؟

يرد بتلقائية:

- الشيخ (لا مؤاخذة) يقول ذلك.

- مَن؟ ... الشيخ مَن؟

- لا مؤاخذة.

يضحك فتجاريه في الضحك، يقص عليها حكاية الشيخ (لا مؤاخذة) يضحكان، وتستطرد هي في حديثها:

- كل أصحاب دين يعيشون الدنيا من وجهة نظرهم.

- الدنيا للكل.

- هذا تفكير طبيعي لإنسان، للأسف يصفون هذا الإنسان بأنه مثال للضعف ولا توجد لديه نخوة نحو دينه، ومن يقول بذلك هو إنسان مقهور ويعاني الذل والمهانة ولا يوجد عزة إلا في الدين وبالدين.

تبدو في عينيه دلائل إعجاب بفكرها وتناولها للحديث، تجد في نظراته دعوةً لمزيد من الحديث والحكي فتواصل:

- اليهود ونحن مسلمون مؤمنون بهم وبرسولهم يرددون بأنهم شعب الله المختار، ونحن لا ننكر هذا وهو موجود في القرآن أليس كذلك؟

- نعم ... أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام.

- المسيحيون يقولون إننا أبناء الله والمسيح ابن الله ويفتتحون أقوالهم وفق معتقدهم ومقدساتهم «بسم الآب والابن والروح

القـدس واحـد آمـين»

تتغير نغمة صوتها وبصوت فيه أسًى بالغ:

- نحـن مسـلمون، إننـا خـير أمـة أخرجـت للنـاس، نكفـر كل أصحـاب الديانـات الأخـرى سـواء كانـت سـماوية أو ديانـات وضعيـة، كل إنسـان يجـرد الآخريـن مـن حقهـم في الحيـاة. أصـل البـشر واحـد، كل الألـوان أصلهـا لـون واحـد، الأقـوى يفـرض لونـه ودينـه وعلمـه، المسـيرون عليهـم السـير عـلى خطـى الأغـنى والأعظـم والأقـوى.

تقـول إنهـا تشـعر بالنقمـة عـلى كل الأغنيـاء السـفهاء ومـن يسـعون أن يسـتولوا عـلى كل خـيرات الدنيـا بـين أيديهـم، رغـم أن مـا يملكونـه يكفيهـم وأولادهـم حـتى أحفادهـم، حديثهـا المشـحون بتذمـر شـديد يدعوهـا للثـورة. عليـه أن يطـرح الخجـل جانبًـا، عليـه أن يفكـر في الثـأر وأن يقتحـم في جـراءة أسـوار السـجن الـذي ألقـوه فيـه، كلماتهـا تدمـي جراحـه، يسـتعيد ذكرياتـه وآلامـه وعذاباتـه؛ تحدثـه عـن عالـم القـوة ومـن لا يؤمـن بذاتـه فعليـه أن يمـوت أو يدفـن نفسـه وهـو عـلى قيـد الحيـاة. عليـه أن لا يسـتنفذ قوتـه في حـرب جانبيـة؛ فلـه معركـة كـبرى ليعيـش وليحقـق ذاتـه.

هـو وأمثالـه ضحايـا، يسـأل نفسـه: بـأي سـلاح أحـارب؟ أنـا لا أملـك شـيئًا وهـم يملكـون كل شيء! تتحـدث وتفيـض بأقـوال غريبة.

- يا سيدتي مقدراتنا ليست بأيدينا.

- مـن فعـل فعلتـك، مـن ضحـى بنفسـه في سـبيل إنقـاذ إنسـانة لا يعرفهـا، مـن جـاء وحـضر إلى ميـدان الحريـة برغبتـه...

تصمت ويعقب صمتها ضحكات...

يتوه في أفكاره ويطرح أسئلته على نفسه:

هل ساخرة به ومنه؟ في ضحكتها تطاول وإقلال من شأنه، شعرت بأنه دون مستواها، نعم لا أنكر فهي ابنة المستوى الأرقى والأحسن بكل المقاييس، هذا يبدو جليًّا والإنكار جرم، ملبس ومأكل وسيارة وسجائر أجنبية وتسأله:

- أنت مصري حقيقي؟

بحدة يرد سؤالها بسؤال:

- ما المقصود بكلمة مصري حقيقي؟

يود أن يضحك ولكن يخاف أن تكون ساخرةً بمعنى الكلمة ويسأل ذاته؛ ربما صنفوا ناس بلدنا؛ حقيقي ومضروب.

- طبيعة المصري تختلف، الصبر سمة مصرية أصيلة.

- سيدنا أيوب مصري.

تضحك وهي تقول:

- كل الأنبياء الذين صبروا عرب، أصلهم مصري أو عاشوا بمصر.

أحاديثها تثيره وتقتل السكون النائم في صدره، سريرته تضج بأحاديث متباينة، يتردد في الإفصاح عنها، نعم الألم فك عثرة لسانه، لا يحتاج لمزيد من الألم ليصرخ ويبوح بما يداخله، هل يدعي الزهد في الدنيا؟ إنها تثور وتشارك الثوار وتهتف وتلعن رغم أنها تملك الكثير وأشياء كثيرة تبدو ملك يديها. هل تتصنع مشاركة الثوار ثورتهم! ففيم تطمع؟ هل تطمع وتسعى لمكاسب؟ أم تخاف إن كسب الثوار جولتهم ونجحوا وتربعوا فوق كرسي السلطة أن لا يكون لها مكان هي أو ذويها؟! ربما تكسب المزيد من وراء الثورة أو تحظى بمكانة أفضل؛ إنها

تتحدث بلغات عدة وتجيد التعامل مع الكبراء وأصحاب الشأن.

يسألها:

- هل كل الموجودين بالميدان ثوار؟

تهز رأسها وترد:

- ٨٠ ٪ منهم ثوار حقيقيون.

- والباقي؟

- الغالبية لهم مآرب أخرى؛ مآرب شخصية وربما جماعية؛ فهناك أكثر من إنسان موجود بالليل والنهار، أحدهم يصرف ببذخ بالغ وتتعقبه قناة فضائية يشارك فيها بنصيب الأسد، له ثأر مع رجال السلطة وعناصر الأمن، يريد أن يشفي غليله. مجموعة موجودة أيضًا مهمومة بأمل تبدو زهوره والفرصة اليوم سانحة، أمنيتهم أن يضعوا أيديهم على مقدرات البلد كلها. ومتشددون ممولون من الداخل والخارج يتحدثون باسم الدين ولهم غايتهم، ومن يستطيع في بلدنا أن يتحدث ضد رجل يستظل براية الدين مهما فعل من موبقات، ومن يفعل ويتكلم فهو خارج عن الملة وستجد الكثيرين يصمونه بالكفر.

- وأنتم؟

- نحن مجموعة صغيرة جدًا، منا من يجدها فرصة لقضاء الوقت، ومن يجدها فرصة للتواصل. الأغلبية منا مؤمنون ولا غاية وراء أفعالهم سوى تغيير للأفضل؛ فيشعر به كل البشر.

- وأنتِ؟

- ناقمة على أوضاع كثيرة.

- على سبيل المثال؟

- حياتي نفسها؛ منظومة الحياة من حولي، أفتقد حنان الأم التي رحلت وأنا تلميذة صغيرة لا تعي الدنيا جيدًا، الجميع من حولي يغدوقون عليَّ؛ رعاية لا مثيل لها من أهل أبي وأهل أمي، أبي يحاول أن يجعل كل شيء أتمناه رهين يدي، يثق فيَّ ثقةً عمياء، كل يوم يريد أن أتزوج، كل يوم يرشحون لي عريسًا. من يعرف أبي ينظر بموضوعية شديدة لممتلكات أبي والاحتمال القائم للغد وما سيؤول إلى من تلك التركة الكبيرة.

تضحك بقوة وتقول:

- مصري... أنت إنسان جميل.

- أنت الأفضل سيدتي.

بإشارة من يدها توقف سيل حديثه وتقول:

- أرجوك كلمة سيدتي تصيبني بالغثيان وأكرهها.

- لك ما تودين سيدتي.

يعي أنه ردد ما لا تود، يضحك وتجاريه الضحك.

- لكِ أتمنى حياةً سعيدةً زيزي.

- كلمة زيزي تخرج من بين شفاهك منغمة جميلة.

- يجبر بخاطرك ربنا.

- حلوة ... وجبر الخواطر على الله.

- أنتِ بنت بلد.

- أصولي من مصر القديمة والسيدة وجامع عمرو والأصل صعيدي.

تضحك ولا تلبث تطرح سؤالها:

أنـت جميـل في حواراتـك، وكلماتـك تشـعرني وكأنـني أمـام مثقـف كبـير.

- حلمـك يـا زينـب؛ فأنـا أنهيـت دراسـتي الإعداديـة فحسـب، لـم أسـتطع إكمـال تعليمـي ومنهـا أسـباب غريبـة فقـد كرهـت المدرسـة بصـورة لا تتخيلينهـا، إضافـة لأن ظـروفي لا تحتمـل الـدروس الخصوصيـة، حفظـت أغلـب القـرآن ولـم أشـأ أن أقـول ذلـك لأحـد، أسـتمع لأحاديـث المتعلمـين مـن حـولي وأدرك كل مـا ترمـي إليـه؛ كثـير منهـا مجـرد فقاقيـع في الهـواء، أتمـنى أن أشـارك ولكـن في بلدنـا لا يسـتمعون إلى الجهـلاء أمثـالي؛ فأغلـب صفـوة المثقفـين تتعـالى وتظـن نفسـها هـي الأعلـم والأدرى بـكل الشئون، كنـت أتخيـل أن المشـايخ فقـط ولكـن اتضـح لي أن المتعلمـين والسـادة المثقفـين مصيبتهـم أكـبر وأعظـم؛ لزمـت أغلـب حيـاتي الصمـت.

تضحك بقوة.

- مثقفونـا رحمهـم الله سـبب البـلاء، أحـد أسـباب البـلاء الرئيسـية الـتي تعـاني منهـا بلدنـا عمومًـا، محتـوى عقولهـم في الغالـب فـارغ، تعشـعش فيـه آفـة الأنـا المتعاليـة المتكـبرة الجاهلـة في الأغلـب.

- البعض منهم.

- أقول لك وكلي ثقة أغلبهم.

- أنتِ الأدرى.

- تافهـون يظنـون أنفسـهم أعلـم البـشر، المحـترم منهـم قليـل جـدًّا.

تضحك ثم تواصل:

تعلـم أن جـذور أبي صعيديـة، فأنـا لا أقلـل مـن أهـلي أو كمـا

يقولـون بلديـاتي، أشـعر أن المثقفـين مثـل واحـد بلديـاتي بجلبابـه الواسـع، يجـري ويلهـث ويسـابق الريـح في اللحـاق بركـب السـلطة، لـكي لا يعـوق جلبابـه حركتـه وسرعتـه فـأسرع ووضـع ذيـل جلبابـه في فمـه.

تضحك بقوة فيبتسم ولا يدرك المغزى فتقول:

بلدياتي نسي أنه بلا ملابس داخلية!

يموجان في الضحك معًا.

وكأنهـا نسـيت ذلـك المطـب الأرضي الـذي تعرفـه جيـدًا، ارتجـت السـيارة بقـوة، ارتفعـت كثيرًا عن الأرض، شـعر وكأن رأسـه اصطدمت بسـقف السـيارة، في تلـك الارتـدادة القويـة يشـعر وكأن ظهـره الدامـي شرخـت جروحـه القديمـة، لـم يهتـم كثـيرًا بـل نـسي مـا كان؛ وهـج ضحكاتهـا وتألقهـا وعذوبـة وشـاعرية كلماتهـا تهتـك صمـت أمانيـه وشـهواته المضطربـة، لا يشـعر بألـم، تمـضي في طريقهـا.

تضـع الكـرت الممغنـط في نافـذة البوابـة الحديديـة الضخمـة، ينفـرج البـاب مبـاشرة وتنطلـق لداخـل الحصـن المنيـع، تغلـق التكييـف وتفتـح نافـذتي السـيارة. يجـول بعينيـه لجانـبي الطريـق، قصـور ذات حدائـق رائعـة، عبـق الزهـور ينـثر فـوق ليـل الشـتاء نسـمات عطـرة، هـدوء رائـع وصمـت غالـب.

-٨-

تصف له أن أباها كان صاحب فكرة الاستيلاء على تلك الأرض، شارك أكبر رجال الأعمال في تحويلها من أرض صفراء قاحلة إلى جنة على الأرض، أنهى كل أوراقها بعلاقات وهدايا لرجال السلطة؛ فأغلب من يقيمون في تلك الجنة والقلعة الحصينة من رجال السلطة الأقوياء وأثرى أثرياء المحروسة، أغلب قصورهم مهداة من أبي وشركائه، مقابل تقديم الخدمات المطلوبة والموافقات السيادية، يبتلعون من كل الجهات؛ والمصيبة لا يشبعون، أغلبهم لهم مساكن في أماكن أخرى في قاهرتنا العظيمة الممتدة، يخافون أن يعيشوا بين البشر بين جمع الناس، تضحك بسخرية وتردد:

الأثرياء يحجزون أماكنهم في الجنة.

- لكن كثير من الأثرياء يشاركون في الثورة.

- الأثرياء يدخلون معترك الثورة من بعيد لبعيد؛ ليحصلوا على المزيد من الثروات أولًا، وإن نجحت الثورة يتبجحون ويقولون إن الثورة نتاج أفكارهم وأيديهم كانت تسبق الجميع، أموالهم وقدراتهم هي العامل المساعد الأول للنجاح. بالطبع لا يستطيع أحد أن ينكر، فلا يخافون العاقبة.

في تردد يقول:

- وأنتِ؟

- أنا متمردة على أوضاع قائمة.

- حواء دفعت آدم للتمرد.

- هل يتساوى تمرد حواء بتمرد إبليس؟

- فرق شاسع ورحمة الله غالبة.

- يـا مـصري إنهـا إرادة الله، لقـد خلـق الله آدم لعمـارة الأرض، وكـون وجـوده في الجنـة وجـود مؤقـت، فهـو مخلـوق أساسًـا؛ لعمـارة الأرض، فـالله سـبحانه يسـيره لأمـر لا يدركـه هـو نفسـه، فعلينـا أن لا نلـوم حـواءَ عـلى تمردهـا.

- وأنا لا ألقي باللوم عليك، وما يعلم تأويله إلا الله.

- مخنوقـة مـن أحـداث تجـري حـولي، أحـاول أن أشـارك في حـدود قـدراتي وطاقـتي، فأنـا لا أرى في أشـياء كثـيرة تـدور مـن حـولي إلا ضيـق أفـق وتعصـب أعمـى، عقـول متخشـبة ترفـض الفكـر والحـوار، مـن يسـحق إرادة إنسـانٍ إنسـانٌ مثلـه، عليـه أن يقـدس تلـك الـروح الـتي خلقهـا الله، أيـن الإيمـان؟

- أنت نفس برئية.

- أنا أحب الحياة ولا أحبها خاليةً من البهجة.

داخلــه يــرزح تحــت وطــأة العــادات والتقاليــد، يــئن جســده بأوجاعــه غــير الباديــة للعيــون ويلعــن كل الســادة والكــبراء، لكــن يحـاول أن يبـدو أمامهـا متماسـكًا صلبًـا قويًـا أو يبـدو متدينًـا يعـرف حــدود الله.

ضغطـت أرقامًـا في جهـاز تحكـم مـن بعـد فانفرجـت بوابـة كبـيرة إلكترونيًـا؛ في ممـشًى محـاط بأشـجار عـلى الجانبـين، وأضـواء هادئـة متناثـرة بـين موضـع وآخـر، يبـدو القـصر رائعًـا رغـم أنـه لـم يـر محتوياتـه بعـد.

في خطواتهما، يأخذه الحياء فتتثاقل خطواته، فتسرع خطاها ولا تنسى أنها أخبرته بأنه لا يوجد في القصر سوى مربيتها، وقبل أن تكون مربيتها فهي قريبة تنتمي لأسرة أبيها بصلة الرحم.

تقدمت السيدة مرحبة؛ بلهجة تقترب من طفولية محببة تشرح للسيدة من هذا؛ فتصفه: بأنه من أنقذ حياتها اليوم، كيف كاد الفارس ممتطي الجواد أن يدهسها ويضربها بسيفه، وهذا المصري قفز عليه قبل أن يدهسني.

بلهجة عامرة بالحب والمودة تقول:

- ربنا يحميك لشبابك يا ابني. وما لبثت أن توجهت باللوم لزينب، تصف حال أبيها إن حدث لها مكروه؛ فهو يخاف عليها من الهواء الطائر، لم تتوقف عن الحديث إلا بعد أن طلبت منها زينب أن تتوجه على الفور لحجرتها وتستريح.

نظرت المرأة أسفل قدمي مصري؛ ووضعت يدها على فمها وصرخت صرخة مكتومة وقالت:

- دم ... دم ...

لم يشعر مصري بسيل الدماء الخفيف الذي تسرب من الجرح القديم، حاول أن يدَّعي بأنه شيء بسيط وأنه سيذهب من فوره لأقرب مكان للعلاج.

أصدرت زينب أمرها ولم تتراجع رغم محاولاته؛ الدور السفلي كله خاص بالضيوف، وهي والدادة تنامان في الدور العلوي، أمرت الدادة أن تفتح إحدى الحجرات، فأسرعت المرأة بوجهها المسن المكسو بتجاعيد قليلة، تستجديه وتستحلفه بكل غالٍ وعزيز عليه. ألم حارق يستشعره ويكاد يصرخ ولكنه

يكتم صرخاته ويتماسك، زينب بدت مرتبكةً تتكلم بسرعة فتنثر كلماتها مفعمة بوجع ودهشة؛ ما يراه حوله حقيقة أم وهم؟ الدموع تملأ عيني زيزي والسيدة تحدثه بأمومة غريبة، زينب مصممة على رأيها، يحاول التملص منها تحت أي ادعاء ولكنها ترفض وبشدة، يستأذنها أن يدخل للحمام وفيه يستطيع أن يوقف نزيف جرح اليوم، يحاول أن يوحي لها أن هذا نتاج جرح اليوم من راكب الفرس. ترفض بشدة مقترحاته التي تشي بحياء يسيطر عليه وكسوف، لكنها مصممة أن تداويه بنفسها، شاركتها المرأة وهي تقسم:

- وحياة حبيبك المصطفى لنطهر جرحك يا ولدي، متأكد أن الدم السائل ليس من جرح اليوم.

أسرعت بإحضار حقيبة صغيرة من الجلد المقوى وفتحتها وبها كثير من أنواع المطهرات، وكذلك الشاش والقطن الطبي، طلبت منه أن يتمدد فوق السرير بسرعة، ما زال التردد فوق محياه، أمام كلمات السيدة والفتاه ترجوه، يستسلم لهما وهو يشعر بألم بالغ في ظهره، تساعده الفتاة في خلع ملابسه، تحاول أن تتأنى وتخاف أن تلمس جروحه غير الظاهرة، ينتهي بمساعدتها من خلع كل ملابسه العلوية،بعد عناء وحياء غريب يسيطر عليه؛ وبدا ظهره أمام عيونهما عاريًا، لم تصدق عيونهما ما تراه، شهقة طويلة متصلة، آهة من السيدة تقطر ألمًا، ظهره عبارة عن تشققات دموية من آثار سياط، تبدو أنها آثار تعذيب، كانت في طور الالتئام ولكن بعضها بدأ ينزف وفتح جرحه من جديد نتيجة الصدمة القوية وهما في السيارة، شعر بالألم ولكنه لم يحاول أن يبديه فكتمه، المشهد مروع؛ السيدة تنطلق بأسئلة

متتابعـة ولا تنتظـر جوابًـا.

- مـن فعـل هـذا بـك يـا ولـدي؟ مـن فعـل بـك هـذا يـا ولـدي؟ مسـتحيل فيـه بـشر بالقسـوة دي! أنـت ...

تقاطعهـا زينـب ووسـط أنينهـا الصامـت تطالبهـا بالتريـث والصمـت، تكـوي الدمـوع عيونهـا لذلـك المشـهد غـير المتوقـع. لقـد بكـت يومًـا كثـيرًا وهـي تـرى آثـار تعذيـب السـيد المسـيح عـلى جسـد الممثـل المشـهور «ميـل جيبسـون»، عـادت لصوابهـا وأكـدت لنفسـها أنهـا مجـرد مشـاهد تمثيليـة، لـم تفـارق مشـاهد عـذاب السـيد المسـيح مخيلتهـا، قـرأت الكثـير عـن أسـبوع الالآم، واتجهـت بعدهـا لقـراءة كل مـا هـو متعلـق بالسـيد المسـيح مـن كتابـات «كازانتزاكيـس»، اليونـاني ولا تنـسى روايـتي (الإغـواء الأخـير للمسـيح، والمسـيح يصلـب مـن جديـد).

تتأمـل وتنظـر بعنايـة، تسـتعين بقفازيـن مـن البلاسـتيك الخفيـف وترتديهمـا في يديهـا، تطالبـه بالنـوم، ينـام فـوق المخـدع الكبـير على وجهـه، تلمـس زينـب آثـار الجـروح برقـة بالغـة، تحـاول أن تسـتجلي كنَّتهـا؛ فيبـدو أنهـا قديمـة بعـض الـشيء. بتريـث وباسـتخدام القطـن والمطهـرات تمـرق بيدهـا عليهـا، تحـاول أن تتماسـك وكأنهـا تحـاول أن تلقـي في نفسـه الطمأنينـة ممـا تفعـل، أقسـمت بأنهـا عـلى درايـة كاملـه بالتمريـض وأنهـا أحيانًـا كانـت تشـارك الممرضـات في مستشـفيات الميـدان لتطبيـب الجـروح. صرخـات السـيدة العجـوز تخـرج غصبًـا عنهـا وهـي واقفـة بجوارهـا تسـاعدها، تنظـر إليهـا زينـب بعتـاب فتصمـت وتكتـم آهاتهـا.

رغـم كل الالآم يقلـب الحـوادث الـتي مـرت بـه اليـوم الأخـير خاصـة، لا ينكـر تـاق قلبـه إليهـا منـذ رآهـا، أمـا المـودة الـتي

استشعرها في السيدة العجوز والتي قابلته بها فقد أشعرته بحنان أمه وخوفها عليه، تنسال دموع المحبة لأهله ولهاتين مختلطة بآلام جراحه. إنها تقول عنه منقذها وهي التي أنارت حجرات قلبه المظلمة، شغف وذكرى أعقبها سُكْر وألم صارخ مباغت نتيجة حركة أنامل مطببته فوق جراحه، لم يدرِ بمصابه وألمه سوى تلك اللحظة، جمرات من نار فوق ظهره، يحاول أن يبدو متماسكًا، يحاول أن يبحث في ذاكرته عن موضوع يشغله، وكأنه يستنكر ولا يصدق ما يحدث له، فيطوف بحديثه لنفسه؛ إن فرصة العثور على إنسان صالح اليوم عسيرة ومضنية وتكاد تكون سرابًا، كل تلك الأناقة والجمال تضع يدها في يده، تركع أمام قدميه، ترفع التكليف القائم بينها وبينه. ابنة هذا القصر ووريثة هذا العز والجاه وهو ابن مَن؟ وسليل مَن؟ وأي درجة علمية يحوز عليها؟ يعلم أنه نكرة.

تنهيدتها القوية تخرجه وتسحبه من تأملاته.

- ما هذا؟

يكون رده مجرد آهة طويلة تندب حظه ولا تبوح. تعود وتسأله:

- من فعل بك هذا؟

يطالبها بأن تسرع في تضميد جراحه؛ حتى يعود أدراجه للميدان، تأتيه لهجتها الآمرة الصارمة ولكنها تُشنِّفُ أذنيه.

- أنت مجنون، سأرسل في طلب طبيب فورًا.

يقوم من نومته وقد ارتسمت فوق ملامح وجهه علامات الثبات والقوة ويحذرها إن فعلت ذلك فلن ينتظر وسيمضي

وليكـن مـا يكـن.

تعـود للهجتهـا الحانيـة الـتي تتـسرب منهـا معـاني التوسـل والإنسـانية المفرطـة.

- هذه آثار من فترة طويلة، أين كنت؟ تكرر سؤالها.

تطلـب السـيدة مـن خـلال هاتفهـا المحمـول صيدليـة وربمـا مركـزًا طبيًّـا. تسـأله أسـئلةً كثـيرة ولا يسـتبين كلماتهـا جيـدًا، لكـن مـا يسـمعه أنهـا تطلـب مزيـدًا مـن القطـن والشـاش ونوعًـا مـن الدهانـات الطبيـة، تأخـذ منهـا الفتـاة الهاتـف وتبتعـد فـلا يسـمعها، تطالبهـم بإرسـال ممـرض لحقـن مريـض عندهـم، وأن يرسـلوا معـه أيضًـا مسـكنًا لآلام الجـروح ولا مانـع مـن حقنـة منومـة ومسـكنة في نفـس الوقـت.

ينظـر للسـيدة العجـوز الـتي جلسـت في مواجهتـه، تنسـال مـن عينيهـا الدمـوع، لا تسـتطيع أن توقـف نزيفهـا، تثـيره وتحـرك نبضـات قلبـه فتتسـارع ويشـعر بانقباضـة غريبـة في قلبـه، تـتراءى لـه وتتمثـل صـورة أمـه، لا يسـتطيع أن يتكلـم، تمتـد يـده فتسـحب يدهـا ويميـل فوقهـا ويلثمهـا، يرتعـش جسـده وجسـد السـيدة في آن واحـد، يختلـط لعابـه ودموعـه بمزيـج مـن الحـب والشـفقة فـوق يدهـا المعروقـة، تميـل بدورهـا عـلى رأسـه تقبـل رأسـه وتتسـلل دموعهـا عـبر شـعيرات رأسـه؛ فيحـس بـدفء رأسـه، تربـت عـلى كتفيـه، تعـود زينـب وتـرى المشـهد فتتراجـع للخلـف، ولكـن دموعهـا ترسـم مجراهـا فـوق خديهـا. تمسـح دموعهـا وتحـاول أن تبـدو متماسـكة قويـة، اعتـدل في جلسـته وتقدمـت زينـب وبرقـة متناهيـة سـحبت السـيدة مـن يدهـا لتبتعـد بعـض الـشيء. الوجـوه تتقابـل ويعلوهـا صمـت مريـب؛ الوجـوه الثلاثـة تطفـح بالقلـق والنظـرات

مستغربةً متسائلةً مستفهمةً وهو لا يبوح، يتفحصهما في حب ومودة غريبة، نظراتهما وكأنهما تستجديانه أن يتحدث وما هي الأسباب وراء تلك التشوهات اللاإنسانية ومن يجرؤ على تلك الفعلة الشنعاء الرهيبة.

عاد لموضعه السابق بعد طلب زينب منه.

تشعران بأسًى بالغ، وهما تقومان بتطهير جراحه، تقوم السيدة بدور المساعدة، ينظران لبعضهما بدهشة وانزعاج بادٍ فوق وجهيهما ولا تهمسان، كلما همتِّ السيدة بالكلام ترفع الفتاة أصبعها أمام فِيهَا بإشارة تطالبها بالتزام الصمت، تعكف على تطهير الجرح، ليس محددًا بمساحة محددة من ظهره ولكن تقريبًا الآثار جلية؛ عبارة عن شروخ في جلد الجسد لا تترك مساحة من ظهره؛ منها ما اندمل ومنها ما زال في طور التعافي ومنها ما طفح منه الدم فأغرق القديم والجديد. سياط تلهب ظهره، تقول العجوز:

- هل يوجد بشر بتلك الوحشية والقسوة؟

تطالبها بالصمت، تطالبها أن تجفف الدماء من على المخدع والملابس، تتجه إليها بسؤال هامس:

- أظن أن طوله وحجمه متوازيًا مع حجم أبي؟

- أظن ذلك.

تهمس في أذنها بكلمات، تنطلق السيدة من فورها.

تواصل زينب، بعد وقت قليل تأتي المرأة وبين ذراعيها ملابس، تضعها على أحد المقاعد، تعود لمساعدة زينب وتغيير البقايا المتسخة والملوثة بالدماء بأخرى جديدة نظيفة، تكاد

تنتهـي مـن عملهـا، يعتـدل مـن نومتـه تنفيـذًا لآوامرهـا، يجلـس في مكانـه فـوق السريـر، تلـف الشـاش حولـه بالكامـل ولكـن لـم يكـفِ، تحمـد الله أنهـا أرسـلت في طلـب المزيـد.

ابتسـامته المتعبـة الواهنـة الشـاكرة للسـيدة والفتـاة واضحـة في نظـرات الامتنـان والحـب الـتي تمـلأ عينيـه؛ رغـم ترديـه في تعـب وإرهـاق إلا أن ذهنـه لا يتوقـف عـن التفكـير للحظـة واحـدة، ينصـاع لأوامرهـا.

عليـه أن يسـتريح ويلـتزم الصمـت وليتـه يذهـب في النـوم؛ إنـه لا يفكـر في النـوم، عليـه أن يمـضي هكـذا، قـرر ولـن يرجـع عـن رأيـه، تطالبـه بالراحـة ريثمـا يـأتي الممـرض ببـاقي المسـتلزمات الطبيـة مـن قطـن وشـاش وشريـط طـبي لاصـق، تتيبـس شـفاهه وكأنهـا تشـققت يشـعر بذلـك مـع جفـاف في حلقـه، لـم يطلـب مـاءً ليطفـئ ظمـأه ولكـن طلـب كأسًـا مـن الشـاي، أسرعـت السـيدة لتلـبي مطلبـه.

تتوسل إليه أن يجيب سؤالها:

- من فعل ذلك؟

- هُم.

- مَن؟

- كبراء بلدنا.

- مسـتحيل! مـن يجـرؤ عـلى تلـك الفعلـة جبـان سـادي النزعـة؛ ليـس إنسـانًا ولا يمـت للإنسـانية بصلـة، هـو أقـرب للحيـوان.

هـمَّ أن يـسرد ولكنـه توقـف، دخلـت السـيدة، لمـاذا يخـاف الحديـث أمامهـا، هـل يظنهـا أمـه؟ كـم لأمـه في صدره مـن مكانـة! هـل يخـاف أن يؤذيهـا بـأن يقـص أمامهـا مـا حـدث لـه، يلـتزم الصمـت وينظـر شـاكرًا للسـيدة الـتي تـداري أو تحـاول أن تـداري

دموعها الهابطة قسرًا عنها كلما نظرت إليه، يرشف الماء وتناوله قطعة من الحلوي فيمتنع فتحلف بحياة أمه عنده، يتناول من يدها ويلثمها، تخرج السيدة من الحجرة وترتاب في أمور كثيرة ولكن شفقتها تغلب أي أسئلة مثارة. حكاية غريبة وإنسان غريب ولكن لا يبدو على وجهه أي أمارات للقسوة أو فعل المنكر، يتسم وجهه بطيبة وسذاجة؛ هكذا تتخيله وتزداد شفقتها.

زينب تتأكد أنه أسير محنة ومعاناة، يحاول أن يلقي بعبارات الأسف عما نالهما من تعب؛ جراء استضافته السيئة.

بلهجة تنم عن حب.

- مَن فعل ذلك؟

يشعر بقشعريرة تملكت جسده كله، كأنهم قائمون على عقابه في تلك اللحظة، يتبادلون مواقعهم لينال كل منهم شرف عقابه أمام السيد وابن السيد، يتخيلهم يواصلون الجلد، تنتفض أجزاء جسده، يزفر زفرةً طويلةً وكأنها الأخيرة في حياته، ويفتح عينيه بعد أن أغلقهما لبرهة قصيرة ويقول:

- قلت لك الكبراء أصحاب الشأن.

- لماذا؟

- قصاص.

- أي قصاص وعلام القصاص؟

- شعروا بأنهم في حاجة للتقرب إلى الله، فعليهم تنفيذ شرع الله، كانت تفوح من أفواههم رائحة الخمر و...

لا يستطيع أن يستكمل وتغرق عيناه الدموع.

تحاول أن تهدِّئ من ثائرته، تتمنى أن تعرف الحقيقة، شيء

غريب يتملكه، يود أن يقص عليها كل ما في جعبته عن حياته.. لماذا؟ هل يستدر عطفها؟ أم هي ملاك هابط للدنيا بطريق الخطأ يشكو إليها ما فعله البشر به، يلتمس منها عونًا، أم يلتمس منها دعاءً؛ فغالبًا يستجيب الله للملائكة وهي ملاك بكل المقاييس الملائكية.

لتكن الحقيقة بلا زيف أو خداع، في تحفز مرسوم فوق ملامح وجهها وترقب تنظر إلى شفاهه المزمومة تنتظر أن تتحرك، تشعل سيجارة لها فيطالبها بواحدة له، ينفث دخان سيجارته، يجعل الضباب ستارًا عازلًا؛ حتى لا ترى تقاطيع وجهه وما يرتسم فوقه من علامات، في حديثه أنين وبكاء وألم، يصف لها كيف كانت حياته من البداية؛ لا يغفل شيئًا، يضحك وهو يصف لها الشيخ (لا مؤاخذة) وأبودماغ وعصابته، فقر فكرهم، يحدثها عن أمه والنساء في حياته، وعشقه الصبياني ومراهقته وتجسسه على السيدات حتى من قريباته، يصِمُ نفسه بالتخلف في رؤيته وأفكاره التي لا تتعدى حدود قريتهم، وأفكار متخلفة ترسم حدود عقول أولادها؛ لا يغفل عن حكايته وعلاقته الآثمة بأم عباس تلك العجوز التي تكبر عن أمه سنًّا، الهروب والبحث عن الحرية يتمثل له في التجنيد؛ يومها سيترك قريته وما تعج به من مصائب، يأتي للقاهرة؛ للتجنيد، وحامد ابن أم عباس - ولدها الثاني - يستقبله، كيف يتعرف على أم وردة، كيف يمارس معها بمقابل مادي. يلتحق بقوات الأمن فيصبح خادمًا لقائد يلقبونه بالزعيم، حارسًا على قصره. يسافر الرجل وابنه يقيم كل يوم حفلة؛ يأتون إليه ويصورون أفلامهم في قصره الضخم وهو القائم على حراسته، يطالبه ابن السيد أن يتخلص من الفتاة التي عشَّمَها بالزواج، ليقتلها ويهبه المقابل نقودًا

مـا زال أغلبهـا موجـودًا في حقيبتـه الجلديـة الـتي تركهـا في الخيمـة في الميـدان، لا يقـوى عـلى القتـل، يقـع مـن طولـه بعـد أن ذهـب إليهـا ليهربهـا مـن المكان. أمـا سـبب وقوعـه فـكان لجرعـات دوائيـة ابتلعهـا ليقـوى عـلى الدخـول إلى مخدعهـا، ومـا كان مـن أمـره، في اليـوم الثـاني أتى الرجـل ووجـده والفتـاة، ولـم يقتلهـا، فكيـف يقتلهـا ويقتلـه في آن واحـد! كان عليـه أن يتخلـص منـه أيضًـا؛ تحـت التهديـد وبطلقـات حيـة مـن مسدسـه، يتجمعـون فيشـاهدون رجـلًا عاريًـا تحـت التهديـد، وبجـواره سـيدة أيضًـا كمـا ولدتهـا أمهـا، يطالبهـم ويسـألهم المعونـة، لا يـترددون ويصرخـون بصـورة غريبـة، يطالبـون بحـق الله، العقـاب وفـق شرع الله، فيكـون الجلـد هـو الوسـيلة، يجلدونـه، الكامـيرات وأجهـزة المحمـول تصـور، كـم كانـت فرحتهـم وهـم يقيمـون عليـه الحـد.

يصمـت... يبلـل ريقـه ببعـض المـاء ويطالبهـا بسـيجارة، يتمـنى أن يحجـب الدخـان وضبابـه وجهـه عنهـا.

يعـودون بـه إلى مقـر وحدتـه العسـكرية الأساسـية؛ لا اهتمـام يذكـر بمـا حـدث لـه، نزيـف مسـتمر وهـم يبحثـون عـن الاتهامـات الـتي سـيصيغونها ضـده، يكـون القـرار إلقـاءه في المستشـفى الخاص بالسـجن؛ إن عـاش يُسـجن، وإن مـات ذهـب بـشرِّه. أسـوأ أيـام حياته متمنيًـا المـوت، ولكـن يهـرب المـوت مـن لقائـه، حـتى كان يـوم ٢٥ ينايـر وزلـزال يبـدأ وتهـتز أركان السـجن بمـن فيـه، وبعدهـا بأيـام هـرب تحـت تهديـد السـلاح ويمتثـل للأمـر، مـا زالـت فكـرة البحـث عـن الحريـة تـراوده، قالـوا: الميـدان مـلاذ المقهوريـن والباحثـين عـن الحريـة، عيـش، حريـة، عدالـة اجتماعيـة، يقـول إنـه أكـثر الباحثـين، وكأن الثـورة وكلماتهـا وأناشـيدها مرسـومة عـلى مقاسـه تمامًـا، يهـرب وليـس أمامـه سـبيل آخر.

يتحـدث عـن الحريـة وبـاب الجنـة المغلـق في وجهـه، يرجـع السـبب الأساسي فيما حـدث لـه إلى المعصيـة الـتي ارتكبهـا، يصـف جريمـة الزنـا بالكبـيرة مـن الكبائـر الـتي نهـى الله عنهـا وهـو ارتكبهـا مـع اثنتـين.

يتوقـف، هـي تقلـب الأحاديـث والحكايـة في رأسـها؛ مـا احتمـالات الكـذب في روايتـه؟ ولمـاذا يكـذب؟ بـل المصيبـة أنـه يستسـلم ويـرضى بمـا فعلـوه فيـه تحـت مسـمى أن الله سـخرهم لتنفيـذ عقابـه، تحبـس كلماتهـا وتحـاول أن تكبـت غضبهـا، يخـرج مـن بـين شـفتيها سـؤال:

- مَن أعطاهم هذا الحق؟

وكان جاهزًا للرد.

- الله سبحانه سيدتي، أولوا الأمر، هم السادة ونحن العبيد.

تحـدق إليـه في هلـع، الذعـر مرسـوم فـوق ملامـح وجههـا، يـولي وجهـه بعيـدًا عنهـا وكأنـه يحـس بالخجـل مـن مواجهتهـا.

يغرقـان في الصمـت، يلتقطـان أنفاسـهما في زفـرات متتابعـة ملتهبة، يداهمهمـا إحسـاس بعـدم الارتياح.

يقسـم لهـا بـكل مـا هـو مقـدس بأنـه يقـص عليهـا الحقيقـة ولا يـدري لمـاذا يقـص عليهـا؟ يحـاول أن يتجنـب نظراتهـا، يحيـد بنظـره بعيـدًا عنهـا، تقـوم مـن مجلسـها، تتحـرك بعصبيـة بالغـة، تتسـاءل وبصـوت غـير مسـموع:

مـن لـه الحـق في القصـاص غـير الله؟ ألَا توجـد آخـرة وحسـاب ووقـوف أمـام المـيزان؟ كيـف لإنسـان أن يضـع نفسـه موضـع الله فيجـرِّم هـذا ويـبرئ هـذا؟ أيـن العـدل الـذي ننشـده؟ وأيـن الحـق والحريـة؟

مـن يملـك القـوة؛ يفعـل كل شيء، فـلا يشـفع علـم ولا تشـفع عدالـة، يحكـم القـوي الجسـور، مـن ملـك القـوة هـو الـوالي والسـلطان، الحكـم لمـن غلـب والـرأي للسـيف وصاحـب القـوة مجنـون، وهـو الأحـق بالحكـم والخلافـة، وليسـير كل البلهـاء في ركبـه.

اسـتمعت إليـه، وفـاض وقـصَّ الكثـير مـن ملامـح حياتـه، لـم يغفـل منهـا الكثـير.

أتى الممـرض، تركـت الحجـرة، قـام الممـرض بأعبـاء وظيفتـه المسـتدعى لهـا، حقنـه بالعقـار المسـكن المنـوم وفقًـا لمـا طلبتـه منـه السـيدة، لـف الجـزء العلـوي مـن جسـده بالشـاش المعقـم، أثـنى عـلى تطبيـب السـيدة والفتـاة.

أتـت لـه السـيدة بعشـاء في سريـره، حـاول أن يتمنـع وأمـام إصرارهمـا وافـق، يمضـغ الطعـام ويواصـل سرد تفاصيـل حياتـه الحزينـة، لا تمـل أحاديثـه فتسـتمع في شـغف وحـزن في آن واحـد، يتملكهـا غضـب شـديد، يتحـدث عـن الحريـة:

- دائمًا، الإنسان مغلول الحرية، دومًا القيود والأغلال.

تلتقط أنفاسها وتأخذ شربة ماء خفيفة ويواصل هو الحديث:

- عـلى الإنسـان أن يدفـع ثمـن خطيئتـه، هـل يـا تـرى أصبحـت مطهَّـرًا؟ هـل يتقبلـني ربي بقبـول حسـن؟ يضحـك ويصمـت ويعـود.

حقًّـا لا بـد مـن الـورود عـلى النـار، كل البـشر يـردون عليهـا وبعدهـا ينتقـل الأطهـار إلى الجنـة منعمـين بخيراتهـا ونعيمهـا.

هـو يتحـدث وهـي تتأملـه وتفكـر فيمـا يقولـه، كيـف يفكـر وكيـف يسـعى للطهـر مـن ذنوبـه رغـم كل مـا حـاق بـه، لا يلقـي بتبعيـة كل مـا حـدث إلا عـلى نفسـه فحسـب، بصـوت يقـترب مـن النعـاس

وابتسامة غريبة فوق وجهه.

- كل شيء مكتوب على الجبين.

تقترب أكثر منه، تمر بيدها فوق جبهته وشعر رأسه بحنو بالغ، يميل فيقبل يدها شاكرًا، تأتي السيدة وتنام في عينيها ملامح الأمومة والطهر والنقاء، ينظر إليها شاكرًا ممتنًّا، يضحك فلا يجاريانه في الضحك، نظرات دهشة تتبادلانها وتعلق علامة استفهام فوق وجهيهما فيشرح؛ لقد تذكر الشيخ (لا مؤاخذة) وتقليله من شأن النساء، كم كان يود أن يخنقه في يوم من الأيام؛ فقد كانت أمه المثال الجميل والأبقى في كل حياته، فكم من مصاعب تحملتها في سبيل أن توفر لهما سبل الحياة، والشيخ يصفهن بناقصات عقل ودين، يوم يهم بالرد يعالجه الشيخ بالإجابة أن الله سبحانه هو القائل بذلك. أنعترض على كلام الله! وللرجل الحق الزواج من أربعة وليس لهن الحق في العكس، أغلب مَن في النار من النساء، المواريث للرجل مثل حظ الأنثيين، الرجال قوامون على النساء، فالشيخ لا مؤاخذة يقول إن الله نفخ في آدم من روحه، أما حواء فقد سلخها من جسد آدم ومن ضلع أعوج. يضحك.

يبدو أن مفعول المسكن المنوم أتى مفعوله - لسان حال الفتاة والسيدة يقول ذلك – يواصل؛ في النار يتساويان في العقاب، وحساب الآخرة في صف الرجل فليس للنساء نصيب كما للرجال؛ فداخل الجنة تحت أمره سبعون من الحور العين، وكل منهن خلفها سبعون من الجواري، يضحك...

الواحد لو دخل الجنة هيتوه بين النساء، سألتُ يومًا «لا مؤاخذة»: هل يتكاثر الملائكة؟ فنفى، وسألت عن تعداد

الملائكة، وأنه يوجد على كتفي كل إنسان ملكان مكلفان بكتابة حسناته وسيئاته. البشر يتناسلون ويتكاثرون ويزدادون، أليس مطلوبًا أن يزداد تعداد الملائكة؟ يضحك بشدة... (لا مؤاخذة) - ابن البلغة - خلع حذائه من قدمه وضربني بها وأسرعت يومها بالخروج جريًا وتتعقبني لعناته وشتائمُه.

يتثاءب أكثر من مرة وكأنه يصارع سلطان النوم الذي طغى سلطانه، فيتحدث كالسِّكِّير بكل شيء وفي أي شيء.

بعد أن أخرجت مفكرتها الصغيرة وراحت تقلب صفحاتها، راحت تعدد للدادة ما يطلبونه في الميدان من طعام، وتطالبها أن تستحث الطاهي عندما يأتي بمزيد من الجهد وأن يغلف كل وجبة على حدة وفق ما فعلته في المرة السابقة، أومأت الدادة بالإيجاب ولكن يبدو على وجهها تذمر وضيق، هي تعلم السبب وراء ذلك؛ فالدادة غير مقتنعة تمامًا بما تفعله زيزي وغير مؤمنة بأي شيء يفعلونه في الميدان؛ تطلق على ما يحدث هوجة وتشبهها بـ «هوجة عرابي»، وفي لين ومودة تحاول زيزي أن تعرفها بأن عرابي صاحب ثورة ومن في الميدان أيضًا؛ قناعتها بعيدة. انشغلتا بالحديث، سمعا شخيره يتصاعد، مجرد أن توقف عن الحديث بعشر دقائق غاص في نوم عميق، بهدوء حذر قامت السيدة بسحب الغطاء فوق جسده، تسللتا رغم أن الرجل أخبرهما أنه أعطاه مسكنًا يجعل الفيل ينام، عاد الهدوء يخيم على الحجرة؛ مجرد ضوء باهت خفيف، خرجتا وكأنهما تمشيان على أطراف أصابع أقدامهما.

-٩-

تـراوده رؤًى رهيبـة؛ جثـث ومصابـون وأشـلاء لبـشر مـن حولـه، ثعابـين تلتـف حـول عنقـه تحـاول أن تخنقـه، يقـوم مفزوعًـا مـن النـوم، يحـاول أن يطـرد النـوم مـن عينيـه فيغالبـه النوم وسـلطانه، يستسـلم للنـوم مـن جديـد بعـد رشـفة مـاء.

أمـا هـي فلـم يأتِهـا النـوم بسـهولة، تمرغـت في أحـلام يقظـة، تـكاد تضحـك مـن سـذاجته المفرطـة وخاصـة في علاقاتـه الجنسـية المضطربـة الخائفـة، ترفـض كلمـة سـذاجة وتصفـه بالقلـب الطيـب الجميـل، تعـتزم أن تخرجـه مـن تلـك الأوهـام النائمـة داخلـه، كأنهـا تتسـاءل وتـرد عـلى نفسـها، في تـردد كبـير وهـي تسـتعرض قراءاتهـا في كتـب الجنـس مـن «كامـا سـوترا» أو «رجـوع الشـيخ إلى صبـاه» هـل تحدثـه عـن العشـق الإلهـي، كيـف كان كانـت البغايـا يقدمـن الجنـس في المعابـد كأحـد الطقـوس! تضحـك وتـرد عـلى ذاتهـا، لا يعلـم أن الجنـس شـغل دومًـا عقـل البـشر، تتخيـل رد فعلـه لـو قصـت عليـه عـن سـوق الجنـس في كل عصـور البشريـة؛ ففـي العـصر الرومـاني، حـتى للماخـور عملـة خاصـة، عملـة متداولـة لدفـع أجـر النسـاء ومرسـوم عليهـا صـور وأوضـاع مختلفـة للمضاجعـة بـين الرجـل والمـرأة.

هل يظنني لحظتها بغي؟

تتذكـر حكايتـه مـع المـرأة العجـوز، يقـول إنهـا مـن عمـر أمـه، هـو لا يعـرف أن المؤلفـين لكتـب الجنـس أو كتـب علـم البـاه يقولـون: إن المـرأة أكـثر شـهوانيةً مـن الرجـل، لـو اطلعنـا عـلى كتـب تراثنـا

وخاصة كتاب «نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع»، تشعر بأن طيبته تسحبها إليه، وكأنه صورة جميلة لأحد آلهة الإغريق القدامى، وضعت مقاييس جمالية مستحدثة منذ يوم أمس، هو مرغوب من الجنس وسأجعله يتخطى هذا الحاجز الملعون، أقص عليه القصة الهندية الخالدة عن النور المقدس؛ لماذا أصبح مقدسًا، فقد سمع صوت الإله شيفا وزوجته بارفاتي أثناء ممارسة الحب. أليست ملكة بابل من شرَّعت بإباحة اللذة لتغطي على إشاعات دنسها؟! أم أقص عليه ما فعله البشر ببشر مثلهم وقاموا بخصي الفقراء والعبيد! كيف غيروا من خلق الله وكانوا يقولون ويحللون أفعالهم بأنهم يصلون بالإنسان لدرجة الملائكية بحرمانه من الشهوة واللذة وممارسة الجنس. تصمت وتتقلب في فراشها وتصف نفسها بالجنون؛ إنها أفكار مجنونة لا تمت للواقع بصلة؛ هل وصلت لدرجة أن أرفع عن وجهي قناع الحياء؟ أشعر ناحيته بشيء لم أشعره تجاه أي إنسان، وتأخذني أفكاري لتلك الأقوال القذرة، لا يتقبل مني ذلك، إنه يصفني بصفات ملائكية؛ نعم أعرف أنني متمردة بطبعي والملائكة لا تتمرد. هو يخاف الله، ما أجمله وكم إنسان اليوم وفي أيامنا يخاف الله؛ إنه يربط بين ما حدث له وخروجه عن المعتقد الديني، لا؛ مستحيل أن ألوث أفكاره بتلك الترهات والأحداث التافهة، لكن يجب أن يعلم أن المرأة ليست مجرد جسد يرضي غرور الرجل، وهذا كل ما يهمها؛ جارية خادمة محظية وفي النهاية زوجة. أنا أرفض أن يتخيلني كذلك، تعود لحالتها الطبيعية وتلعن كل تلك الأفكار.

تقلبت في فراشها، لم تدرِ بنفسها وهي بملابسها المنزلية، توجهت مباشرةً للدور السفلي؛ لتطمئن عليه، كان غبش الصبح

باديًا وعناق الصباح بأردية الليل هادئًا، طوال عمرها تتحرك بثقة، لا تدري ما السبب الذي يجعلها تهبط وكأنها لصة، تتسلل بهدوء. يتصنع النوم، تتقدم ناحيته، تربت بحنان بالغ على رأسه، تميل لا إراديًا وتطبع قبلةً على خده، تعود أدراجها.

يفكر فيها ولكن يضع تلك الأفكار موضع المستحيل، فالفروق بينهما كثيرة، ماذا يعني طبعها لقبلة فوق خده! هل ما زالت مصممة بأنها أسيرتي؛ لأنني أنقذت حياتها كما يقولون؟ يتأملها في نومه؛ بخصرها النحيف وعودها الفارع، عندما مضت اختلس نظرات عاشقة نجسة إلى عجيزتها البارزة المستديرة الراقصة، إلى جسدها المحمل بثمار أنثوية ناضجة تنتظر من يتذوقها، يلعن نفسه ويحاول أن يسحب أحلامه وخيالاته بعيدًا عن تلك الأفكار النزقة الهمجية كما يصفها لنفسه، تطالعه بوجهها وهي تتقدم صوبه وابتسامتها الرائعة المشجعة لأفكاره، يتأمل ثدييها المنتصبين الثائرين، أما قدماها؛ فتبدوان مخروطيتان، يبرز بنطلونها الذي ترتديه ملامحهما جيدًا، وركان مخروطيان عفيان يضجَّان بالشباب والحيوية، ما أجملها فاكهة ناضجة فائرة! جسدها فائر وكلماتها التي يتخيلها فيها ميوعة أنثوية لا تقاوم.

لم تنم ليلتها إلا بعد أن أطفأت لظى قلبها بقبلتها فوق خده، عادت لمخدعها وسعادة الدنيا تغمرها، صنعت أحلامًا للغد وما بعد الغد، لا تهتم بتلك الشكليات؛ المهم أنها تحبه، وكل حركة يفعلها وكل همسة أو أي بادرة تعكس مدى ولهه بها، نامت ملء جفنيها حتى اقترب الظهر، نظرت للساعة، معالم دهشة، أسرعت، هبطت، سألت الدادة: لماذا تركتِني أنام كل هذا؟ تذرعت السيدة بأن الطعام أمامه ثلاث ساعات حتى يتم طهوه ويكون جاهزًا، نظرت إليها نظرةً ذات مغزًى وابتسمت،

عانقتها الفتاة وحيتها بتحية الصباح، وقد نسيتها وكذلك قبلتها المعتادة في خدها فبادلتها القبلة والضحكة، وكأنها تدفعها أن تأتي معها لتريا معًا مصري، استجابت لدعوتها. السعادة فوق محياها، لم يصدقا عينيهما، كان حريصًا أن يترك المخدع مرتبًا، الملابس التي أحضرتها السيدة ما زالت في موضعها، ورقة صغيرة مكتوب فوقها كلمات:

«سلامي للسيدة الرائعة التي ذكرتني بأمي، أما أنتِ يا صاحبة أجمل قلب في الدنيا سأنتظرك في الميدان».

***

كانت تتعجل المضي والدادة تبتسم فيحمر وجهها خجلًا، كأن حياء الفتيات جديد عليها، بنظرات حانية تقطر سعادة تحتضنها وتشعر بما آل إليه حالها، تربِتُ على كتفها وتخبرها بأن الطعام قد اقترب من النضج، لا تبوح بخلجات قلبها، لكن السعادة واضحة، همتَّ أن ترتدي ثوبًا يشبه ثياب السهرات، سخرت من نفسها وعادت ترتدي المعتاد للميدان.

قبيل المغرب وصلت الميدان، أسرعوا إليها، حملوا عنها ما جادت به، أقاموا أفراحهم وسط هتافات الرحيل والسقوط، كان يومًا من الأيام العصيبة؛ فقد قامت الكثير من المعارك ونشبت مصادمات وسقط جرحى بل قتلى، عيناها تبحثان وتنقبان عن مصري، لا أثر له، يمنعها الحياء، تتسلل بحكايتها وتطالبهم بسرد ما تم طوال اليوم، لكنهم محجمون عن سيرة مصري! توجس غريب ينام في صدرها، كسرت كل سدود الحياء وسألت

عنـه، ادعـوا عـدم المعرفـة، في النهايـة أفصحـوا بـأن واحـدًا منهـم فتـش تلـك الحقيبـة الملقـاة بـين حاجياتهـم، اكتشـفوا بداخلهـا أوراق وهويـة مـن يُدعـى مـصري؛ مجنـد وتابـع لقـوات الأمـن، كمـا عـثروا عـلى ملابسـه العسـكرية ومـا أثـار مخاوفهـم أكـثر أنهـم وجـدوا مبلغًـا كبـيرًا مـن المـال محشـورًا في جيـب حقيبتـه، تأكـدوا مـن أنـه جاسـوس، صرخـت فيهـم ووصفـت فعلهـم بأنـه فعـل متهـور ولا يـدرون عواقبـه.

تسـألهم أيـن ذهبـوا بـه، قالـوا: إنهـم أخـبروا القائمـين عـلى أمـن الميـدان، أرسـلوا بدورهـم مـن قـام بالتفتيـش بعنايـة في كل أرجـاء الخيمـة وتخوفـوا مـن وجـود متفجـرات وبمجـرد وصولـه قبيـل صـلاة الظهـر جـاء فاقتـادوه مبـاشرةً، تسـألهم إلى أيـن؟ لا يعرفـون لـه مكانًـا أو موضعًـا، بعـد أسـئلة تعـددت وإجابـات تنقصهـا الحقيقـة والدقـة، بـدأ السـخط عـلى وجههـا، تركتهـم، كلمـا سـألت في موقـع مـن المواقـع لا تعـرف لـه سـوى اسـم مـصري فحسـب، إجاباتهـم مألوفـة ولا تخـرج عمـا اعتادتـه ويشـيرون عـلى موقـع آخـر وقيـادة أخـرى؛ يقـول أحدهـم، هنـاك عـدد كبـير اتجـه إلى قـصر الاتحاديـة أو العروبـة، تسـألهم إنسـان مقبـوض عليـه، يسـتغربون، خائفـة بـل متأكـدة أنـه في خطـر. هـل يحاكمونـه كونهـم قبضـوا عليـه ويسـتعلمون عـن حقيقـة الأمـر؟ إن الكثـير يطالبـون بمحاكمـات ثوريـة فوريـة. يهمـس أحدهـم بـأن مـن سـألت عنـه تمـت محاكمتـه وربمـا ألقـوه مـن فـوق كـبري قـصر النيـل إلى النيـل، ثوابـت وحقائـق لا يمكـن أن يكذِبَهـا لقـد قـصَّ عليهـا كل شيء، فالحقيبـة حقيقيـة والملابـس، فلـم يكذبـه ولـم يـدَّعِ سـوى الحقيقـة مجـردة، تتمنـى أن تـصرخ بأنـه بـريء؛ لا تطاوعهـا شـفاهها، تهبـط دموعهـا قـسرًا، وتقـول: ربي كـم تحمـل هـذا الإنسـان! تدعـو الله أن يتـولاه برعايتـه،

أن يعـود إليهـا، آثـار التعذيـب عـلى ظهـره لـو شـاهدوها لعرفـوا أنـه أولى النـاس بتلـك الثـورة، آه لـو أكلتـه الثـورة! عندمـا يواجـه المتاعـب يستسـلم ويظـن أن العنايـة الإلهيـة ترعـاه، يتصـور العقـاب بأنـه عقـاب إلهـي سريـع، يخـاف الله، صوتهـا حـتى في حديثهـا مـع نفسـها متوتـر مشـحون بالذعـر والخـوف والقلـق. شـحب وجههـا وأصبـح حلقهـا جافًّـا وشـفاهها تشـعر بيبوسـتها رغـم الجـو الشـتوي البـارد، تعيـد صياغـة سـؤالها ومـن جديـد تسـأل؛ يقولـون: إنهـم قبضـوا عـلى بعـض الجواسـيس وألقوهـم في النيـل، سـمعت هـذا الـكلام، تسأل: هـل تـم القبـض عـلى هاربـين مـن السـجون؟ ليتهـم يعرفون ذلـك ويعيدونـه لسـجنه، الجميـع يقـررون لا وجـود للسـجون وأغلـب السـجون فتحـت أبوابهـا، هـل ترفـع لافتـة باسـمه وتـدور في الميـدان؟ عليهـا أن تذهـب إلى قـصر العروبـة.

عـادت أدراجهـا للبيـت مـع سـاعات الصبـاح الأولى، ووجـدت الـدادة في حالـة يـرثى لهـا، حكـت لهـا وبكـت بـين أحضانهـا وشـاركتها البـكاء والنحيـب.

عـادت للميـدان والسـاعة تقـترب مـن العـاشرة، عازمـة أن لا تـترك بقعـةً في الميـدان أو الشـوارع الجانبيـة للميـدان، أو المستشـفيات الميدانيـة أو المستشـفيات العامـة الـتي ينقلـون إليهـا المصابـين، بل عزمـت أن تمـر عـلى المشرحـة وأقربهـم وأكثرهـم (مشرحـة زينهـم)، طافـت كل الأرجـاء ولـم تبخـل بجهـد، أرهقـت طـول يومهـا ولـم يحالفهـا الحـظ ولـو بإشـارة صغـيرة، تهبـط دموعهـا تشـعر بهزيمتهـا، لا تشـارك المتظاهريـن هتافهـم بـل تـصرخ بـكل قوتهـا الـتي استنفذتها ولا صـوت يخـرج منهـا، تبحـث وتنقـب عـن مـصري وسـط الملايـين مـن المصريـين، تخـاف أن يكـون مصـيره المـوت أو الهـلاك، تتمـنى أن يكـون عـلى قيـد الحيـاة، أفكارهـا السـوداء تسـابق

خطواتها، تعيش أسيرة مأزق لعين.

تطفح الكآبة فوق وجهها ولكن ما زال الأمل باقيًا داخلها، كابوس مريع تعيشه طوال أيام ثلاثة، شبكة الإحباط تتقارب خيوطها، تتزاحم الصور في ذهنها ولكن تفتقد صورة مصري بينها، تحاول أن تقفز فوق شكوكها وتبوء محاولاتها بالفشل، ترفض فكرة موته؛ فهو مفقود فحسب، ترتاب في كل شيء حولها وما زال الأمل يعشش داخل صدرها - نعم ذهبت لكل المستشفيات في الميدان وخارجه والمشرحة ولكنها لم تعثر عليه - ينمو أملها كلما لم تعثر عليه، خائرة القوى، منهكةً وتعود لتسأل من جديد: هل ينال عقوبة جريمة لم يرتكبها؟

عليها أن تعود إلى الجموع المحتشدة أمام قصر العروبة، أو الاتحادية كما يسمونه، منهكةٌ تجلس على الأرض بجوار الكثيرين، يقدم إليها أحدهم شربة ماء، تبتلع في صعوبة بالغة، يبدو جليًّا أنها من الثائرات المؤمنات، يحاول الرجل أن يدفعها للحديث؛ فيقول لها: هل تدركين السبب بتسميته قصر الاتحادية؟ هذا القصر رفض عبدالناصر الإقامة به واكتفى بمنزله بمنشية البكري، وكذلك السادات، وقال إنه فلاح ولا يحب حياة القصور، ثم أصبح مقرًّا لاتحاد الجمهوريات العربية وقتها؛ مصر وسوريا وليبيا، وكانت السودان في الطريق لإعلان تلك الوحدة، يومها ضحكوا عليها وسموها وحدة الفقراء، يضحك الرجل فلا تجاريه الضحك، الجميع ينتظرون، ومئات الآلاف أيضًا أمام الإذاعة والتلفزيون، وما زال الميدان يعج بالملايين في انتظار.

اليوم الجمعة ١١ فبراير ٢٠١١.

تصمت الملايين وتحبس أنفاسها، في أجهزة التلفاز يظهر اللواء

عمـر سـليمان نائـب الرئيـس، يذيـع عـلى الجمـوع خطـابَ تنحـي الرئيـس عـن الرئاسـة وتكليـف المجلـس الأعـلى للقـوات المسـلحة بـإدارة شـئون البـلاد.

انفجـرت كل ميادين الثـورة بالـصراخ والهتـاف والعويـل، نشـوة انتصـار غريبـة، أفـكار متلاطمـة تـضرب شـاطئ قلبهـا وتحـاول النجاة مـن الغـرق، تتمنى أن تـصرخ أن تحتضـن كل رفقـاء دربهـا، تتمـنى أن يكـون مـصري بجوارهـا، كانـت سـتلقي بنفسـها في أحضانـه، كانـت سـتبكي وترفـع مـن فـوق وجنتيـه الدمـوع السـاقطة في فـرح، كانـا سـيرقصان عـلى أنغـام الهتافـات المتباينـة الصارخـة الزاعقـة - كـم نحـن في أمـس الحاجـة لتطهـير قلوبنـا ومدننـا وحياتنـا مـن الأوبئـة - هتافـات الفـرح تغرقهـا فتبـكي وتهبـط دموعهـا بكثافـة لـم تحـدث مـن قبـل، أيـن مـصري؟ تـود أن تـصرخ وهـي في الحقيقـة تـصرخ وتسـأل ولكـن لا مجيـب، إنهـا لحظـة فارقـة في تاريـخ أمـة.

أين مصري؟ أين مصري؟

هو أولى الناس بالفرح، هو المسجون المعذب المقهور.

أين مصري؟

افتحـوا بـاب سـجنه، هـل حقًّـا ألقـوه في النيـل فسـافر حـتى مصـب النهـر؟ وإن كان عـلى قيـد الحيـاة، هـل يركـب البحـر ويغـادر موطنـه؟ ربمـا يفكـر في الهجـرة، تنـادي عـلى الجميـع أن يمـدوا يدهـم لينقـذوا مـصري، عـلى كل الإنسـانية أن تمـد يدهـا لفجـر ضمـير الإنسـانية الغائـب لتعيـده إلى مكانـه وموضعـه

هل عاد مصري لقريته؟

أي قريـة في ربـوع مـصر؟ قـال إنـه مـن الجنـوب، لهجتـه مصريـة لا تحمـل ثمـة وصفـة معينـة، في ذروة بكائهـا يلتففـن حولهـا، يبكـين

مثلها فرحًا لنجاح الثورة، تبكي وتصرخ بألم وهنَّ أيضًا في فرح، ترتسم في سماء القاهرة كلها رسوم تلقي بالتهاني من خلال أضواء الليزر الخضراء، تتباين الألوان، الجميع يتعانقون يغردون يبكون وهي تشارك.

وصراخها بجملة واحدة:

«عد يا مصري».

السيرة الذاتية للكاتب

- عضو اتحاد كتاب مصر

– عضو نادي القصة

– عضو أتيليه القاهرة

- رئيس نادى الأدب بالمنيا

الكتب المطبوعة :

المسرح

- لـن تسـقط المئذنـة - المـسرح العـربي ....الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب

- الملونون- كتب مسرحية ....هيئة قصور الثقافة

وتم إخراجها أكثر من مرة في نوادي المسرح

- فرعون الأمريكاني ....دار حراء للطبع والنشر

- طبعة ثانية في النصوص الجديدة

اخرجت للمسرح أكثر من مرة

- محاكمة عيلة صابر - سلسلة الجنوبي – هيئة قصور الثقافة

- من أولها كذب - صدرت في جزئين متتالين في مجلة مسرحنا

- الخوف علينا حق - نصوص مسرحية – هيئة قصور الثقافة

- منظمـة - المسرحيـات العربيـة – الهيئـة المصريـة العامـة

للكتـــاب

- المتهــم – ولــد مجنــون ... مسرحيتــان فى كتــاب – دار التيســير للطبــع والنــشر

- ســاعة حظــر - فائــزة بالمركــز الأول بؤسســة ســلوي علــوان – أخرجــت بمــسرح جلمعــة القاهــرة – طبعــت مــن خــلال المؤسســة

- هــوس -القائمــة القصــيرة في مســابقة الهيئــة العربيــة للمــسرح تحــت الطبــع

القصة القصيرة

- اقتلــوا المــوتي - القصــص العربيــة القصــيرة – الهيئــة المصريــة العامــة للكتــاب

- مطلوب أفضل جحش - دار الأحمدي للطبع والنشر

- من يوميات مدرس متمرد - بورصة الكتب للطبع والنشر

- الخـــــــــــادم - هيئة قصور الثقافة

- نصف رجل ونصف - دار الأدهم للنشر والتوزيع

الرواية

- انتقــام سرب الحمائــم العميــاء - دار الشــباب العــربي للطبــع والنــشر

- الشارد - دار الشباب العربي للطبع والنشر

- كلاب الصيد - دار سندباد للطبع والنشر

- السماسرة- بورصة الكتب للطبع والنشر

- ظلال القهر - المكتب العربي للمعارف
- شق الجبل - كيان للنشر والتوزيع
- عشاق فوق القانون- الهيئة المصرية العامة للكتاب
- الغجر - تحت الطبع
- دم رخيص (ابن الزعيم) - تحت الطبع

قصص الأطفال

- كنز أجدادي- بورصة الكتب للطبع والنشر

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.

ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublish.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublish.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

kayan_publishing

Kayan.publishing

kayanpubishing

Kayanpublishing

KayanPublishing

+KayanPubishing